بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

ما هو السرّ فى هذه الجموع ؟

للدكتور إبراهيم أنيس

تروى لنا[1] المعاجم[2] العربية[3] جموعا عجيبة للمفردات : رأس ، رئم ، بئر ، رأى ، مؤق ، سؤر ، هى على الترتيب : آراس ، آرام ، آبار ، آراء ، آماق ، آسار .

وقد كنا ندهش لهذه الجموع التى قيل لنا إن ظاهرة القلب المكانى قد لحقتها ، وإنها فى الأصل : أرآس ، أرآم ، أبآر ، أرآء ، أمآق ، أسآر ؟ . ثم تقنع كتب الصرف بذلك ، ولا تكاد تفسر لنا لماذا وقع القلب فى هذه الأمثلة بالذات ، ولم يقع فى جمع « ظِئْر بمعنى المرضع ، « دَأْث » بمعنى الدنس ، « لِئْم » بمعنى الند والنظير ، « رِئْد » بمعنى الترب المماثل فى السن ، « رَأْد ، رُؤْد » بمعنى أصل الأضراس فى اللحى ؟ ؟ إذْ لم يرد فى جمع هذه الكلمات إلا : أظآر ، أدآث ، ألآم ، أرآد ، أى على الأصل فقط ! !

وقد تبين لنا فى هذه الدراسة أن السرّ فى وقوع القلب المكانى فى تلك الأمثلة الستة هو اختلاف نسبة الشيوع بين السلاسل الصوتية التى تتألف منها تلك الجموع ، فحين

كانت نسبة شيوع الحرفين المتواليين فى الصورة الأصلية قليلة، ولكنها فى الصورة الفرعية كثيرة، على حسب ما جاء فى إحصاءات جذور اللغة العربية – لوحظ أن القلب المكانى قد يحدث. ففى جمع مثل «آراء» نجد فى إحصاءات الجذور الثلاثية أن الثنائى المؤلف من الراء وبعدها الهمزة نسبة شيوعه سبع مرات فقط؛ فى حين أن الهمزة وبعدها الراء ١٦ مرة!! لذلك نتصور أن الثنائى «أر» يخطر فى الذاكرة أسرع مما يخطر الثنائى «رأ»، ويترتب على ذلك أن الثنائى «أر» يسبق إلى اللسان ويحل محل الثنائى الآخر «رأ»، وهذا هو القلب المكانى.

ونجد النسبة الآنفة الذكر فى ثلاثة من الأمثلة الستة هى: آراس، آرام، آراء.

وأما الشأن مع الأمثلة الثلاثة الأخرى فنجد أن النسبة مع «آبار» هى: «ب أ» ٤مرات، «أ ب» ١٥ مرة؛ ومع آماق» هى: «م أ» ٧ مرات، «أم» ١١ مرة. ومع «آسار» هى «س أ» ٨مرات، «أس» ١١ مرة[1].

فى حين أنه إذا نظرنا إلى مثل من تلك التى لم يقع فى جمعها القلب المكانى، مثل كلمة «ظئر» نجد أن نسبة الشيوع هى: «ظ أ» ٣ مرات، ولكن «أ ظ» صفر، أى أن الذاكرة تصرّ على الثنائى الأصلى «ظ أ»، ولايكاد يخطر فيها الثنائى «أ ظ» الذى لاوجود له فى أول الجذر الثلاثى. ولذلك تبقى الصورة الأصلية دون قلب.

وكل ذلك إذا لم يلتبس الجمع فى حالة القلب المكانى بجمع كلمة أخرى أشهر وأعرف، فحينئذ نلحظ أن خوف اللبس يمنع وقوع القلب.

وفى ضوء ما تقدم رأينا أن نستعرض هنا الأمثلة التى عثرنا عليها فى المعاجم القديمة مثلاً مثلاً؛ لنرى ما روى عنها فى تلك المعاجم، ولنتبين السر فيما أصاب بعضها من قلب مكانى، والسر فى عدم وقوع القلب فى البعض الآخر.

---

(١) راجع إحصاءات الحاسب الإلكترونى لجذور اللغة العربية – نشر جامعة الكويت.

أولا :

الأمثلة التى روى القلب المكانى فى جمعها على وزن أفعال :

١ — (رأس) . جاء فى اللسان: « رأس كل شئ أعلاه ، والجمع فى القلة أرؤس ، آراس على القلب ، ورءوس فى الكثير ، ولم يقلبوا هذه » . فلم يشر صاحب اللسان إلى الصورة الأصلية فى أفعال ، أى أرآس ، مكتفيا برواية المقلوب . وكما أشرنا آنفا نلحظ أن نسبة شيوع الثنائى « رأ » فى إحصاءات الجذور الثلاثية قليلة ؛ هى سبع مرات فقط ، فى حين أن الثنائى « أر » ١٦ مرة ، ولذلك وقع القلب المكانى .

فإذا خيف اللبس لم يقع القلب ، ولذلك وجدنا أن كلمة « لئم » بمعنى الند والنظير لاتجمعها المعاجم مع القلب برغم أن نسبة الشيوع هى : « ل أ » ٢ مرتان فقط ، « أ ل » ١١ مرة . وكنا نتوقع أن يحدث هنا القلب ، ولكن المروى هو « ألآم » فقط فى ذلك الشاهد الشعرى :

أنقعد العام لا نجنى على أحدٍ مجندين وهذا الناس ألآمُ

ومن المؤكد أن السرّ فى عدمَ وقوع القلب المكانى فى جمع « لِئْم » برغم تحقق الشرط فى نسبة الشيوع ، هو خوف اللبس مع جمع كلمة أخرى مشهورة جدا هى « آلام » جمع « ألم » بمعنى وجع .

٢ — رئم ، والمشهور فى جمعها هو « آرام » ، فالنسبة هنا محققة وتسوغ القلب المكانى وإن جاء فى المعاجم أيضا «أرآم» على الأصل . جاء فى اللسان : « الرئم الخالص من الظباء ، وقيل هو ولد الظبي والجمع « أرآم » ، وقلبوا فقالوا آرام » .

ونسبة الشيوع هنا هى : « رأ » ٧ مرات ، ولكن « أر » ١٦ مرة ! !

ولكن يبدو أن خوف اللبس هنا مع كلمة غير مشهورة أو قليلة الاستعمال لايعدّ لبسا حقيقيا يوقع فى البلبلة والحيرة ، ولذلك لم يمنع من وقوع القلب المكانى فى جمع « رئم » على آرام وهو الجمع الأشهر ، برغم أن المعاجم تروى هذا الجمع نفسه لكلمة أخرى غير مشهورة هى « إرَم » ؛ فنرى فى اللسان ما نصه : « والإرَم حجارة تنصب علماً فى المفازة ،

والجمع آرام ، أروم، مثل ضلع وأضلاع وضلوع . وفى الحديث: ما يوجد فى آرام الجاهلية وخِربَها فيه الخمس ، والأرآم الأعلام وهى حجارة تجمع وتنصب فى المفازة يهتدى بها واحدها إرَم كعنب » .

فيبدو أن قلة شهرة آرام بمعنى الأعلام لم تمنع من وقوع القلب الذى فى آرام بمعنى الظباء، وذلك لضعف احتمال اللبس بين الجمعين . ومع هذا فقد أبقت المعاجم على الصورة الأصلية أرآم أيضا بمعنى الظباء .

ولذلك ندهش جدا حين نرى رواية فى اللسان تجمع كلمة « ثأر » على آثار، أى مع القلب المكانى ! ! فيقول صاحب اللسان : « ابن سيده: الثأر الطلب بالدم، وقيل: الدم نفسه، والجمع أثآر ، وآثار على القلب، حكاه يعقوب » .

فاللبس هنا مؤكد مع جمع كلمة أخرى مشهورة جدا وكثيرة الاستعمال هى « أثر » التى جمعها المشهور آثار !! لذلك نتشكك فى حكاية يعقوب لجمع « ثأر » على آثار ، أى مع القلب . وكأن ابن سيده فى قوله : « حكاه يعقوب » يريد أن يحمل يعقوب وحده وزر هذه الرواية !!

ونحن على كل حال لا نعرف شاهدا من كلام العرب ورد فيه الجمع «أثآر» أو «آثار» لكلمة ثأر ، وإنما المشهور المروى فى النصوص هو جمعها جمعا صحيحا مؤنثا ومع تخفيف الهمزة ، أى ثارات !! جاء فى اللسان :

« ونقول ياثاراتِ فلان ، أى يا قتلة فلان ، وفى الحديث: ياثاراتِ عثمانا، أى يا أهل ثاراته ، ويأيها المطالبون بدمه ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وقال حسان بن ثابت .

لتسمعنّ وشيكاً فى ديارهـــــمُ .:. الله أكبر ياثاراتِ عثمانـــــــا »

وهنا نرى أن الجوهرى إزاء هذا النص يحاول جاهدا ومع قدر من التعسف أن يفسر « ياثارات عثمانا » على أنه إما نداء لطالبى الثأر ، أو نداء للقتلة ؟

والحقيقة أنه لا يعدو أن يكون من أساليب الندبة ، وأن الجمع «ثارات» لتضخيم شأن «الثأر» وبيان خطورته ، ولا سيما مع خليفة المسلمين عثمان !

ويزيد من شكّنا فى حكاية يعقوب أن الإحصاءات [ترينا أن «ث أ» ٧ مرات ، ولكن « أ ث » ٦ مرات ، فلا مسوغ للقلب مطلقاً ، بل إن جميع الظروف اللغوية فى الكلمة تأبى الرواية التى انفرد بها يعقوب :

٣ — « بئر » ، والمشهور فى جمعها هو «آبار» . ونسبة الشيوع هنا محققة ومسوغة للقلب إذ هى : ب أ ٤ مرات فقط ، ولكن « أ ب » ١٥ مرة . ويساعد على ذلك أن المعاجم لا تذكر اسما ثلاثيا من مادة (أبر) يتطلب جمعا على وزن أفعال ، فلا خوف من اللبس فى حالة القلب المكانى : جاء فى اللسان ما نصه :

« البئر القليب أنثى والجمع أبآر بهمزة بعد الباء ، ومقلوب عن يعقوب ، ومن العرب من يقلب الهمزة فيقول : (آبار) ، فاذا كثرت فهى البئار ، وهى فى القلة ، أبؤر ، وفى حديث عائشة : اغتسلى من ثلاثة أبؤر يمد بعضها بعضا » .

وفى رأيى أن لا مسوغ لرواية الجمع « أبآر » إلا أن يكون ذلك لمجرد الإشارة إلى أنه الأصل ، ثم اندثر من الاستعمال :

٤ — «رأى» والمشهور فى جمعها هو «آراء» ونسبة الشيوع هنا محققة ومسوغه للقلب المكانى ؛ إذ هى : «رأ» ٧ مرات ، ولكن «أر» ١٦ مرة . ولا احتمال للبس مع كلمة «أرْى» التى لم ترو لها المعاجم جمعا .

جاء فى اللسان : «والرأى معروف وجمعه أرآء ، آراء أيضا مقلوب» ولكن يذكر صاحب اللسان أيضا ما نصه :

«والرأى الاعتقاد اسم لا مصدر ، والجمع آراء ، قال سيبويه : لم يكسّر على غير ذلك ، وحكى اللحيانى فى جمعه أرءٍ » .

لا مبرّر كذلك لرواية الجمع (أرآء) إلا على أنه الأصل وقد اندثر من الاستعمال ولا سيما حين نذكر قول سيبويه إن (رأى) لم يكسر على غير آراء !!

٥ — مأق العين ، موقها بمعنى حرف العين الذى يلى الأنف . والمشهور فى الجمع هو «آماق» . ونسبة الشيوع محققة ومسوغة للقلب المكانى ، وإن لم يكن الفرق فى النسبة كبيراً كما فى الأمثلة السابقة؛ فنسبة الشيوع هنا هى «مأ» ٧ مرات ، ولكن «أم» ١١ مرة .

وكما جاء فى اللسان لم يذكر اللحيانى فى جمع هذه الكلمة إلا الجمع المشهور ، أى «آماق» ، وهو الذى ورد فى شعر الخنساء .وأما قول أبى الهيثم إن الجمع قد يكون أيضاً «أمآق» وروايته فى ذلك شعرا مجهولا صاحبه ، فلاحجة لهذا الشاهد وحده ؛ إذا ربما كانت الرواية الصحيحة فى هذا الشاهد هى «آماق» ولا يختل الوزن بذلك .

وليس يسوغ فى رأيى رواية الجمع «أمآق» بمعنى الألحاظ إلا أن نفترض أنه الأصل وقد اندثر من الاستعمال. ومما يزيد هذا الفرض قوة أن المعاجم العربية القديمة قد روت الجمع «أمآق» وحده بمعنى آخر هو النواحى الغامضة من أطراف الأرض ، فقد جاء فى اللسان ما نصه :

« الليث : المؤق من الأرض والجمع أمآق النواحى الغامضة من أطرافها » .

ويقضى ذلك بتخصيص الجمع «آماق» للألحاظ ، والجمع «أمآق» للنواحى الغامضة من أطراف الأرض ، منعا للبس بين الدلالتين .

٦ — سؤر ، تلك هى الكلمة التى روى يعقوب وحده جمعا لها على «آسار» أى مع القلب المكانى . فإذا رجعنا إلى اللسان وجدنا ما نصه :

السؤر بقية الشئ وجمعه أسآر، وسؤر الفأرة وغيرها ، وقوله:أنشده يعقوب فى المقلوب :

إنا لنضرب جعفرا بسيوفنـــا ضرب الغريبة تركب الآســـارا

أراد «الأسآر» فقلب ، ونظيره الآبار والآرام فى جمع بئر ورئم » .

وبرغم أن الفرق فى النسبة هنا غير كبير إذهو : «سأ» ٨ مرات ولكن «أس» ١١ مرة نشعر مع ذلك أن القلب فى «آسار» إن صحت الرواية إنما أمكن وقوعه بسبب أن المادة (أسر) لا تتضمن اسما ثلاثيا يتطلب جمعا على وزن أفعال ، وعليه فلا خوف من اللبس مطلقا .

على أنه من ناحية أخرى يمكن أن يقال: إن صغر الفرق فى نسبة الشيوع جعل الجمع «آسار» أقل شهرة فى الاستعمال اللغوى، ولذلك انفرد يعقوب ، بروايته : برغم أن الوزن فى شاهده يصح أيضا مع الجمع الآخر «أسآر» فلا حجة له بهذا الشاهد وحده .

ثانيا :

الأمثلة التى لم يرو القلب المكانى فى جمعها على وزن أفعال :

(ا) إما لأن النسبة الإحصائية المؤهلة للقلب غير محققة .

(ب) أو لأن خوف اللبس مع كلمة أخرى يمنع من وقوع القلب .

١ – «ظئر» بمعنى المرضع جمعت على «أظآر» فقط؛ لأن نسبة الشيوع هى: «ظأ» ٣ مرات ، ولكن «أظ» صفر .

٢ – «الدأث» بمعنى الدنس ، جمعت على « أدآث » فقط ؛ لأن النسبة هى «دأ» ٦ مرات ، ولكن «أد» ٦ مرات أيضا .

٣ – «لِئم» بمعنى الندّ والنظير ، فبرغم تحقق النسبة المطلوبة؛ إذ هى «لأ» ٢ مرتين فقط ولكن «أل» ١١ مرة ، ومع ذلك نرى أن خوف اللبس مع «آلام» بمعنى أوجاع منع من وقوع القلب المكانى مع معنى الند والنظير ، ولذلك جمعت على «ألآم» فقط .

أما بعد :

فلم يشذّ عن القاعدة التى اهتدينا إليها هنا سوى جذر واحد ثلاثى يتمثل فى هذه الكلمات :

١ – رئد بمعنى الترب المماثل فى السن .

٢ – رأد ، رؤد ، بمعنى أصل الأضراس فى اللحىّ .

فقد روى الجمع فى هذه الكلمات على صورة واحدة هى «أرآد» فقط، برغم أن النسبة الإحصائية محققة ومسوغة للقلب وهى :

«رأ» ٧ مرات، ولكن «أر» ١٦ مرة . بل إن مما يزيد الأمر هنا غرابة أن المادة اللغوية (أرد) لا وجود لها فى المعاجم، فلا احتمال لأى لبس، أى أن جميع الشروط المطلوب توافرها لحدوث القلب محققة، ومع ذلك جاء الجمع على الأصل وحده ودون قلب، أى «أرآد» فقط !!

ولا غرابة أن نجد فى المعاجم هذا الجذر الشاذ، فالشذوذ يؤكد القاعدة .

وبالله التوفيق

المشرف على المجلة

ابراهيم انيس

نوفمبر ١٩٧٤



المعجمات العربية المتخصصة

للدكتور ابراهيم مدكور

قد يظن أن المعجمات المتخصصة من صنع التاريخ الحديث والمعاصر ، ولكنها عرفت منذ زمن طويل . لها أصول فى التاريخ القديم والمتوسط ، ووصل إلينا منها قدر لا بأس به . ودون أن نعرض لها فى اللاتينية أو اليونانية ، نود أن نقف قليلا عندها فى العربية فنشير إلى نشأتها ونموها ، وننوه ببعض نماذج منها . ولا شك فى أن هذه المعجمات ثمرة من ثمار النهضات العلمية والثقافية ، لا تظهر لأول وهلة ، وإنما هى وليدة جمع وتحصيل لجهود سابقة واستخلاص من مكاسب وثروات محققة ، وتتويج لحركات فكرية متلاحقة .

وقد بدأت الحركة الفكرية فى الإسلام منذ الدعوة المحمدية ، وأخذت تتغذى بقول النبي وفعله ، وقام على أمرها من بعده الصحابة والتابعون ، وتعهدها شيوخ المسلمين وأئمتهم . ولم يترددوا فى أن يستعينوا فى ميدان الدرس والبحث بمن انضم إليهم من مفكرين كتابيين وغير كتابيين ، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها . وبلغت هذه الحركة أوجها فى القرن الرابع الهجرى ، أو العاشر الميلادى ، ونشأت عنها علوم مختلفة ، بين دينية ولغوية ، طبيعية ورياضية منطقية وفلسفية . وأصبحت دائرة المعارف الإسلامية من أوسع دوائر معارف الفكر البشرى ، ربطت التاريخ القديم بالمتوسط ، وامتدت إلى التاريخ الحديث ، وغذته بغذاء له شأنه . أخذت وأعطت ، تأثرت وأثرت .

ولكل علم لغته ومصطلحاته ، يضعها أهله ، ويذيعها الدرس والتأليف . تبدأ قلقة محدودة ، وتخضع لسنة النشوء والارتقاء فيحذف منها ما يحذف ، ويعدل ما يعدل ثم لا تلبث أن تنمو بنمو العلم نفسه ، وأن تنتشر بانتشاره ، وأن تستقر باستقرار العرف والاستعمال . وهنا يعنى الباحثون بجمعها وشرحها فى معجمات خاصة لأنها مفاتيح العلم وأدوات التعلم . ويتفننون فى وضع هذه المعاجم ، فيقصرونها على علم بعينه ، أو يستوعبون فيها طائفة من العلوم . يرتبونها ترتيبا موضوعيا ، أو يسلكون فيها مسلك الترتيب الهجائى على غرار المعجمات اللغوية . وتتفاوت شروحهم للمصطلحات ، فتجيء تارة مختصرة مركزة ،

تكتفي بذكر الدلالة اللغوية للفظ ، وتضيف إليها دلالته الاصطلاحية في دقة واختصار . وتنحو تارة أخرى منحى البسط والتفصيل ، فتبين آراء العلماء والباحثين ، وتشير إلى خلاف المذاهب والمدارس .

ولا تقف المعجمات المتخصصة عند المصطلحات العلمية ، بل تعالج أيضا العلماء أنفسهم . فتحاول حصرهم والتعريف بهم ، وتسجل بذلك تاريخ العلم ، وتعين على فهم قضاياه ، وتمكن من الحكم على رجاله .

* * *

والعربية غنية غناء ملحوظا بمعجماتها المتخصصة ، فكثّر فيها منذ عهد مبكر ، وبُدئ بها في العلوم الدينية واللغوية ، ثم طُبقت فكرتها على العلوم الأخرى من إنسانية وطبيعية ورياضية ، وكتب التفسير في في أساسها تعد ضربا من هذه المعجمات ، وكتب الحديث من صحيح ومسند وشرح لها لا تخرج عن هذا كثيرا . وفي وسع العربية أن تباهي بما وفر لها من معجمات الأعلام ، فلديها منها ثروة لا نكاد نجد لها نظيرا في اللغات الأخرى . وكثيرا ما سميت كتب الطبقات أو التراجم ، ولكل فرقة ولكل مدرسة ولكل علم طبقاته ، مثل طبقات المعتزلة ، وطبقات الشافعية ، وطبقات النحاة وطبقات الأطباء . ولا شك في أن علوم الحديث في عنايتها بتاريخ الرجال والكشف عن مدى نزاهتهم وصدقهم في روايتهم هي التي وجهت نحو هذا اللون من التأليف .

ولم يقف أمر هذه المعجمات عند الأشخاص بل امتد إلى البلدان والأماكن . وهناك باحثون أولعوا بذلك ولوعا كبيرا ، وعلى رأسهم ياقوت الحموي (٦٢٤هـ = ١٢٢٨م) صاحب « معجم الأدباء » و « معجم البلدان » وهو دون نزاع حجة في هذا الباب ، ومرجع هام يعول عليه . ويعد من أعلام أصحاب الموسوعات والمعاجم في التاريخ القديم والحديث .

وندع جانبا معجمات الأشخاص والأماكن وما أجدرها ببحث خاص . ونقصر حديثنا على معجمات المصطلحات ، والحديث فيها يطول ، وليس في وسعنا أن نستوعبها هنا جميعها ، فهي متعددة ومتنوعة بتنوع العلوم والفنون ، ونكتفي بذكر ثلاثة منها تشير إلى التطور التاريخي في وضع المعجمات العربية المتخصصة ، وهي « مفاتيح العلوم للخوارزمي » ، و « تعريفات الجرجاني » ، و « كشاف اصطلاحات العلوم والفنون للتهانوي » .

والخوارزمي (٣٨٧هـ = ٩٩٧م) شيخ من شيوخ القرن الرابع الهجري ، الذي يعد العصر الذهبي للثقافة الإسلامية ، فوقف عليها الخوارزمي في مراحل نضجها ، وألم بفروعها وأصولها ، واتسم بالطابع الموسوعي الذي كان شارة العصر وإن غلبت عليه حرفة الأدب . اتصل بالدولة السامانية ، وهي مشهورة بخدمة العلم ورعايته ، وكتابه الذي نعرض له إنما صنف باسم واحد من وزرائها . وكان

يجيد العربية والفارسية ، وله فيما يبدو إلمام بالسريانية واليونانية . ويظهر أن بعض فلاسفة هذا العصر وعلمائه كانوا يعنون باللغات الأجنبية ، ويحصّلون منها ما يجدون السبيل إلى تحصيله . ويكفى أن نشير إلى الفارابى الفيلسوف ، وهو معاصر للخوارزمى ، وقد توسع رجال التراجم كثيرا فيما ينسبوه إليه من معرفة لغات أجنبية .

والخوارزمى رائد من زواد المعجمات العربية المتخصصة ، أدرك فى وضوح الفرق بينها وبين المعجمات اللغوية . ذلك لأنها تعبر عن عرف خاص ، وتشتمل على مصطلحات ومواصفات لا يعرفها إلا أهل العلم أنفسهم . ويلاحظ بحق « أن اللغوى المبرز فى الأدب إذا تأمل كتابا من الكتب التى ألفت فى أبواب العلم والحكمة ، ولم يكن شدا صدرا من تلك الصناعة ، لم يفهم شيئا منه »[1] . وهو يشير بهذا إلى ما استقر عليه رأى الفيلولوجيين المعاصرين من أن اللغة العلمية واحدة من اللغات الخاصة ولاحظ أيضا أن اللفظ الواحد قد يأخذ دلالات مختلفة باختلاف العلوم والفنون ، فالرجعة مثلا عند الفقهاء الرجوع فى الطلاق ، وعند متكلمى الشيعة عودة الإمام بعد غيبته أو موته ، وعند الفلكيين سير أحد الكواكب الخمسة المتحيرة على غير نضد البروج[2] .

ويقع كتابه فى مقالتين ، وقف أولاهما على العلوم الشرعية والعربية ، ووقف الثانية على العلوم الأعجمية والدخيلة وتحت كل مقالة عدة أبواب ، وتحت كل باب عدة فصول . فقام الكتاب جميعه على تقسيم موضوعى ، وتبويب دقيق محكم . وقد أعلن المؤلف فى مقدمته : أنه ، رغبة فى الاختصار والوضوح ، ترك جانبا المصطلحات المشهورة والمتعارف عليها ، كما ترك المصطلحات الغريبة والغامضة التى تحتاج إلى مزيد من الشرح والتفسير ، وتحاشى التفريع المفرط وإيراد الحجج والشواهد[3] . وقد حقق فعلا ما قصد إليه ، وجاء كتابه مرجعا للمتخصصين ، وعونا لطلاب البحث والدراسة . ولذلك سماه « مفاتيح العلوم » لأنه مدخل لها ، ووسيلة للكشف عن بعض الغامض منها[4] . ولهذا الكتاب شأن خاص فى توضيح تطور المصطلح العلمى العربى ، والإشارة إلى مصادره الأساسية من وضع أو تعريب ، ولعله من أوضح المراجع العربية بيان الأخذ عن اليونانية والسريانية . وقد كشف عنه حديثا المستشرق الهولندى «فان فولتن» فى أخريات القرن الماضى ، وعول عليه من بعده الباحثون والدارسون .

---

(١) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص٣
(٣) المصدر السابق ، ص٤
(٤) المصدر السابق

والشريف الجرجانى (٨١٦هـ=١٤١٣م) من رجال القرن التاسع الهجرى ، جاء بعد الخوارزمى بنحو خمسة قرون ، وعاش فى عصر غلبت فيه الدراسات النقلية من فقه وتفسير وحديث ، ولم يبق من الدراسات العقلية إلا المنطق وعلم الكلام . تتلمذ لبعض شيوخ عصره ، أمثال قطب الدين الرازى (٧٦٥هـ=١٣٦٥م) واتصل بتيمور لنك ، وفى مجلسه ناظر سعد الدين التفتازانى (٧٩٠هـ=١٣٨٩م) أجاد العربية والفارسية ، وكتب وألف فيهما ، وتدور مؤلفاته نحول الفقه والتفسير والحديث من جانب ، والمنطق والكلام والبلاغة من جانب آخر .

ومن بينها «كتاب التعريفات» ، وهو معجم متخصص صغير ، عنى خاصة بالعلوم الدينية والأدبية ، وطغت عليه نزعة لغوية واضحة ، فأدخلت فيه ألفاظ لا تعد من المصطلح فى شىء ، وحظ العلوم الطبيعية والرياضية فيه جد ضئيل ، فهو صورة صادقة لبيئته وثقافة عصره . سلك فيه مؤلفه مسلكا واضحا فى التلخيص والتركيز ، ولم يعرض للخلافات المذهبية والمدرسية إلا فى حدود ضيقه . فجاءت تعريفاته جلية واضحة ، يسهل حفظها والاستشهاد بها . ورتبت مصطلحاته ترتيبا أبجديا ، يسر أمرها على الدارسين والباحثين . وفى هذا ما يفسر سر ذيوعه ، والإقبال عليه ، ولكن «مفاتيح العلوم» دون نزاع أعمق منه درسا ، وأكثر تخصصا .

والتهانوى من رجال القرن الثانى عشر الهجرى (١١٥٧هـ=١٧٤٥م) ، وهو علم من أعلام الفكر الإسلامى فى الهند . ويمتاز هذا الفكر بمحاولة دائبة للجمع بين العلوم العقلية والنقلية ، حتى فى عصور الانحطاط والظلمة . وقد نشأ التهانوى فى بيت علم ، واستطاع أن يلم بأطراف المعرفة المعهودة ، فأحاط بالعلوم الشرعية والعربية ، وتمكن من علوم الحكمة النظرية والعملية ، واتسم بطابع موسوعى فسيح يذكرنا بكبار مفكرى الإسلام فى العصر الذهبى .

ويبدو طابعه الموسوعى هذا فى معجمه الكبير الذى سماه «كشاف مصطلحات الفنون» وقد قضى فى وضعه بضع سنين ، وهو قطعا من أكبر المعجمات العربية المتخصصة ، بدأه بمقدمة طويلة حاول أن يحصر فيها العلوم المختلفة ، بين عربية وغير عربية ، شرعية وغير شرعية ، جزئية وكلية ، حقيقية وغير حقيقية . وهذه المقدمة ضرب من تصنيف العلوم ، شبيه بما لوحظ لدى مفكرين آخرين ، كإحصاء العلوم للفارابى ، وإن كان صنيع التهانوى أعم وأشمل . وعرض لهذه الأقسام قسما قسما ، وعرف بموضوع كل علم ومسائله وأهدافه ، وقد يشير إلى بعض كتبه ورجاله . ومراجعه عربية خالصة ، وفى أغلبها معاصرة أو شبه معاصرة ، وفى ضوء هذه المعرفة غذى معجمه ، وقد يتوسع فى بعض المواد إلى درجة هى أدخل فى باب التأليف الموسوعى منها فى باب المعجم العلمى .

ويكفي أن نشير على سبيل المثال إلى مادة « التأريخ » التي وقف عليها عدة صفحات عرض فيها للتواريخ المختلفة : الهجرى ، والرومى ، والقبطى ، والفارسى ، والتركى .

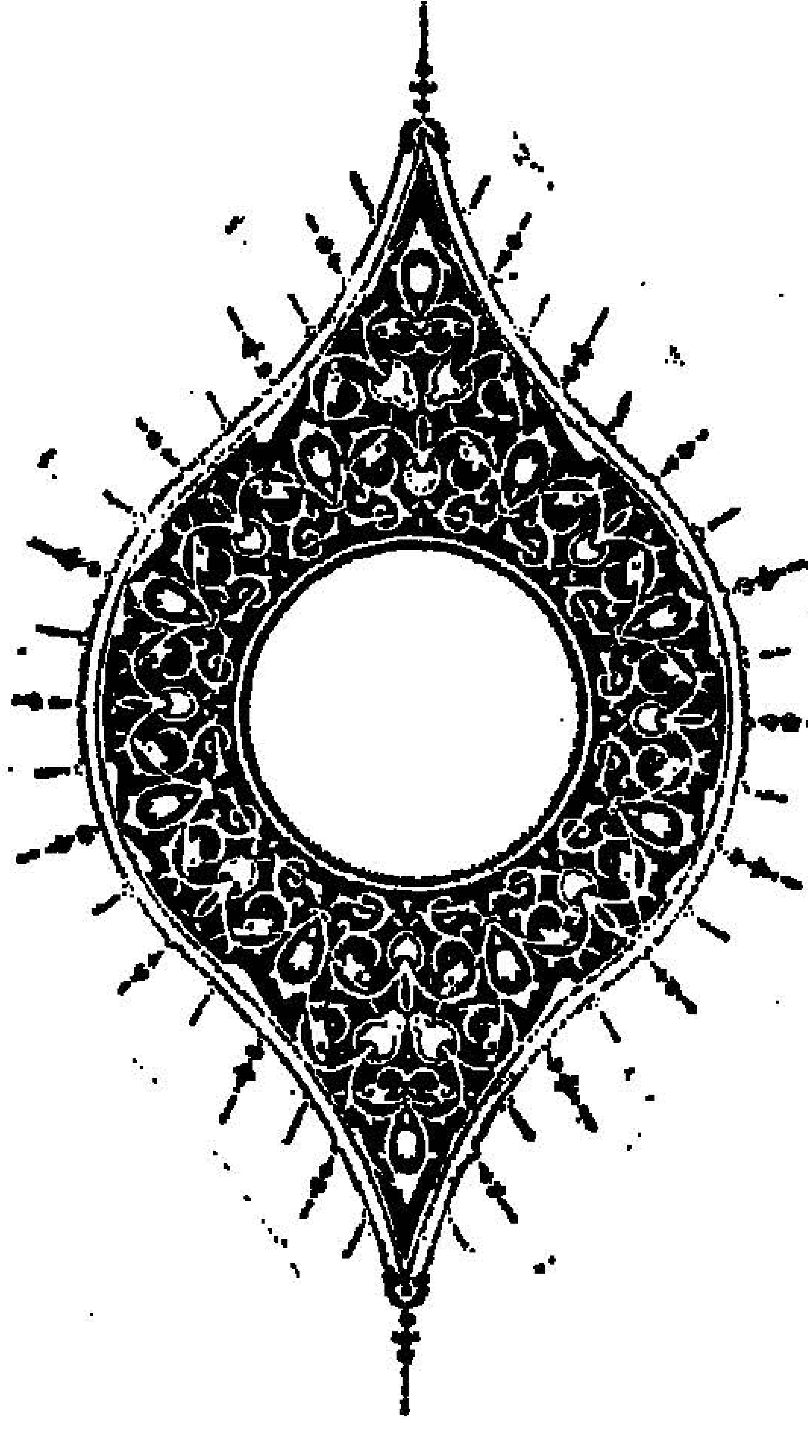
ورتب هذا المعجم ترتيبا أبجديا ، وقسم إلى أبواب على حسب حروف الهجاء ، وتحت كل باب عدة فصول . ولوحظ فى الباب الحرف الأول من الكلمة ، وفى الفصل الحرف الأخير منها ، على عكس ما صنع صاحب « الصحاح » . وهو تبويب معقد بعض الشيء ، لا يجد فيه الباحث طلبته فى يسر ، فينتقل مثلا من « الأدب » إلى « المؤنث » ، ثم إلى « الأوج » ، « والتاريخ » وقضى بذلك على كثير من مزايا الترتيب الأبجدى ، ولو وقف عند الأبواب ، ورتب مواد كل باب ترتيبا هجائيا خالصاً لكان أولى . وقد درج المؤلف فى الشرح على أن يبدأ بالدلالة اللغوية ، ثم ينتقل إلى الدلالة الاصطلاحية ، ويتوسع فيها ما استطاع ، ولا يتردد فى أن يبين مختلف المذاهب والآراء ، وأن يشير إلى بعض المراجع . وقد يثبت نصوصاً فارسية للدلالة على معنى خاص . فجاء معجمه إلى حد ما « ثنائى اللغة » . وشاءت وزارة الثقافة أن تخرجه فى ثوب عربى خالص ، وأن تعيد طبعه وفق المنهج العلمى السليم ، لاسيما وقد نفدت طبعة الهند العتيقة (١٨٦٢) . ويسير هذا التحقيق فى بطء ملحوظ ، بدئ به عام ١٩٦٣ ، ولم يخرج منه فى العشر سنوات التالية إلا ثلاثة أجزاء صغيرة ، وقف آخرها عند « باب السين » « فصل الطاء » .

* * *

هذه نماذج ثلاثة من المعجم العربى المتخصص ، وفيها سبق واضح فى الموضوع والترتيب ، فمنها ما اقتصر على المصطلح ، ولم يخلط به شيئا سواه ، وهذا هو أساس المعجم المتخصص . ومنها ما التزم بالترتيب الأبجدى ، وهذا هو دعامة التأليف المعجمى اليوم ، ومنها ما نحا نحوا موسوعيا ، فمهد لما تضطلع به دوائر المعارف الحديثة ، وهذه المعجمات الثلاثة متعاقبة زمنا ، ويرتبط لاحقها بسابقها . وبرغم أنها وليدة بيئات مختلفة فإنها تشهد بوحدة لغة العلم فى العالم الإسلامى جميعه ، وبذيوعها واستقرارها لدى العلماء والباحثين شرقا وغربا . ولم يصنع أصحاب المعجمات هذه شيئا أكثر من أنهم سجلوا عرفا شائعا ، ودونوا مصطلحات ومواصفات متوارثة ، وهذه هى القيمة الحقيقية للمعجم العلمى . فلم يخترع أصحابنا شيئا ، ولم يبتكروا ألفاظا جديدة ، وفى هذا درس ما أجدرنا أن نفيد منه فيما نعالج من معجمات علمية .

ولاشك فى أن العالم العربى ، من الخليج إلى المحيط ، يشهد اليوم نهضة ثقافية ملحوظة ، تهدف إلى إحياء مجد الماضى ومواجهة متطلبات الحاضر . ومما يؤسف له أن كثيرين من باحثينا لايعنون بالمصطلحات القديمة عناية كافية ، وفى وسعهم أن يفيدوا منها فى أداء بعض مبتكرات العلم الحديث ، وهذا قصور أو تقصير لامبرر له . ويلاحظ فى ربع القرن الأخير تسابق إلى تأليف المعجمات المتخصصة ، ونحن فعلا فى حاجة إليها ، ولكنها ليست مجرد ترجمة ووضع مقابلات عربية لألفاظ أجنبية ، بل هى أساسا تسجيل لعرف شاع واستقر . أما أن تتعدد هذه المقابلات وتتنوع بتنوع المؤلفين ، فهذه بلبلة ينبغى أن نحذرها . وقيمة المصطلح فى أنه جزء من لغة تعارف عليها المشتغلون بعلم معين واطمأنوا إليها . ونريد للعلم العربى اليوم لغة موحدة فى المشرق والمغرب ، كما كان شأنه بالأمس القريب والبعيد .

ابراهيم مدكور
رئيس المجمع



الآيات التسع البينات

للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

قد أكرم الله سبحانه وتعالى رسوله موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم — بآيات بينات، ومعجزات باهرات، كل معجزة منها آية بينة واضحة، ودليل قوى قاطع، يشهد بصدقه، ويثبت دعواه، أنه رسول من الله.

وإن ما أكرمه الله به من الآيات، وما منحه من المعجزات. ليس فى مقدور أحد من البشر، ولا فى مقدور الناس جميعا ولو تعاونوا عليه، فإنه فعل الله وحده، يصدق به رسوله فيما يدعيه، وهو بمنزلة قول الله تعالى: صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى.

إن الآيات البينات، والمعجزات الباهرات التى أكرم الله بها رسوله موسى عليه السلام كثيرة.

(١، ٢) فمنها الآيتان اللتان أمره الله تعالى أن يذهب بهما أول الأمر إلى فرعون، ليثبت له بهما صدقه فى دعواه أنه رسول الله إليه، وهما: «العصا واليد»، كما قال سبحانه وتعالى: «وما تلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى. قال: ألقها ياموسى، فألقاها فإذا هى حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى. واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى. لنريك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طغى». (١٧ — ٢٤ طه)

(٣، ٤) «ومنها آيتا السنين أى سنى القحط ونقص من الثمرات» كما قال تعالى: «ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون». (١٣٠ الأعراف).

(٥ — ٩) ومنها الآيات الخمس التى قال الله فيها: «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين» (١٣٣ الأعراف).

هذه الأنواع الخمسة من العذاب قد أنزلها الله على فرعون وقومه، ولم يصبهم بها دفعة واحدة، بل أرسلها عليهم متفرقة؛ وكانوا كلما أصابهم نوع منها ضجوا

واستغاثوا وتضرعوا وطلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام أن يسأل ربه ليرفع عنهم ذلك العذاب ، وكانوا يعطونه العهد والميثاق أن يؤمنوا به إذا رفع عنهم مانزل بهم ؛ لكنهم ما كانوا يوفون بالعهد أو يرعون الميثاق ، بل كانوا سراعا إلى نقض ذلك والتنكر له . وذلك كما قال الله تعالى : « ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » . (١٣٤ ، ١٣٥ الأعراف)

(١٠ ، ١١) ومنها معجزة فلق البحر فرقتين ومرور موسى عليه السلام ببنى إسرائيل بينهما على أرض يابسة حتى وصلوا شاطىء البر الآخر سالمين ، ثم غرق فرعون ومن كان معه من كبار جيشه والملأ من قومه ، وهم الذين كانوا يركضون خلف بنى إسرائيل ليقتلوهم ويقضوا عليهم ؛ فإنهم تبعوهم فى ذلك الطريق ؛ ولكنهم ما كادوا يتوسطونه حتى انطبق عليهم البحر من شقيه فلم ينج منهم أحد .

وكانت حادثة انفلاق البحر فلقتين كالطودين العظيمين وحادثة انضمام الفلقتين إحداهما إلى الأخرى وعودة البحر إلى ما كان عليه — كلتاهما معجزة لموسى عليه الصلاة والسلام : أمره الله سبحانه وتعالى فى الأولى بأن يضرب البحر بعصاه فضربه ضربة انفلق بها فرقتين ، وكان بينهما الطريق اليبس الذى نجى الله به بنى إسرائيل من فرعون وبطشه . ثم كانت المعجزة الثانية بانضمام الفرقتين وعودة الماء إلى حالته الأولى لإغراق فرعون ومن كان معه من جنده وقومه .

(١٢) ومنها معجزة نتق الجبل فوق بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وتهديدهم بإسقاط الجبل عليهم لتثاقلهم فى امتثال أوامر الله تعالى ، وتراخيهم فى تنفيذ الأحكام التى حملها إليهم رسولهم من عند الله تعالى ، كما قال سبحانه :

« وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » . (١٧١ الأعراف) .

(١٣) ومن المعجزات التى أكرم الله بها سيدنا موسى منحة له ولبنى إسرائيل :

معجزة تظليل الغمام عليهم وهم فى التيه ، فكان السحاب يسير معهم فوقهم يمنع عنهم لفح الشمس ، ويقيهم شدة حرها .

(١٤) ومنها معجزة المن الذى كان يرسله الله عليهم كل صباح من الفجر إلى طلوع الشمس ، وهو مادة بيضاء حلوة كانوا يتغذون بها أجود غذاء ، وكانت تغنيهم عن الخبز المعتاد ؛ وكانوا أيضاً يصنعون منها نوعاً من الخبز .

(١٥) وكذلك معجزة السلوى ، وهو طائر السمانى[1] المعروف أو نوع قريب منه ، كان يرسله الله عليهم آخر النهار من كل يوم ، فكان لهم من هذا وذاك أطيب غذاء يتجدد لهم كل يوم . وفى ذلك يقول الله تعالى : «وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم» : (٥٧ البقرة).

(١٦) ومن المعجزات التى أكرم الله سبحانه وتعالى بها سيدنا موسى وامتن بها على بنى إسرائيل معجزة الحجر وتفجير الماء منه ، فإنهم لما فقدوا الماء وهم فى التيه واشتد بهم العطش فى الصحراء المحرقة استغاثوا بموسى عليه السلام ، فسأل ربه أن يسقيهم : فأمره الله سبحانه وتعالى أن يضرب الحجر بعصاه فضربه ، فتفجر الماء منه عيونا غزيرة اثنتى عشرة عينا للأسباط الاثنى عشر ، فكان فى ذلك ريهم وسقى دوابهم وكفايتهم فى وجوه حاجاتهم إلى الماء . وذلك قوله تعالى :

«وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم» :
(٦٠ البقرة)

هذه ست عشرة معجزة من المعجزات التى أكرم الله بها رسوله موسى عليه السلام ؛ وهى كثيرة لا تقف عند هذه الست عشرة :

وما دام الأمر كذلك :

١ – فكيف يفهم قوله تعالى : «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات» (١٠١ الإسراء)

٢ – وما هى على التعيين هذه الآيات التسع من بين الآيات الكثيرة التى أشرنا اليها ؟

٣ – وهل كانت هذه الآيات التسع موجهة إلى قوم معينين غير من وجهت إليهم الآيات الأخرى ؟

٤ – وإذا كان الجواب على هذا بالإيجاب فكيف يستقيم ذلك مع قوله تعالى ، فى الإخبار عن فرعون وما كان منه : «ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى» ؟(٥٦ طه) :

والجواب عن هذه الأسئلة الأربعة أن الآيات الكثيرة التى أكرم الله بها رسوله موسى عليه السلام وأيد بها رسالته – منها تسع آيات هى التى قصد بها فرعون وقومه كما تشير إلى ذلك آية سورة الإسراء : «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون : إنى لأظنك ياموسى مسحورا» ، فإن ما أخبرت به به هذه الآية من رد فرعون على موسى عليه الصلاة والسلام ذلك الرد الذى هو غاية فى العناد والتكذيب والسفاهة يدل على أن الآيات التسع التى أوتيها موسى عليه السلام قد كانت موجهة إلى فرعون وقومه .

(١) بتخفيف الميم بعد السين المضمومة المشددة .

وهذا المعنى يفيده بصراحة ووضوح قوله تعالى : « ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم . وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب : ياموسى لاتخف إنى لايخاف لدى المرسلون . إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم . وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه. إنهم كانوا قوما فاسقين » (٩ — ١٢ النمل)

الآيات التسع البينات

وفى سبيل تعيين هذه الآيات التسع نورد ماقاله « النسفى » فى التفسير متابعا فيه الزمخشرى صاحب الكشاف :

قال رحمه الله — فى تفسير قوله تعالى: « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » مانصه : « ولقد أريناه » أى فرعون « آياتنا كلها » وهى تسع آيات : العصا ، واليد ، وفلق البحر ، والحجر ، والجراد والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونتق الجبل .

وفى تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » .

قال النسفى — تبعا للزمخشرى أيضا مانصه :

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — هى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذى نتقه على بنى إسرائيل .

ثم قال : « وعن الحسن » الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور » . اهـ

وهكذا يعتمد كل من الزمخشرى والنسفى فى تفسير آية « طه » : « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » على مانسب إلى ابن عباس من أن آيات فلق البحر ، وتفجير الماء من الحجر ، ونتق الجبل هى من الآيات التسع التى ووجه بها فرعون وقومه .

كما أنهما أوردا فى تفسير آية الإسراء ذلك الذى نسب إلى « ابن عباس » وقدماه على غيره من الأقوال .

وهذا أمر عجيب ، وشىء لايطمأن إليه ، ولاينبغى أن يعتمد عليه فى تفسير الآيات التسع وتعيينها. ولايكفى لقبول ذلك أن يكون منسوبا إلى ابن عباس ، فكم كذب الناس على ابن عباس رضى الله عنهما ، وكم نسبوا إليه من الأقوال ماهو منه براء .

على أنه لوصحت نسبة ذلك القول إليه فهو مجتهد غير معصوم الرأى كغيره من المجتهدين .

إنه عجيب حقا أن تعد معجزة فلق البحر من المعجزات التى ووجه بها فرعون ليرتدع عن عناده وضلاله ، ويكف عن كفره وفجوره ، كما هو الشأن فى المعجزات التى يراد بها الإنذار والتهديد .

إن معجزة فلق البحر قد أرادها الله تعالى لتكون نهاية لطغيان فرعون، وإهلاكا له، وقضاء عليه وعلى الملأ من قومه وإذاً لا ينبغي أن تعد من المعجزات التي وجهت إليه لهدايته وإرشاده كي يعدل عن غيه، ويكف عن فجوره وبغيه، وإنما هي الحدث الأكبر الذي كان به هلاكه ونهاية أمره، وهلاك الممالئين له من قومه.

أما المعجزتان الأخريان ـ وهما معجزة الحجر ومعجزة نتق الجبل ـ فقد كانتا مع بني إسرائيل بعد خروجهم من «مصر» ونجاتهم من فرعون الذي أهلكه الله.

كانت معجزة الحجر منحة لهم، ونعمة عظيمة امتن الله بها عليهم لما عطشوا واشتدت حاجتهم إلى الماء، ولجأوا إلى موسى عليه السلام أن يستسقي لهم، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فلما ضربه موسى بعصاه انفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد الأسباط الاثني عشر كما قدمنا.

وكذلك معجزة نتق الجبل، كانت خاصة ببني إسرائيل لكنها كانت محنة لهم وإنذارا شديداً وتهديداً بإسقاط الجبل عليهم وإهلاكهم، لما تراخوا وتثاقلوا في القيام بأمر الله وتنفيذ أحكام التوراة التي حملها إليهم رسولهم من عند الله تعالى، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

ومن ذلك يعلم أن ماروى عن الحسن البصري أصح وأثبت مما نسب إلى ابن عباس، وأن الآيات التسع التي حدثت عنها آية سورة «الإسراء» وآية سورة «النمل» ليس منها معجزات البحر والحجر ونتق الجبل.

هذا ـ والذي حققه العلامة «الآلوسي» صاحب «روح المعاني» ـ في تفسيره آية «الإسراء: «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات» ـ أنه قد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك عدة روايات وأن أصح ماروى عنه هو أن الآيات التسع هي: «العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم». اهـ

وهي التي نسبت في بعض الروايات إلى «الحسن»، كما قدمنا. ثم يقول الشيخ الآلوسي: إن نسبة ذلك إلى «الحسن» هي على خلاف ماوجدناه في الكتب التي يعول عليها في أمثال ذلك: اهـ (روح المعاني جـ١٥ ص١٦٩ المطبعة المنيرية) ويخلص من ذلك أن الآيات التسع هي العصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات بمختلف الآفات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

فالعصا واليد لايحتاج فيهما بعد ما تقدم إلى زيادة بيان.

وأما السنون فهى مدة القحط والجدب ، وكانت سبع سنوات لم ينبت لهم فيها نبات ولازرع بسبب احتباس المطر .

وأما نقص الثمرات فهو بوقوع التلف فيها بما سلط عليها من مختلف الآفات . وروى عن « ابن عباس » رضى الله عنهما أن القحط أصيب به أهل البادية وأصحاب الماشية ، فأما نقص الثمرات فقد أصيب به أهل الحضر .

والمراد بالطوفان المطر الشديد الذى غمر حروثهم وزروعهم ، وقد دام عليهم ثمانية أيام فى ظلمة لم يروا معها شمسا ولا قمرا ولم يستطيعوا أن يخرجوا فيها من بيوتهم .

وقيل إن هذا الطوفان هو ماء المطر الغزير الذى تسرب إلى بيوت القبط فغمر كل مافيها من متاع وأثاث . وبلغ ارتفاعه قامة الرجل وهو واقف إلى ترقوته ، فإذا قعد غرق.

ومع أن بيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط كانت متجاورة متشابكة لم يدخل شئ من ذلك المطر بيتا من بيوت بنى إسرائيل

أما الجراد فكان كثيراً شديد الحملات عليهم ، قضى على الزروع والثمار وعلى كل شئ ، حتى أكل ثيابهم وسقوف بيوتهم وأبوابها ، ولم يدخل شىء منه فى بيوت بنى إسرائيل .

وأما القمل — وهو القراد فكان يسبح فى ثيابهم وأجسادهم وفراشهم ومطاعمهم ، فكانوا لذلك يلاقون منه أشد العنت والأذى فى صحوهم ورقادهم وسائر أحوالهم . أما بنو إسرائيل فقد كانوا فى أمن وسلام من ذلك كله .

ولقد كانت الضفادع كبيرها وصغيرها تمتلىء بها بيوت القبط . وكان تأذيهم بها بالغاغايته ، حتى إنها كانت تقفز فى قدورهم وهى تغلى ، بل كانت تقفز فى وجه أحدهم إذا كان يتكلم أو كان يأكل تحاول أن تدخل فى فمه . ولم يكن شىء من ذلك فى أى بيت من بيوت بنى إسرائيل .

أما الدم فقد حول الله سبحانه وتعالى مياه الأقباط دما لايحرز أحدهم شيئا من الماء إلا وجده دما ، ولايستقى من معين أو مسيل ماء صاف إلا وجدما يستقيه دما . ولقد كان يجمع بين الإسرائيلى والقبطى على إناء واحد فيكون مايلى الإسرائيلى ماء صافيا على حين يكون مايلى القبطى دما خالصا.

وقد نصت على هذه الأنواع من العقوبات التى عوقب بها فرعون وقومه تلك الآيات القرآنية التى عينت بالتفصيل ماأيد الله به موسى عليه السلام من المعجزات التسع : يقول الله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » . ويقول سبحانه وتعالى : « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد

والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » .

فإذا ضمت هذه الآيات السبع إلى الآيتين الأصليتين اللتين حدث عنهما القرآن فى عدة سور — وهما « العصا واليد » — كان المجموع تسع آيات هى التى يشير إليها قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » وقوله سبحانه فى سورة النمل : « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه » . وهى الآيات التى ووجه بها فرعون وقومه ، كما صرحت بذلك هذه الآية القرآنية من سورة النمل .

وقد رأى فرعون هذه الآيات التسع كلها ولكنه كذب بها كلها وأبى أن يؤمن ويخضع للحق ، كما قال تعالى : « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » ، وكما قال سبحانه : « كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » . وينبغى أن يعلم أنه إذا كانت هذه الآيات التسع هى التى ووجه بها فرعون وقومه كما أسلفنا فإن آية « العصا » من بينها قد كانت لها آثارها العظيمة مع بنى إسرائيل أيضا ، فهى التى ضرب بها البحر فانفلق ، وكان فى ذلك نجاتهم من فرعون وقومه الذين أهلكهم الله بالغرق فى ذلك البحر نفسه .

وهذه العصا هى التى ضرب بها الحجر لما عطش بنو إسرائيل وطلبوا الماء فتفجرت منه ينابيع وعيون بعدد الأسباط الاثنى عشر . فآثار معجزة العصا كانت عامة فيهم وفى فرعون وقومه .

أما غير هذه الآيات التسع من المعجزات الأخرى فقد كان المقصود بها بنى إسرائيل وحدهم .

هذا وقد قال بعض العلماء : إن الآيات التسع التى قال الله سبحانه وتعالى فى شأنها : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » إنما هى آيات الأحكام الشرعية الأساسية التى وردت فى التوراة ، وفى أمهات الكتب السماوية :

تأمر بعبادة الله تعالى وحده ، عبادة خالصة من شوائب الشرك والشك ومن النفاق والرياء .

وتأمر كذلك ببر الوالدين برا صادقا خالصا من شوائب التأفف والضجر ، وذلك بإكرامهما وإحسان خدمتهما ، والشفقة بهما ، والعطف عليهما .

ثم هى التى تأمر بالاعتدال فى معاملة الإنسان لأخيه الإنسان ، بأن يرعى حقه ، ويفى له بعهده ، ويؤدى إليه أمانته ، ثم لا يتكبر عليه ، ولا يتجبر ، ولا يتفاخر ولا يتعالى ، ولا يعتدى على أحد فى نفس أو عرض أو مال .

وهذا كما فصلته آيات من سورة « الأنعام » جاءت بمثل ما ورد فى التوراة وغيرها من الكتب السماوية المقدسة :

قال تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون .

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» (١٥١ — ١٥٣ الانعام) .

ومثل هذا قد جاء مفصلا فى سورة الإسراء فى قوله تعالى :

«وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما : أف ، ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل: رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » (٢٣ — ٢٧ الإسراء) .

قال أولئك العلماء : إن الموافقات التى نجدها بين ما ورد فى القرآن فى هاتين السورتين : «الأنعام والإسراء» وماورود فى التوراة متعلقا بالأحكام الشرعية وأصول الأخلاق الدينية قد تساعد على الحكم بأن المراد بالآيات فى قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات» إنما هى آيات الأحكام ، وليست الآيات الكونية التى هى المعجزات وقوارع العقوبات .

وقالوا أيضا : إنه يؤيد هذا الحكم ما ورد من الأخبار الصحيحة التي تصرح بهذا المراد فقد روى الإمام أحمد والطبراني والبيهقي والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح ، وكذلك الحاكم وقال : صحيح لانعرف له علة ، كما رواه خلق كثير عن صفوان بن عسال (١) أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي نسأله (يريدان النبي محمدا صلى الله عليه وسلم) ـ فأتياه صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » .

قال أولئك العلماء : إن الظاهر أن هذين اليهودين كانا يقصدان السؤال عن الآيات التسع : أى شيء هي ؟ وهل يقول فيها هذا النبي بنحو ماهو مسطور في التوراة فيكون ذلك دليلا على صدقه ؟

فلما وجدا أنه قد انطبق كلامه صلى الله عليه وسلم فى ذلك على ما ورد في التوراة سرا بذلك وفرحا وقاما يقبلان يديه وقدميه . فإنه عليه الصلاة والسلام قد أجابهما بقوله : « لا تشركوا بالله شيئا ، ولاتزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا، ولا ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، ولاتفروا من الزحف ، وعليكم يا يهود خاصة ألا تعتدوا فى السبت ، فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبي الخير » .

قالوا : فهذه تسع آيات من آيات الأحكام الشرعية ، والوصايا الخلقية ، وأما العاشرة فهي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة باليهود ألا يعتدوا في السبت .

وبهذا يتبين أن الآيات التسع التي أوتيها سيدنا موسى عليه السلام والتي ورد ذكرها في سورة الإسراء هي آيات الأحكام الشرعية كما وردت بهذا المعنى فى التوراة، وكما نبه إلى ذلك بجوابه السديد على سؤال اليهوديين نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام .

وخلاصة القول أننا فى هذا الموضوع أمام ثلاثة أمور ، كل منها له شأنه وقدره العظيم ، وإنها من أجل ذلك تستوجب أن نقف عندها وقفة تفهم وتدبر وقوة انتباه ، لنصل فيها إلى حكم فصل تطمئن إليه النفس وتقره مبادئ الدين :

«الأمر الأول » قول الله تعالى: « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » مع ما أجاب به رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهوديين اللذين قيل إنه عليه الصلاة والسلام قد علم من حالها أنهما يسألان عن الآيات

(١) صفوان بن عسال هو أحد الصحابة الأجلاء غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة غزوة ، وله رضى الله عنه عشرون حديثا .

التسع التى هى آيات أحكام ، فإن ذلك الجواب يدل بظاهره على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يرى أن الآيات التسع فى قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات» هى آيات أحكام ، وليست هى الآيات الكونية .

« الأمر الثانى » قوله سبحانه وتعالى : « يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ، وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون. إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم . وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين » (٩ — ١٢ النمل)

وهو واضح الدلالة على أن الآيات التسع التى أوتيها سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام هى آيات كونية ومعجزات قاهرة ، وعقوبات قد قصد بها فرعون وقومه الكفار الفجرة .

« الأمر الثالث » ماروى عن الحبر ابن عباس رضى الله عنهما وهو أصح ماروى عنه فى هذا الموضوع كما قدمنا — أنه فسر التسع الآيات البينات فى قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » بأنها هى العصا ، واليد ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وهو تفسير منطبق على ما أفادته آيات سورة النمل ؛ من أن الآيات التسع هى آيات كونية ، ومعجزات من قبيل العصا واليد ، وليست آيات أحكام .

وعلى هذا يقال : كيف يكون التوفيق بين الحكم بأن الآيات التسع البينات هى آيات أحكام شرعية ، كما يستفاد من ظاهر خبر اليهوديين وما أجاب به على سؤالهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين الحكم بأن تلك الآيات هى آيات كونية كما أشارت إلى ذلك سورة النمل ، وفصلته سورة الأعراف .

والجواب أن كلمة « الآيات التسع البينات» لاشك أنها تطلق على تلك الآيات الكونية والمعجزات الباهرة القاهرة التى أيد الله بها رسوله موسى عليه السلام وكان فيها قوارع العقوبات لفرعون وقومه جزاء عتوهم وكفرهم ، كما أشير إلى ذلك إجمالا فى قوله تعالى : « فى تسع آيات إلى فرعون وقومه » ، وفصل تفصيلا تاما بينا فى سورة الأعراف ، كما قدمنا . وهذه الآيات التسع الكونية هى التى فسر بها ابن عباس » رضى الله عنهما كلمة : « تسع آيات بينات » فى فى قوله تعالى فى سورة الإسراء : «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » كما علمنا .

لكن ماذا يصنع فى خبر اليهوديين وما أجابهما به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألاه عن هذه الآية من سورة الإسراء ؛ إذ ذكر لهما أشياء هى آيات أحكام وليست من الآيات الكونية التى أشرنا إليها آنفا ؟

« والجواب » عن ذلك من وجهين :

الأول : أنه يمكن أن يكون المراد من الآيات التسع البينات الواردة فى سورة الإسراء آيات للأحكام على نحو ما ورد فى التوراة ، وكما هو ظاهر قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنه تفسير لها فى جوابه على سؤال اليهوديين ، فقد أوردها عليه والسلام تسعة أشياء أحكاما عامة ثم ختمها بحكم خاص باليهود : ألا يعتدوا فى السبت .

وهذه غير آيات أخرى هى من الآيات الكونية والمعجزات القاهرة قد أشارت إليها سورة النمل ، وأنها تسع آيات أيضا : حتى إنه إذا سأل سائل عن تسع آيات بينات أوتيها سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فأجيب بأنها تلك الآيات الكونية فإن ذلك يكون جوابا صحيحا وسديدا ، لأن للرسول موسى عليه الصلاة والسلام تسع آيات بينات هى آيات كونية ومعجزات باهرة ، وعقوبات قاهرة قد أخذ الله سبحانه وتعالى بها فرعون وقومه .

الوجه الثانى أنه لا يجب أن نحكم بأن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أجاب به اليهوديين كان شرحا وتفسيرا لآية : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » وأنه يرى أن « الآيات التسع البينات » فى الآية الكريمة مراد بها آيات الأحكام ، وإنما كان كلامه صلى الله عليه وسلم فى ذلك كلاما حكيما أراد به أن يحقق رغبتهما فى الوقوف على ما عنده من العلم بالآيات البينات التى أراد الله أن يؤيد بها رسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، وهى آيات الأحكام والأخلاق التى يعهدونها مسطورة فى التوراة ، ليتخذوا مما يقوله فيها دليلا على صدقه إذا جاء موافقا لما فى التوراة ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم يكون قد أدرك منهما هذه الرغبة ، أو لعله علم ذلك مما أوحاه الله إليه ، وعلى هذا يكون جوابه لليهوديين بذكر آيات من آيات الأحكام إنما كان لغرض خاص هو إفادتهما بالآيات التسع التى يعرفانها من التوراة ، ويريدان معرفة ما يقوله فيها . وليس لبيان الآيات التسع البينات التى قال الله فى شأنها : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ، فإن هذه هى الآيات الكونية التى نبهت إليها آية النمل » وفصلتها آيات الأعراف .

ويحتمل أيضا أن سؤال اليهوديين إنما كان عن الآيات التسع التى هى الآيات الكونية . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يصرفهما بأسلوب حكيم إلى ما هو أنفع لهما وأجدى عليهما ، وأولى أن يشتد فيه حرصهما واهتمامهما بالبحث عنه ، والوقوف عليه ، وذلك هو آيات الأحكام الدينية ، التى فى الاستمساك بها وإحسان العمل على وفقها سعادة الدنيا والدين .

وأيا ما كان فليس هناك دليل يفيد العلم والقطع بأن كلمة « تسع آيات بينات » فى قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » مراد بها شئ آخر غير تلك

الآيات الكونية والمعجزات الباهرات، وقوارع العقوبات التي أنزلها الله على فرعون وقومه الفجرة الكافرين، وكان ذلك تأييدا من الله تعالى لرسوله موسى عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والتسليم.

كلمة الختام

قد تم القول في الجملة الأولى من الآية الكريمة — وهي قوله تعالى: «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات» حسبا منّ الله سبحانه وتعالى به من التوفيق والتيسير، وعلى قدر ما منح من العلم والفهم.

ونرى هنا — إتماما للفائدة — أنه يحسن أن نفسر الجملة الثانية من الآية (الكريمة) باختصار، وهي قوله تعالى: «فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم»، فإنه قد يحتاج فيها إلى بيان المسائل التالية:

١ — المسألة الأولى: من هو ذلك الشخص المأمور بالسؤال؟

٢ — المسألة الثانية: من هو المطلوب سؤاله؟

٣ — المسألة الثالثة: ما هو ذلك الشيء المطلوب بالسؤال؟

٤ — المسألة الرابعة: كيف عطفت هذه الجملة الثانية بالفاء — وهي جملة طلبية متضمنة حضور المخاطب المأمور الذي معه الحديث — على الجملة الأولى الخبرية المقتضية غيبة المحدث عنه؟

٥ — المسألة الخامسة: بم يتعلق الظرف في قوله سبحانه «إذ جاءهم»؟

وفي الجواب عن المسائل الثلاث الأولى:

قد اختلفت كلمة المفسرين.

ولهم في ذلك رأيان:

الأول: أن المأمور بسؤال بني إسرائيل هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. أمره الله سبحانه وتعالى أن يسأل بني إسرائيل الذين كانوا في عهده عليه الصلاة والسلام — أو الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام — سؤال تقرير، يقررون في جوابه حقيقة ما يعرفونه في كتبهم عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وما جرى له مع فرعون وقومه، حينما جاءهم بتلك الآيات البينات، وما رد به عليه فرعون من قوله: «إني لأظنك يا موسى مسحوراً». وتقدير الكلام على هذا الرأي هكذا: فاسأل يا محمد بني إسرائيل عنه، أي عن موسى، وما كان منه مع آبائهم من بني إسرائيل حين جاءهم وما جرى بينه وبين فرعون وقومه ودعاهم إلى الإيمان به والتصديق برسالته.

الرأي الثاني: أن المأمور بالسؤال هو سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، أمره الله تعالى أن يسأل بني إسرائيل الذين كانوا في مصر يسعون في معايشهم، ويعملون تحت سلطان فرعون وفي دولته:

أمره الله سبحانه وتعالى أن يسألهم من فرعون، أي يطلبهم منه؛ فالسؤال هنا

بمعنى الطلب . ومعنى هذا أن يطلب من فرعون أن يخلي سبيلهم ولا يحول بينهم وبين الخروج مع نبيهم موسى ليسير بهم إلى حيث يريد من أرض الله كما أمره الله .

وذلك كما فى قوله تعالى : « وقال موسى : يافرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » . (١٠٤ ، ١٠٥ الأعراف)

وكذلك قوله تعالى : « فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » . (١٦ ، ١٧ الشعراء) .

وقوله عز وجل : « فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم » . (٤٧ طه)

ولقد كان اهتمام موسى عليه الصلاة والسلام بخروج بنى إسرائيل من مصر عظيما جدا ، لأنه كان يريد أن يبعدهم من مواطن الكفر والشرك والفجور ، ويخلصهم من العذاب الذى كان فرعون وقومه ينزلونه بهم ، وكذلك مما عسى أن ينزل بتلك المواطن من عذاب الله وسخطه .

وقيل : إن السؤال فى قوله تعالى : « فاسأل بنى إسرائيل » مستعمل فى معناه الظاهر ، وهو سؤال الاستفهام والاستخبار . فالرسول موسى عليه السلام قبل أمره الله تعالى أن يسأل بنى إسرائيل عن حالهم ومبلغ تدينهم وإيمانهم وقوة استمساكهم برسالته ، وهل هم مستمرون على متابعته ، مصممو العزم على تأييده ومناصرته والكفاح معه ؟

هذا الوجه قد جوز إرادته بعض العلماء .

ولكنا نرى أنه لا يتم عليه المعنى باستقامة فى بقية الآية ؛ فإنه لا يظهر عليه سر غضب فرعون على موسى عليه السلام ورده عليه ذلك الرد السفيه : وقوله له : « إنى لأظنك ياموسى مسحورا » ، لكن هذا الرد يظهر جيدا ترتبه بالفاء على ما قبله فيما وردت به الآية الكريمة إذا حمل السؤال فى قوله تعالى : « فاسأل بنى إسرائيل » على المعنى الأول الذى هو طلبهم من فرعون ، وأمر فرعون أن يخلي سبيلهم ليذهبوا مع نبيهم كما أوضحنا ذلك آنفا .

أما الجواب عن المسألة الرابعة فهو أن الفاء على الرأى الأول وهو أن المأمور بالسؤال محمد صلى الله عليه وسلم — هى فاء الفصيحة . والأمر فيها ظاهر .

وأما على الرأى الثانى — وهو أن المأمور بالسؤال سيدنا موسى عليه السلام — فهى للعطف بتقدير فعل ماض من القول معطوف على « آتينا » تصير به الجملة المعطوفة جملة خبرية معطوفة على مثلها ؛ والتقدير : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقلنا له : أسأل بنى إسرائيل .

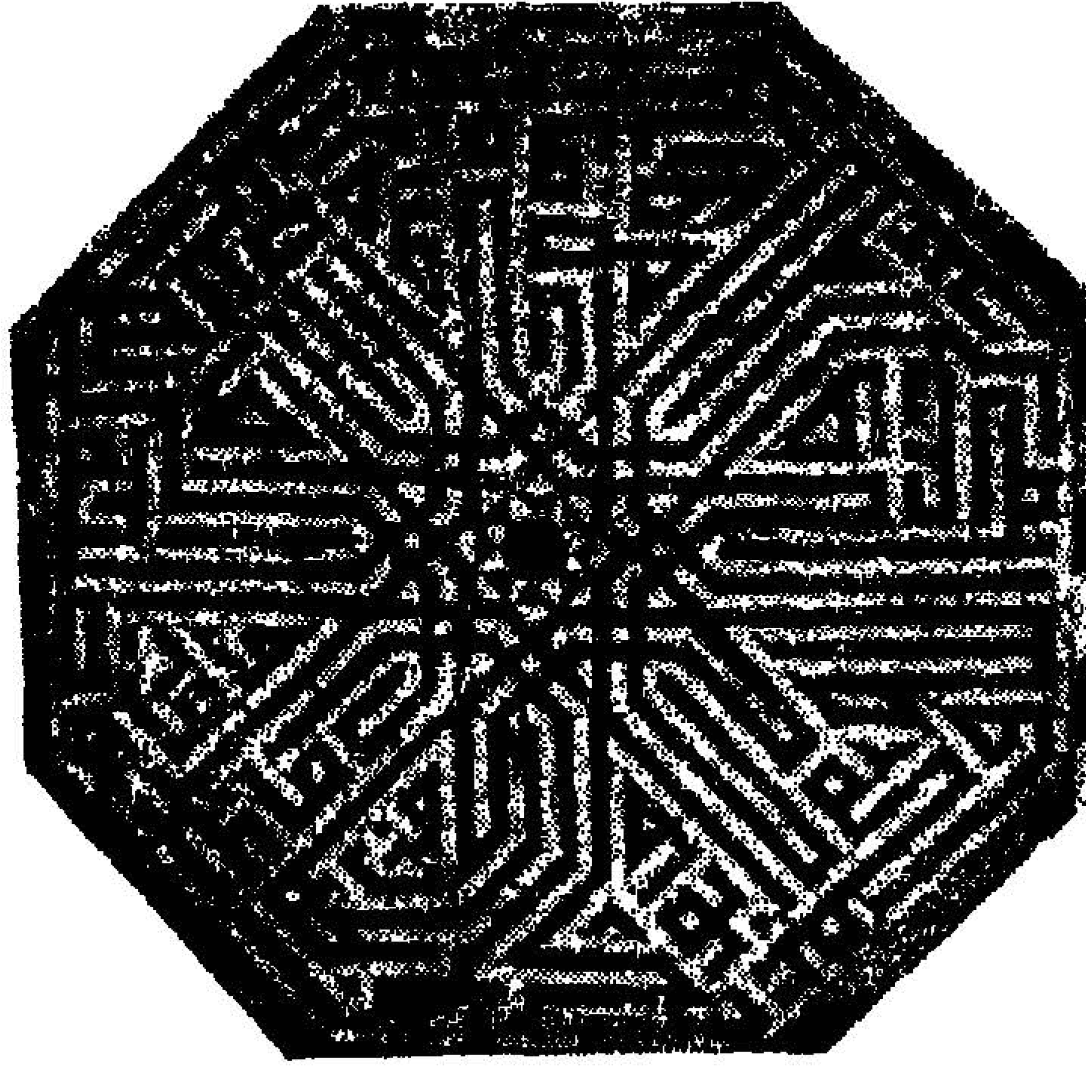
وأما الجواب عن المسألة الخامسة فهو أن الظرف « إذ » على الرأى الأول متعلق بمقدر من المقدرات بعد قوله سبحانه وتعالى: « فاسأل بنى إسرائيل » على ما أوضحناه .

وأما على الرأى الثانى فهو متعلق بالفعل الماضى المقدر بعد الفاء فى قوله سبحانه : « فاسأل » . والتقدير : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقلنا له : اسأل بنى إسرائيل حين مجيئه اليهم : أى قلنا له حين مجيئه إليهم : اسألهم من فرعون واطلب منه أن يخلى سبيلهم : فلما طلب منه ذلك غضب واستكبر ورد عليه ذلك الرد الفاجر السفيه .

والحمد لله رب العالمين

عبد الرحمن تاج

عضو المجمع



حماس وحماسة

للدكتور ناصر الدين الأسد

(١)

ليست قيمة البحث والتنقيب عن أحد الألفاظ محصورة في ذلك اللفظ وحده، وإلا كان الأمر أهون من أن يشغل به أحد نفسه ويضيع وقته فضلاً عن أن يشغل به غيره ويضيع أوقاتهم. فحين تحدثنا في مناسبات سابقة عن «معاجم» ورأيناها الجمع الصحيح لـ«معجم»[١]، وعن «نواد» ورأيناها جمعاً صحيحاً في القياس لـ«ناد» وأن «أندية» هي جمع «ندى» وليست جمع «ناد»[٢]، وعن «وديان»[٣] ورأيناها جمع كثرة لـ«واد» يستوى في صحته مع «أودية» التي هي جمع قلة للفظ نفسه — حين تحدثنا عن كل ذلك قصدنا إلى أمرين لهما في رأينا قيمة تستحق هذا العناء:

أولهما — أن هذه الجموع التي شاعت تخطئتها بين جمهرة العلماء وأهل اللغة في زماننا، هي وحدها الشائعة الغالبة على ألسنة الناس وفي كتاباتهم في جميع البلاد العربية خلال هذا العصر، وحتى أولئك الذين يحرصون — عن وعي وتعمد وفي تكلف ومشقة — على تجنب استعمالها مسايرة منهم للرأي الشائع في تخطئتها، لا يلبثون حين ينساقون مع طبعهم وسليقتهم أن تجرى بها ألسنتهم وأقلامهم، فنجد في الحديث الواحد والمقالة الواحدة الجمعين[٤] معاً. وليس أدل من ذلك على استحكام هذه الجموع وتمكنها في الاستعمال.

وثانيهما — أن مفرد كل جمع من هذه الجموع عربي صحيح، وأن صيغة جمعه — الذي ذهبوا إلى تخطئته — هي من الصيغ التي جاء على مثالها جموعُ عدد كبير من المفردات بُنيت على بناء هذا المفرد نفسه، حتى كانت هذه الصيغة قياسية مطردة — فيما نص عليه القدماء أنفسهم — أو كالمطردة لكثرتها، وإن لم نجد هذا الجمع ذاته فيما وصلنا من كلامهم.

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء الخامس والعشرون.

(٢) المرجع السابق الجزء السابع والعشرون

(٣) المرجع السابق الجزء التاسع والعشرون

(٤) ضربنا أمثلة على ذلك في بعض المقالات التي أشرنا إليها في المراجع السابقة.

هذان الأمران معاً متكاملين هما اللذان يكسبان هذا الحديث الذى نتجشم عناءه قيمة وخطراً ، لأنهما يخرجان به من حدود الجزء إلى نطاق الكل ، ومن اللفظة ذاتها التى يدور عليها البحث إلى ظاهرة عامة حين تجتمع لهذه الظاهرة أركانها كاملة دون إغفال شىء منها وبعض هذه الأركان دقيق خفى . إذا غفل عنه الباحث انزلق فى مهاوى الخطأ . ومن هنا جاء حرص الحريصين على ضرورة بحث كل حالة وحدها من هذه الألفاظ دون وضع قواعد مطردة يقاس عليها .

هذان الأمران المتكاملان معا هما : شيوع اللفظ شيوعاً عاماً غالباً على ألسنة أهل العصر وأقلامهم ، فى جميع الأقطار العربية ، وشيوع صيغته وبنائه فى ألفاظ كثيرة أخرى تشترك معه فى الخصائص والأركان . مما ورد عن العرب وشاع فى استعمالهم .

وإذا كنا لا نقر مذهب التسرع إلى التخطئة لأنه يحجر على العلماء والكتاب ويحول بين اللغة و التطور فى مسار طبيعى . وينفى من اللغة ألفاظاً هى منها فى الحقيقة . فلا بد من التنبيه إلى خطر المذهب المخالف الذى يدعو إلى التوسع فى قبول ألفاظ كثيراً ما تكون على قياس غير صحيح لخفاء بعض عناصره وأركانه الأساسية ، وحين لا تدعو حاجة حقيقية إلى قبولها ، وخاصة إذا لم يجتمع فى هذه الألفاظ الأمران المتكاملان اللذان أشرنا إليهما . وعلى هذا لا بد من التثبت من دقة المقياس ، ومن سلامة خطوات القياس ، حتى يكون الطريق لاحباً والهدف أمماً .

(٢)

وحديثنا الآن مشابه لأحاديثنا السابقة داخل فى بابها ، فهو — مثلها — محصور فى صيغ الألفاظ وأبنيتها : تلك فى الخنوع ، وهذا فى المصادر ، ومدارها جميعها على إلحاق ألفاظ بمثيلاتها بشروط معلومة وفى أحوال مخصوصة . وهى كلها ، بذلك ، أبعد شىء عن تناول الأساليب والعبارات ونظم الكلام ، فهذا بابٌ الحرصُ فيه أدعى والحذرُ منه أوجب لأنه متصل بروح البيان العربى ، وقد كان مدخلا لكثير من الخطأ والوهم ، ومَدْرَجَةً للعُجْمة والهُجْنة ، حتى إنى رأيت فيما كتب بعض الكاتبين — وهم منا قريب — ما يوهم أنهم يتحدثون عن ألفاظ بأعيانها ويستشهدون لها بشواهد من كلام العرب هى صحيحة فى مواضعها التى استشهدوا بها . ثم لا يلبثون قياساً على ذلك — أن يذهبوا إلى تصويب استعمالها فى أساليب وعبارات محدثة ، والنظم غير النظم ، والاستعمال غير الاستعمال ، فخفيت عنهم فى الاستدلال دقائق ولطائف هى فى الحقيقة سر النظم . فانتهوا بنا إلى شىء لا يمت إلى العربية بسبب . وليس هنا موضع التفصيل وضرب الامثلة .

ثم إن هذا الحديث ، مثل الأحاديث السابقة ، يبدأ بالقياس ويقوم عليه ولكنه لا ينتهى إليه . فنحن نقيس اللفظة المفردة التى تشيع فى الاستعمال بين الجمهرة الغالبة من الناس

فى الأقطار العربية كلها ، على نظائرها فى بنائها اللغوى مما أجمع القدماء على صوابه ، وإن لم تكن هذه اللفظة المفردة مما دونوه ووصل إلينا . ونطيل فى سرد كثير من هذه النظائر لتطمئن نفوسنا إلى هذه الكثرة من جانب ، ولنجمع من جانب آخر ضروب هذه الصيغة كلها فلا تفوتنا أدقُّ خوافى المشابهة بين المقيس والمقيس عليه . حتى نصل فى كل ذلك إلى حكم محدود لا نتجاوزه وهو أن هذا اللفظ الشائع اليوم والذى ذهب بعضهم إلى تخطئته لأنه لم يرد فيما دونه القدماء فى المعاجم وكتب اللغة ، هو صواب لأنه يجرى على القوالب الموروثة وتنطبق عليه القواعد الموضوعة ، وهو من كلام العرب — وإن لم يصلنا مدوناً — لأنه جرى مجرى كلامهم وقيس عليه. وقديما قال سيبويه فى كتابه[1] : «فإنما هذا الأقلُّ نوادر تحفظ عن العرب ولا يقاس عليها ، ولكن الأكثر يقاس عليه» ومن هنا جاء حرصنا على الاستكثار من جمع النظائر والأمثلة . وكذلك قال ابن جنى فى خصائصه[2] : «واعلم أن من قوة القياس عندهم اعتقاد النحويين أن ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب» .

وإذا كنا نبدأ بالقياس ونعتمد عليه — بالمعنى الذى وضحناه — فإننا لا ننتهى إليه ، ذلك لأننا لا نعتسف الطريق فننتهى إلى وضع قاعدة عامة مطردة تشمل كل ما جاء على هذه الصيغة سواء أكان من الألفاظ الشائعة فى الاستعمال فى عصرنا أم لم يكن مستعملا شائعا ، فهدفنا ليس اختراع قواعد جامدة تخضع لها اللغة كلها بحجة التيسير والتقريب ، وإنما هدفنا الاستئناس والاحتجاج بنظائر كثيرة مما ورد فى كلام العرب ، للفظ يشيع استعماله فى هذا العصر بين العرب كافة ، وإن لم يُنْقَل هو نفسه إلينا ، والاستدلال من ذلك على صوابه بعد أن جرى على الألسنة وفى الكتابة واستساغه ذوق العصر .

وقد تكلفنا هذا الإطناب كلَّه وأكثرنا فيه من التكرار الذى قد يَثْقُل على القارئ ، لنضع مثل هذه الدراسات فى موضعها الصحيح ونحصرها فى نطاقها الذى لا يجوز أن تتعداه بحيث لا يؤخذ منها إلا بقدر الحاجة إليها .

(٣)

واخترنا موضوعاً لهذا المقال كلمة «حماس» التى ذهب إلى تخطئتها كل من نعرف ممن نصب نفسه لتنقية اللغة من الشوائب والعثرات منذ مطلع هذا القرن ، وأولهم الشيخ إبراهيم اليازجى فى سلسلة مقالاته التى كتبها عن «لغة

(١) ج : ٢ ص: ٢١٥ — ٢١٦

(٢) ج : ١ ص : ١١٤

الجرائد»[1] ، ثم الشيخ المنذر[2] وأسعد خليل داغر[3]، وآخرهم فيما نعرف زهدى جار الله[4]، وقد أجمعوا على أن صوابها «حماسة» بالتأنيث .

ثم رأينا جماعة آخرين لا يقلّون حرصاً على لغتنا ، يردُّون عليهم ويذهبون إلى صواب الكلمة بالتذكير . غير أن هؤلاء المصوِّبين اجتزأوا من الحديث بأقله ، ورتبوا نتائج على مقدمات لا تقود إليها بالضرورة ، واعتمدوا على مراجع لا يُعْتَدُّ بها فى هذا المضمار — على نفعها واستيعابها — ولم يوردوا من الأقيسة وشواهدها ما يدعم مذهبهم وسنسرد أسماء ثلاثة منهم ونسوق حديثهم كاملاً على إيجازه .

فأقدم من نعرف منهم ممن تناولوا هذه الكلمة بالحديث المرحوم الأستاذ أحمد العوامرى قال[5] : « يتوهم كثير أن الحماس بمعنى الحماسة خطأ . وقد كان هذا اللفظ إلى عهد قريب شائعاً فى الصحف ، فأخذ يقل حتى كاد يختفى منها ، ولكنه شديد الشيوع الآن فى لغة التخاطب فقلما تسمع من الناس كلمة الحماسة[6] . والحماسة والحماس بمعنى واحد كما سترى: قال فى اللسان : الحماسة : المنع والمحاربة ، وقال: الحماسة : الشجاعة . وفى شرح القاموس الحماسة : الشجاعة والمنع والمحاربة . وفيه : والحماس كسحاب : الشدة والمنع والمحاربة . فقد تبين لك أن اللفظين متفقان معنى » .

واتفاقهما فى المعنى أمر لم يختلف فيه أحد ، ولكن المختلف فيه هو صواب استعمال لفظ « حماس » بالتذكير . ولم يحتجّ على صحته إلا بوروده فى شرح القاموس ، وصاحب هذا الشرح مُحْدَث لا يُحتج به ، على جلال قدره . وقيمته فيما ينقل عن غيره ، وهو لم يذكر لنا من أين أخذ الكلمة . ولم نجدها فى كتاب قبله .

وثانيهم المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات الذى قدّم إلى مجلس مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى ٢ مايو سنة ١٩٥١ « طائفة من

---

(١) مجلة الضياء ، الجزء الثامن — ٣١ يناير ١٩٠٥ ص : ٢٢٦ والطريف انه يذكر ان العامة كلهم يقولون الحماسة .

(٢) كتاب المنذر الى المجمع العلمى العربى بدمشق ، الجزء الأول ص : ٣٢ (الطبعة الثالثة) مطبعة الاجتهاد : بيروت ١٩٢٧

(٣) تذكرة الكاتب ، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ١٩٢٣ ، ص : ٨٦

(٤) الكتابة الصحيحة ، بيروت ١٩٦٨ ، ص : ٧٦

(٥) مجلة مجمع اللغة العربية الملكى ، الجزء الأول سنة ١٩٣٤ ص : ١٦٦

(٦) قابل هذا الكلام الذى لايزال صحيحا حتى الآن بما ذكره الشيخ ابراهيم اليازجى من أن العامة كلهم يقولون الحماسة (انظر الحاشية السابقة رقم ١) .

الألفاظ المسموعة عن المحدثين على خلاف ما سمع عن العرب الأولين فى الصيغة أو فى الدلالة فناقشها المجلس وأقر بعضها فى هذه الجلسة والبعض الآخر فى الجلسة الختامية للدورة الثامنة عشرة بعد أن درستها لجنة « الأصول » ومن هذه الكلمات :

« ٣١ — الحماس : سمع من المحدثين استعمال الحماس بدون تاء : والمسموع عن العرب : الحماسة .

٣٢ — المران : يقول المحدثون : مران ، بدون تاء ، والمسموع عن العرب : مرانة»(١).

وثالثهم الأستاذ محمد العدنانى ، قال(٢) : « ويخطّئون من يقول : فلان كثير الحماس. ويقولون إن الصواب هو : كثير الحماسة ، ومعناها الشجاعة ...... وقال التاج فى مستدركه : الحماس هو : الشدة والمنع والمحاربة . ونقل عنه متن اللغة ذلك . أما الحماسة فقال إنها الشجاعة والمنع والمحاربة كما قال اللسان . أما الصحاح فقد قال : الحماسة : الشجاعة ، ويخطىء من يقولها : الحماس(٣) !! ولكن الوسيط قال : الحماس والحماسة : الشدة والشجاعة والمحاربة . لذا علينا (!!) أن نستعمل كلمة الحماسة والحماس دون تردد !! ما دامت الكلمتان تحملان معنى المنع والمحاربة ، حسب رأى التاج والوسيط ، والمحاربة لا تكون دون حماسة » .

ولا تعقيب لنا على هذا الكلام سوى القول إن التاج ومتن اللغة والوسيط ، كلها — على نفعها وقيمتها — ليست حجة على صواب هذا اللفظ ، لمجرد أنه ورد فيها وإن كان يجوز الاستئناس ، وليس الاحتجاج بما ورد فى التاج لأسباب نذكرها بعد قليل .

فقد بقى إذن فضل حديث عن هذا اللفظ نرى أن نورده فيما يلى .

(٤)

لم نجد كلمة « حماس » بالتذكير وفتح الحاء المهملة ، فيما وصلنا من المعاجم وكتب اللغة حتى المائة الثانية عشرة الهجرية . وأجمعت كلها على الاقتصار على « حماسة» بالتأنيث بمعنى : الشجاعة والمنع والمحاربة . وفيها أيضاً « حيماس » بكسر الحاء ، مصدر « تحامس » . إلى أن جاء محمد مرتضى الزّبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ فذكرها فى مستدركه على القاموس قال : « ومما يستدرك عليه ... والحماس كسحاب : الشدة والمنع والمحاربة » فهل رآها الزّبيدى فيما كان بين

(١) الدورة التاسعة عشرة ١٩٥٢ — ١٩٥٣ م الجلسة السادسة

(٢) معجم الأخطاء الشائعة ، ص : ٧٠ ، رقم ٢٣٦ ،

(٣) لم يذكر الجوهرى فى صحاحه لفظ « حماس » فكيف يخطئها ؟ غير أن محقق هذا المعجم الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ذكر فى الحاشية معلقا على قول الجوهرى : « والحماسة : الشجاعة » مايلى : ويخطىء من يقولها : « الحماس » . وهذا من كلام محقق الطبعة وليس من كلام الجوهرى فى الصحاح .

يديه من أصول ضاعت بعده ولم تصل إلينا أو لم نعثر عليها بعد؟ أو هل كان يضيف في مستدركه كلمات مما جرى استعمالها وشاع في عصره والعصور القريبة السابقة عليه إذا كانت على قياس العربية في نظائرها وبنائها، ولو لم تكن مما تضمنته كتب اللغويين ومعاجمهم؟ والأول عندنا هو الأرجح لأن كلام الزَّبيدي في مقدمته واضح في الاقتصار عليه، قال: «وليس لي في هذا الشرح فضيلة أمتُّ بها ولا وسيلة أتمسك بها سوى أنني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من منطوق ومفهوم. وبسطت القول فيه ولم أشبع باليسير وطالب العلم منهوم، فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أو خلل فعهدته على المصنف الأول، وحمده وذمه لأصله الذي عليه المعول، لأني عن كل كتاب نقلت مضمونه فلم أبدل شيئاً فيقال: فإنما إثمه على الذين يبدلونه. بل أديت الأمانة في شرح العبارة بالنصّ، وأوردت ما زدت على المؤلفين بالنصّ».

فمن أين إذن جاء بكلمة «حماس» وهي غير موجودة في كل ما وصل إلينا من المعاجم وكتب اللغة التي اطلعنا عليها واطلع عليها غيرنا من المُحْدَثين بدليل أنهم ذهبوا إلى تخطئتها لأنها لم تتضمنها تلك المعاجم والكتب؟ أحسب أن الإجابة عن هذا السؤال غير ميسورة مما في أيدينا، وعسى أن تكشف مقبل الأيام ما خفي عنا. وليست هذه الكلمة وحدها هي التي انفرد بذكرها صاحب التاج مما لم نجده عند غيره، فقد أشرنا في بحثنا عن «وديان وأودية» أنه استقل بذكر «وديان» جمعاً لـ «واد» في مستدركه.

ومن كان مثل الزَّبيدي في علمه وجمعه واستقصائه واطلاعه، كان حرياً بالثقة والقبول. وهذا ما فعله بعض من ذهب إلى صواب كلمة «حماس» حين اعتمدوا على ما ورد في التاج وحده، أما غيرهم ممن ذهبوا إلى تخطئتها فإمَّا أنهم لم يروها في المستدرك وإمَّا أنهم لم يقنعوا بما قنع به الآخرون.

ثم إننا رجعنا إلى ما استطعنا الرجوع إليه من شعر العرب ونثرهم، فلم نرهم يستعملون «الحماس» سوى احتمال أن يكون ذلك في بيتين للشاعر فتيان الأسدي الشاغوري المتوفى سنة ٦١٥ هـ، قال في الأول (١):

وبلغتم بالرأي ما لم يستطع
إدراكه باللأم أُسْدُ حِماسِ

وقال في الثاني (٢):

بجود فيُغْني الموالي سَماحا
ويسطو فيفني الأعادي حَماسا

(١) ديوان فتيان الشاغوري، تحقيق أحمد الجندي، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٧، ص: ٢٣٢

(٢) ص: ٢٣٦

وقد ضبط المحقق الحاء فى البيت الأول بالكسر ، وفى البيت الثانى بالفتح . ولست أدرى ما الذى حمله على أن يخالف بينهما . وقد ينازعه منازع أنّ الحاء فى الكلمتين مكسورة ، أو أنها فيهما كلتيهما مفتوحة . فلا دليل على ذلك ، ولا حجة فيه .

ولم نجدها كذلك فى الكتب القديمة التى تتبعت أوهام الخواص فى اللغة أو لحن العوام وحرصت على تثقيف لسانهم . فهل مردّ ذلك إلى أن هذه الكلمة لم تكن مما استعملوه وجرت به الأقلام فلم تقع عينهم عليها لينبهوا على صحتها إن كانت خطأ ، أو أنها كانت تجرى بها أقلامهم وألسنتهم ولكنهم لم يجدوا فيها ما يستنكرونه فسكتوا عنها لصحتها ؟ سيظل هذا السؤال أيضاً بغير إجابة شأنه شأن السؤال الأول عن المصدر الذى اعتمد عليه الزبيدى فى إثبات الكلمة فى مستدركه .

فإذا كان هذا النمط من البحث عن الكلمة فى كتبنا لم ينته بنا إلى وجودها فيها : فهل من سبيل أخرى أمامنا نسلكها لبحث صحة الكلمة ؟ أحسب أنْ نعم .

(٥)

وأول ما نلاحظه هنا أن إغفال المعاجم وكتب اللغة إيراد أحد الألفاظ لا يعنى أن ذلك اللفظ غير موجود حقاً ، أو أننا نخطئ حين نستعمله . فلم يدَّعِ أحد أن تلك المعاجم والكتب قد قيدت اللغة جميعها . وما أفيد هذه الفهارس التى تلحق بالطبعات الحديثة المحققة تحقيقاً علمياً لبعض كتب تراثنا ، والتى تتضمن الألفاظ التى وردت فى تلك الكتب مما لم يرد فى المعاجم . وفضلاً عن النقص الطبيعى الذى يعتور كل عمل بشرى فيحول بينه وبين استيفاء كل شىء ؛ نجد هذه المعاجم والكتب قد أغفلت كثيراً من الألفاظ حين يكون بناؤها قياسياً ، وقد نصّوا على هذا الإغفال فى مواطن متعددة من معاجمهم وكتبهم .

فإذا انتقلنا من هذا الحكم العام إلى تخصيصه بلفظى « حماس » و« حماسة » وجدنا مصادر على وزن «فَعال» بالتذكير وفتح الفاء أغفلتها المعاجم واقتصرت على ذكر المؤنث « فَعالة » ومن أدلّ ما عثرنا عليه فى هذا الباب تعليق للأستاذ محمود محمد شاكر على كلام لمحمد بن سلام فى طبقاته . قال ابن سلام [1] : وكان الذى يُسْمِعُ الناسَ عنه صلى الله عليه ، ربيعةُ بن أميةَ بن خلف الجُمَحِىّ . وكان فى صوته رَفاع » وقال الأستاذ محمود محمد شاكر : « رفاعة الصوت ورفاعته (بالفتح والضم) جهارته ، ورجل رفيع الصوت . ولم أجد (الرفاع) فى المعاجم ، ولكن فَعال وفَعالة يتعاقبان كثيراً فى المصادر فيما تتبعته منها » .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، قراءة محمود محمد شاكر وشرحه ، ١ : ٧٤ ، مطبعة المدنى بالقاهرة سنة ٧٤

فهذا مثل واحد من المصادر التي أغفلتها المعاجم على وزان «حَماس» المذكر واكتفت بالنص على مؤنثه ، وسترد معنا أمثلة أخرى بعد قليل . ولكننا نحب أن نتتبع كلام الأستاذ محمود ، ونتوكأ على العبارة الأخيرة منه ، لننتقل من خلالها إلى الملاحظة الثانية ، وهي « تعاقب فعال وفعالة كثيراً في المصادر » .

وفي هذا نستشهد بنص ثمين لسيبويه قال[1] : «وقالوا : سَعِدَ يَسْعَدُ سَعادة ، وشَقِيَ يَشْقَى شقاوة .... وقالوا : الشقاء ، كما قالوا : الجمال واللذاذ ، حذفوا الهاء استخفافاً» .

ونقل الفيومي هذا الكلام في المصباح المنير (جمل) فقال : « قال سيبويه : الجمال رقة الحسن ، والأصل جمالة بالهاء مثل صبح صباحة ، لكنهم حذفوا الهاء تخفيفاً لكثرة الاستعمال » . ولست أدري أهذا الذي أورده الفيومي هو الكلام الذي أوردناه لسيبويه ولكن الفيومي زاد فيه ، أو هو كلامٌ غيرُه بمعناه لسيبويه في موطن آخر من كتابه لم نعثر عليه ؟ غير أن المعنى واحد وكأنما ذهب ابن منظور أيضا هذا المذهب حين قال : « وَسُمَ الرجل (بالضم) وسامة ووَساما ، بحذف الهاء » كأنه يرى أيضاً أن وجود الهاء هو الأصل وحذفت للتخفيف .

فهل أصل هذه المصادر حقاً هو « فعالة » بالهاء ، ثم حذفت هذه الهاء تخفيفاً ؟ وهل هذا هو السبب في التعاقب الكثير في هذه المصادر بين فَعَال وفَعَالة؟ وإذا كان ذلك كذلك فهل يجوز أن نعتمد على كل ما قدمنا في قبول « حماس » ؟

ونضيف وجها آخر لصيغة « فعال » في المصادر ، وذلك ما أورده ابن منظور في اللسان (سلم) قال : « السلام والسلامة : البراءة ، .... قال ابن قتيبة : يجوز أن يكون السلام والسلامة لغتين كاللذاذ واللذاذة ... ويجوز أن يكون السلام جمع سلامة » . وهو وجه نكتفي بإيراده استيفاء للبحث دون الخوض في تفصيلاته .

فنحن إذن أمام ثلاثة مذاهب للقدماء في تفسير هذا التعاقب بين « فَعَال » و « فَعَالة » في المصادر . المذهب الأول لسيبويه ، وفيه يرى أن الأصل « فَعَالة » بالهاء ثم حذفوا هذه الهاء تخفيفا لكثرة الاستعمال فصار المصدر على صيغة « فَعَال » بالتذكير . أما المذهبان الآخران فهما لابن قتيبة ، أحدهما : أنهما لغتان ، أي أن بعض القبائل تستعمل صيغة « فعالة » وبعضها يستعمل صيغة « فَعَال » ، والآخر : أن صيغة « فَعَال » جمع « فعالة » .

ولسنا بسبيل استقصاء البحث في هذه التفسيرات وترجيح أحدها على الآخر ، وحسبنا أن نشير إلى أن تعاقب « فعال » و « فعالة » في المصادر قد كان ظاهرة شائعة حتى احتاجوا إلى أن يتلمسوا لها تفسيرات مختلفة .

(١) الكتاب ٢ : ٢٢٥

وهذه الأمثلة التي أوردوها لها نظائر كثيرة لا سبيل إلى جمعها على وجه الحصر . ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ، فحسبنا منها نماذج تدل على أنها كثيرة متواترة . ونذكر هنا أمثلتهم وبعض نظائرها الأخرى :

براءة وبراء ، جمالة وجمال ، جلالة وجلال ، جهارة وجهار[1] ، رجاحة ورجاح ، رضاعة ورضاع ، رفاعة ورفاع[2] سفالة وسفال ، سقامة وسقام ، سماحة وسماح ، سفاهة وسفاه ، سماعة وسماع ، سلامة وسلام ، شقاوة وشقاء ، شماتة وشمات ، صغارة وصغار[3] ، ضلالة وضلال ، عفافة وعفاف ، علاوة وعلاء ، كلالة وكلال ، ملاءة وملاء[4] ، لباثة ولباث ، لذاذة ولذاذ ، وثاقة ووثاق[5] ، وسامة ووسام ، وقارة ووقار . وكلها بفتح أولها .

فهل نستطيع بعد هذا كله أن نقول إن من يستعمل لفظ « حماس » في كلامه أو كتابته هو في مأمن من التخطئة ؟ وهل نستطيع أن نمضي خطوة أبعد ونقول : إن كثرة تعاقب « فَعال » و « فَعالة » وتواترهما في المصادر عند القدماء تجعلنا نحجم عن تخطئة من يستعمل صيغة « فعال » ولو لم تذكرها المعاجم وكتب اللغة واقتصرت على إيراد فَعالة ، وذلك بقيد لابد منه وهو أن تكون اللفظة التي على هذه الصيغة قد كثر دورانها على اللسان وفي الكتابة في الأقطار العربية كلها حتى أصبحت من مألوف ذوق أهل العصر وشائع استعمالهم مثل لفظتي : حَماس ومَران ، اللتين لم نعثر عليهما حتى الآن في كتب القدماء وشعرهم ، واقتصروا فيهما على حماسة ومرانة ؟

ناصر الدين الأسد
عضو المجمع

---

(١) لم تذكر المعاجم « جهاراً » بفتح الجيم عند الحديث عن مصدر الفعل ، وذكرته في درج الكلام عند الحديث عن قولهم : «لقيه نهارا جهارا» ضبطوا الجيم بالكسر وقالوا : وبفتح ، وفي اللسان : بكسر الجيم وفتحها وأبى ابن الأعرابي فتحها .

(٢) رفع الزرع يرفعه (بفتح الفاء فيهما) رفعا ورفاعة ورفاعا (بفتح الراء فيها كلها) : نقله من الموضع الذي يحصده فيه الى البيدر (اللسان) .

(٣) لم تذكر المعاجم « الصغار » عند ايراد مصادر الفعل ، وأورده ابن منظور في درج الكلام بعد صفحتين من بداية المادة ، قال : والصغار مصدر الصغير في القدر .

(٤) ملؤ الرجل يملؤ (بفتح اللام فيهما) ملاءة ، فهو مليء .. بين الملاء والملاءة ، ممدودان (اللسان) .

(٥) قال في اللسان : الوثاقة : مصدر الشيء الوثيق المحكم ، والفعل اللازم : يوثق وثاقة ، والوثاق : اسم الايثاق ، تقول : أوثقته إيثاقا ووثاقا .

دراسات قرآنية

حذف المقابل لما بعد "لا" النافية للمساواة

للدكتور احمد الحوفى

تمهيد :

كثر فى القرآن الكريم نفى المساواة بين شيئين أو أكثر بهذين الأسلوبين :

الأول : أن تتقدم أداة النفى على الفعل الدال على المساواة ، ويذكر بعده الشيئان أو الأشياء التى لا تتساوى ، كما فى قوله تعالى : « لايَسْتَوِى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم (١) » .

وفى قوله سبحانه : « قل لايَسْتَوِى الخبيثُ والطيبُ ولو أعجبك كثرةُ الخبيث (٢) » .

وقوله عز وجل : « وما يَسْتوى البحران : هذا عذب فراتٌ سائغٌ شرابُهُ ، وهذا مِلْحٌ أُجاج (٣) » .

وقوله تعالى : « ومالكم ألاّ تُنْفِقوا فى سبيل الله ولله ميراثُ السماواتِ والأرضِ ، لايَسْتَوِى منكم مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفتح وقاتل ، أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا مِنْ بَعْدُ وقاتلوا ، وكلاًّ وعدَ الله الحسْنَى ، والله بما تعملون خبير (٤) » .

أى لايستوى ثواب الذين أنفقوا أموالهم قبل فتح مكة وقاتلوا فى سبيل الله وثواب الذين أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا ، وهذا الشق محذوف يدل عليه قوله تعالى : « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلاً وعدَ الله الحسنى » وقوله سبحانه : « لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون (٥) »

---

(١) سورة النساء ٩٥ (٢) سورة المائدة ١٠٠ (٣) سورة فاطر ١٢
(٤) سورة الحديد ١٠ (٥) سورة الحشر ٢٠

وقد يحل محل أداة النفى استفهام يؤدى معنى النفى ، مثل قوله تعالى : « قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلماتُ والنور ؟ »[1] .

والثانى أن يتقدم ذكر الشيئين أو الأشياء المراد نفى المساواة بينها ، ويجىء نفى التسوية بعد ذلك ، مثل قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارةَ المسجدِ الحرام كمن آمَنَ بالله واليومِ الآخر وجاهَدَ فى سبيل الله ؟ لا يَسْتَوون عِنْدَ اللهِ ، واللهُ لا يَهْدِى القومَ الظالمين »[2] .

ومثل قوله سبحانه : « مثل الفريقَيْنِ كالأعْمَى والأصَمِّ والبصير والسّميع ، هل يَسْتويان مثَلاً ؟ أفلا تذكرون »[3] .

ومثل قوله تعالى : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون »[4] .

وفى كلا الحالين نجد أن النفى تحقق فى هذه الآيات وأمثالها بأداة نفى واحدة.

ولا فرق بين أداة النفى والاستفهام المراد به النفى . لكن فى القرآن الكريم نفياً للمساواة بأُسلوب آخر ؛ إذْ وقعت (لا) النافية مكررة بعد عطف فى ثلاث آيات :

(الآية الأولى)

قال تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصيرُ ، ولا الظلماتُ ولا النورُ ، ولا الظلُّ ولا الحرورُ ، وما يستوى الأحياءُ ولا الأمواتُ ، إن الله يُسْمِعُ مَنْ يشاءُ ، وما أنت بمُسْمِعٍ مَنْ فى القبور ، إنْ أنت إلا نذيرٌ »[5] .

فنفت (ما) فى الآية الكريمة الأولى المساواة بين اثنين متضادين هما الأعمى والبصير ، سواء أكان المراد بالعمى والبصر معناهما الحقيقى أم المراد المعنى المجازى لكل منهما وهو الكفر والإيمان ، وهذا النفى جاء على الأُسلوب المعهود .

لكن النفى جاء بعد ذلك فى أسلوب آخر « ولا الظلماتُ ولا النورُ » و« ولا الظل

(١) سورة الرعد ١٦
(٢) سورة التوبة ١٩
(٣) سورة هود ٢٤
(٤) سورة السجدة ١٨
(٥) سورة فاطر ١٩ - ٢٣

ولا الحرورُ » و « وما يستوى الأحياء ولا الأموات » .

فلماذا جاءت (لا) مكررة بعد الظلمات ، وبعد الظل ، وبعد الأحياء ؟ .

لقد تتبعت ماذكره بعض المفسرين ، وآثرت أن أثبته مرتباً ترتيباً زمنياً ، ثم أتأمله ، لعلني أرجح بعضه ، أو لعلني أعرض رأيا آخر .

١ ـ ذكر ابن جرير الطبرى (٣١٠هـ) رأيين :

أولهما أن بعض نحاة البصرة ذهبوا إلى أن (لا) تشبه أن تكون زائدة ، لأنك لوقلت : لايستوى عمروولازيدفى هذا المعنى لم يجز إلا أن تكون (لا) زائدة .

والثانى أن غيرهم قال : إذا لم تدخل (لا) مع الواو فإنما لم تدخل اكتفاء بدخولها فى أول الكلام ، فإذا دخلت فإنه يراد بالكلام أن كل واحد منهما لايساوى صاحبه ، فمعنى الكلام إذا أعيدت (لا) مع الواو عند صاحب هذا القول :لايساوى الأعمى البصير ، ولا يساوى البصير الأعمى ، فكل واحد منهما لايساوى صاحبه[1] .

٢ ـ وذكر الزمخشرى (٥٣٨ هـ) أن (لا) لتأكيد معنى النفى[2] .

٣ ـ ونقل القرطبى (٦٧١ هـ) عن الأخفش سعيد أن (لا) زائدة ، والمعنى ولا الظلمات والنور ولا الظل والحرور[3] .

٤ ـ وقال النيسابورى (٧٢٨ هـ)إن (لا) كررت فى الأمثال الأخيرة دون الأول ، لأن المنافاة بين العمى والبصر ليست ذاتية كما فى سائرها ؛ وقديكون شخص واحد بصيرا بإحدى العينين أعمى بالأخرى[4] .

---

(١) تفسير الطبرى ٨٥/٢٢

(٢) الكشاف ٢٧٣/٣

(٣) تفسير القرطبى ٣٣٩/١٤

(٤) تفسير النيسابورى على هامش الطبرى ٢٢ / ٨٤ وقال : قدم الأشرف فى مثلين وهو الظل والحى ، وأخر فى الآخرين ، فذهب أهل الظاهر الى أن ذلك لرعاية الفواصل ، وذهب المحققون الى أنهم كانوا قبل البعث فى ظلمة الضلال فصاروا الى نور الإيمان فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، فلهذا الترتيب قدم مثل الكافر وكفره على مثل المؤمن وإيمانه . ولما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لأن رحمته سبقت غضبه . ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات فى عدم إدراك الحق ، فقال « وما يستوى الأحياء » أى المؤمن الذى آمن بما أنزل الله « والأموات » الذين تليت عليهم الآيات ولم تنجع فيهم البينات ، فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياتهم قبل ممات الكافرين المعاندين ==

٥ – وذهب أبوحيان الأندلسى (٧٥٤هـ) إلى أن (لا) زائدة لتأكيد النفى ، وحكى عن ابن عطية أن دخولها يفيد التكرار ، كأنه قال : وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا الظل والحرور ، ولا الحرور والظل ، وما يستوى الأحياء والأموات ولا الأموات والأحياء ، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثوانى ودل مذكور الكلام على متروكه .

ثم رد أبوحيان على هذا الرأى بقوله : وماذكر غير محتاج إلى تقديره ، لأنه إذا نفى استواء الظلمات والنور فأى فائدة فى تقدير نفى استوائهما ثانياً وادعاء محذوفين[1] ؟

٦ – أما ابن كثير (٧٧٤ هـ) فإنه لم يعرض للحرف (لا)[2] .

٧ – وأما الزركشى (٧٩٤ هـ) فإنه نقل عن ابن عطية أن (لا) دخلت على نية التكرار ، كما سبق فيما نقله عنه أبوحيان الأندلسى[3] .

٨ – ثم كتب فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج بحثاً قيما مفصلا أثبت فيه أن النفى فى هذه الآيات مسلط على الأفراد نفسها ، لأن الظمات الحقيقية الحسية متعددة متفاوتة قوة وضعفاوشدة وخفة ، وكذلك الظلمات المعنوية التى جعلت تلك تمثيلا لها وهى الضلالات ، فهى أنواع متفاوتة أيضاً ، وكل من النور الحسى المعهود والمعنوى الذى هو الهداية والرشاد له أفراد متفاوتة قوة وضعفا .

≡ ووحد الأعمى والبصير لأن المراد أن أحد الجنسين لا يساوى جنس الآخر من جهة العمى والبصر ، ولعل فردا من أحدهما قد يساوى الفرد الآخر من جهة أخرى .

وكثر الكلام فى اقرار الظل والحرور ، وإنما جمع الظلمات ووحد النور ، لأن الحق واحد والشبهات كثيرة ، وإنما جمع الأحياء والأموات ، لأن المراد أن أحد الصنفين لا يساوى الآخر ، سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد

(١) البحر المحيط ٣٠٨/٧

(٢) تفسير ابن كثير ٥٥٢/٣

(٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١٢٣/٣ و ٣٥٧/٤

ومثل هذا يقال فى الظل والحرور ، فهما مختلفان حسياً شدة وخفة ، أى أن لكل منهما أفرادا متفاوتة فى ذلك . وقد قال العلماء إن المقصود بهما فى الآية الإشارة إلى المصير الأخروى ومايلقاه الإنسان فيه من الجزاء ، فهما تمثيل للثواب والعقاب ، وكل من الثواب والعقاب درجات متفاوتة تفاوتاً عظيما .

وكذلك الحال فى الأحياء والأموات وما جعل الأحياء والأموات تمثيلا لهم وهم المؤمنون والكفار ، كل منهم ذو مراتب ودرجات . وإذا كان ذلك كذلك أمكن أن يحمل نفى الاستواء فى كل واحد من هذه المذكورات على أنه نفى استوائه فى نفسه ، أى نفى تساوى أفراده ذاتها ، ويكون هذا أولى وأرجح مماقيل من زيادة (لا) لأنه يحفظ أصالتها ، ويوفر عليها معناها[1] .

تعقيب

١ ـ هكذا تبين أن الآراء السابقة تدور فى عدة اتجاهات : لأن (لا) إما زائدة أوشبه زائدة ، وإما لتأكيد النفى ، وإما أصيلة والنفى منصب على كل كلمة بعدها لأن الظلمات درجات ولأن النور درجات ، وإما أصيلة تؤدى معنى مفهوما من السياق ولكن ما بعدها محذوف دل عليـــه المذكور .

فأما القول بزيادتها أوشبه زيادتها فإنه مرفوض ، لأن القرآن الكريم وهو ذروة البلاغة أسمى من أن يقع فيه حرف مزيد أو كلمة مقحمة .

فإن قيل إن الزيادة لغرض بلاغى كان هذا القول دليلا على الأصالة واستبعادا للزيادة ، لأن الغرض البلاغى لا يتم بغير ماقيل إنه مزيد .

وأما القول بأنها لتوكيد النفى فإنه مردود بأن هذا التوكيد لم يجىء فى نفى المساواة بين الأعمى والبصير . فلماذا جاء فى نفى المساواة بين ما بعدهما ؟ ولو أنها مكررة لتوكيد النفى لوافق جميع المفسرين على هذا .

وأما الحكم بأنها أصيلة جاءت لنفى المساواة بين ماتدل عليه كل كلمة بعدها من درجات ودركات فإننى أرى أنه لا يلائم الغرض من الآيات الكريمة ،

(١) البحوث والمحاضرات لدورة المجمع اللغوى الثالثة والثلاثين ٨٣ .

لأنها تمدح الإيمان وترغب فيه وتشوق إليه ، وتذم الكفر وتنفر منه وتحذر من عواقبه بتمثيل حسى لاشك فيه هو أن البصير والأعمى لايتساويان ، وأن النور والظلام متناقضان ، وأن الظل والحر متضادان ، وأن الحي والميت متباينان ، فكذلك الايمان والكفر .

ومعنى هذا أنه ليس المراد من الآيات الكريمة أن النور درجات وأن الظلام دركات ، ولا أن الظل طبقات وأن الحر طبقات ، ولا أن الأحياء أصناف وأن الموتى أصناف ، لأن هذا معناه أن المؤمنين ذوو درجات وأن الكفار أصحاب دركات ، وهذا حق ، لكنه لايفيد فى هذا المقام مقام الترغيب فى الإيمان وبيان آثاره الطيبة الحميدة والتنفير من الكفر وتبيان جرائره الخبيثة .

وإذا كان المؤمنون أصحاب درجات عالية تناسب إيمانهم بالله وطاعتهم له ، فإن الكفار لايدينون بأنهم أصحاب دركات تناسب كفرهم وأعمالهم ، ولو أنهم آمنوا بهذا فإن إيمانهم به مقطوع عن التفرقة المحسوسة بين هداية الإيمان وضلال الكفر التى مثلتها الآيات الكريمة بأربعة أمثلة لايمترى أحد فى الإقرار بتباينها .

٢ – وكنت قد فكرت طويلا فى هذا الأسلوب ، فسنح لى رأى استرحت إليه فلما تتبعت آراء المفسرين وجدت ابن عطية قد أشار إلى هذا الرأى [1] ، فازددت به اقتناعا وهو أن – والله أعلم – فى الكلام محذوفا دل عليه السياق ، والكلام بغير حذف هو : وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا الظل والحرور ، ولا الحرور والظل ، وما يستوى الأحياء والأموات ، ولا الأموات والأحياء .

ومن عجب أن رأى ابن عطية ظل مجهولا أو مغمورا هذا الزمان الطويل .

وقد يبدو هنا سؤال هو : إذا كانت المساواة بين الظلمات والنور قد نفيت فلماذا كرر هذا النفى بين النور والظلمات؟

وإذا كان نفى المساواة بين الظل والحرور قد وقع فلماذا كرر هذا النفى بين الحرور والظل ؟

---

(١) كما ذكر أبو حيان الأندلسى فى رقم (٥) والزركشى فى كتابه البرهان ١٢٣/٣

وإذا كان نفى المساواة بين الأحياء والأموات قد حدث ، فلماذا كرر النفى بين الأموات والأحياء ؟

أليس فى النفى الأول ما يغنى عن الثانى ؟

والجواب عن هذا أن المراد بنفى المساواة بين الظلمات والنور كما فى الآية الكريمة هو الدلالة على أن الظلام لايستطيع أن يتسامى إلى النور فى إشراقه وهدايته وجماله ونفعه وارتياح النفوس له وشوقها إليه ، ومن هذا يتبين أن وجه الشبه مقصور على النور .

أما نفى المساواة المقدر بين النور والظلمات فإن المراد منه أن النور لايمكن أن يهبط إلى ما يتصف به الظلام من قتام وتضليل ووحشة ومجلبة للضيق والكآبة والحيرة والمعاطب ، فوجه الشبه هنا مقصور على الظلام .

كذلك لايمكن أن يهبط الظل إلى درك الحر اللافح الخانق الداعى إلى الضجر والضيق والسقم ، فوجه الشبه هنا مقصور على الحر ، ولا يمكن أن يسمو الحر إلى مقام الظل البارد المنعش الشارح للصدور الملائم للحياة الطيبة والعمل المثمر ، فوجه الشبه هنا مقصور على الظل .

وكذلك لايتنزل الحى إلى أن يساوى الميت فى فقدانه للحياة ومخافة الناس من جثته ومسارعتهم إلى دفنه ، فوجه الشبه هنا مقصور على الميت ، ولا يستطيع الميت أن يشبه الحى المتحرك النامى المستمتع بمظاهر الشعور كلها ، أى أن وجه الشبه مقصور على الحى .

ومن هذا كله يتبين أن الإيمان والكفر متباينان أشد التباين ، فلا المؤمنون يشبهون الكفار فى جحودهم لربهم وفى ضلالهم وفى معصيتهم لخالقهم وفى غضبه عليهم وفى عقابهم المتوقع ، ولا الكفار يشبهون المؤمنين فى إيمانهم بربهم وفى اهتدائهم لطاعته وفى رضوانه عليهم وفى ثوابهم المأمول .

والغرض من هذا توكيد المخالفة وزيادة توضيح المباينة كما نقول : ليس الناجح كالراسب ولا الراسب كالناجح ، ونحن نريد أن الناجح لا يشبه الراسب فى إخفاقه وحسرته ، وأن الراسب لايشبه الناجح فى ظفره وبهجته .

والحذف هنا ضرب من البلاغة القرآنية التى تستغنى بالمذكور عن المحذوف المفهوم .

وقد يسترعى الانتباه أن الآيات الكريمة نفت مساواة الأدنى للأعلى فى حالتين هما العمى والبصر والظلام والنور ، ونفت مساواة الأعلى للأدنى فى حالتين هما الظل والحرور ، والحياة والموت .

وحينما نقدر المحذوف يتقدم الأدنى تارة ويتقدم الأعلى تارة ، والغرض من التكرير بتقديم الأدنى مرة وتقديم الأعلى مرة توكيد المنافاة ، وإبطال المشابهة على أى وجه من الوجوه ، سواء أتقدم الأعلى أم تقدم الأدنى .

ولاشك أن الأسلوب الشائع فى القرآن الكريم وفى غيره يجرى على نفى مشابهة الناقص للكامل ، ولكن بعض الآيات الكريمة جاءت لتنفى عن الكامل شبهه بالناقص ، مثل قوله تعالى : « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرتُ لك ما فى بطنى مُحَرَّرا ، فتقبلْ منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضَعَتْهَا قالت رب إنى وضعتها أُنثى والله أعلم بما وَضَعَت ، وليس الذكر كالأُنثى ، وإنى سميتها مريم وإنى أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم[1] » .

فتحسرت لأن أملها فى أن يكون مافى بطنها ذكرا أخفق ، إذ كانت نذرته محررا لسدانة المسجد الأقصى ، وعبرت عن حسرتها بأنها وضعت أُنثى ، وبأن الذكر فى قوته وجلده على العبادة وقدرته على خدمة البيت ليس كالأُنثى فى ضعفها ولينها وقلة احتمالها ، وكان المعهود أن تقول : وليست الأُنثى مثل الذكر .

ومثل قوله سبحانه : « يا نساء النبى لستُنَّ كأحد من النساء إن اتَّقيتُنَّ فلا تَخْضَعْن بالقول فيطمَع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا »[2] .

جاءت الآية الكريمة على هذا النسق ، ولم تجىء هكذا : ليس أحد من النساء مثلكن .

أى أنكن يا نساء النبى لستن فى شرف مكانتكن وعلاء قدركن ونظرة المسلمين والمسلمات إليكن مثل النسوة الأُخريات فى مكانتهن العادية وافتقارهن إلى

(١) سورة آل عمران ٣٥/٣٦
(٢) سورة الأحزاب ٣٢

فضلكن وسابقتكن وصلتكن برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك قوله تعالى : « أفمن يخْلُق كمن لا يَخْلُق أفلا تَذكَّرون[1] » فقدم الأعلى فى نفى المشابهة ، لأن المراد هل يستوى الله تعالى وهو الخالق القوى القادر بآلهة تعبدونها وهى مصنوعة مخلوقة عاجزة عن الخلق وعن النفع والضر ؟

وكذلك قوله سبحانه وتعالى : « أفمن اتَّبع رضوانَ الله كمن باءَ بسَخَط من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير[2] » .

أى هل يستوى من آمن بالله وأطاعه واستحق ثوابه ورضاه بمن كفر بالله وعصاه واستحق سخطه وعقابه ؟

وقوله تعالى : « أفمن وعدناه وَعْدًا حَسَناً فهو لاقيه كمن مَتَّعْنَاه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحْضَرين[3] » .

أى هل يستوى من وعدناه ثوابنا الحق فيلقاه ومن عصانا فغضبنا عليه واغتر بنعيم الحياة الدنيا ، وهو فى القيامة من أصحاب النار .

وقوله سبحانه وتعالى : « أفمن كان مؤْمناً كمن كان فاسقاً ؟ لايستوون[4] »

وقوله عز وجل : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفُجَّار ؟[5] »

ففى هذه الآيات الكريمة نفى المساواة أو المشابهة بين الأدنى والأعلى مع تقديم الأعلى فى الذكر .

ولهذا الأُسلوب نظائر فى الشعر القديم ، منها قول المرقش الأكبر :

لسنا كأقوام مطاعِمُهُمْ
كَسْبُ الخَنا ونَهْكَةُ المَحْرَمْ[6]

فنفى عن الأعلين الذين يتَعفَّفون فى كسب المال شبههم بالأدنين الذين يسلكون إلى كسب المال أى طريق . وكان الأسلوب الشائع أن يقول ليس أصحاب الفساد وانتهاك الحرم مثلنا . ومنها قول معن بن أوس فى شكواه من ابن عمه :

---

(١) سورة النحل ١٧
(٢) سورة آل عمران ١٦٢
(٣) سورة القصص ٦١
(٤) سورة السجدة ١٨
(٥) سورة ص ٢٨
(٦) المفضليات ٢/٤٠ الخنا : الفساد . نهكة المحرم : انتهاك الحرم أى لا نهجو الناس ليعطونا

ويسعى إذا أبنى ليهدم صالحى

وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم

وكان المتوقع أن يقول وليس الذى يهدم كالذى يبنى ، ولكنه أراد بهذا الأسلوب أن الذى يبنى مجد القبيلة يتصف بالنفع والغيرة والإصلاح والإيثار والشرف فلا يشبهه الذى يهدم مجد القبيلة ، لأنه يتصف بالتخريب والتدمير والحمق والفساد والدمار .

وقول النجاشى فى رده على قصيدة كعب بن جُعيْل :

جعلتم عليًّا وأشياعه

نظير ابن هند أما تستحونا ؟

فهو يلوم الشاميين على أنهم هبطوا بمكانة على بن أبى طالب إلى منزلة معاوية ابن أبى سفيان ، ولم يقل إنهم ارتفعوا بمعاوية إلى مقام على .

(الآية الثانية)

قال سبحانه وتعالى : « ومايستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا المسىء ، قليلاً ما تتذكرون [1] » .

فماذا قالوا فى (لا) هنا ؟

١ ـ اكتفى الطبرى بتفسير الآية الكريمة ، وجاء فى تفسيره قوله : لا يستوى المؤمنون بالله ورسوله المطيعون لربهم ولا المسىء ، وهو الكافر بربه ، العاصى له ، المخالف لأمره [2] .

ولم يذكر شيئا عن (لا) فى هذه الآية .

٢ ـ وصنع الزمخشرى صنيعه. [3]

٣ ـ وكذلك صنع القرطبى [4] .

٤ ـ أما النسفى (٧٠١هـ) فقال إنها زائدة [5]

٥ ـ وأما النيسابورى فلم يذكر شيئا [6] .

٦ ـ وأما أبو حيان الأندلسى فقال إنها كررت لتوكيد النفى ، لأن جملة الصلة وماعطف عليها طالت [7] .

٧ ـ وأما ابن كثير فلم يذكر شيئا [8] .

---

(١) سورة غافر ٥٨

(٢) تفسير الطبرى ٥١/٢٤

(٣) الكشاف ٣٧٥/٣

(٤) تفسير القرطبى ٣٢٥/١٥

(٥) تفسير النسفى ٢٥٧/٢٤

(٦) على هامش الطبرى ٥٢/٢٤

(٧) البحر المحيط ٤٧٢/٧

(٨) تفسير ابن كثير ٨٥/٤

٨ـ وأما أبو السعود (٩٨٢هـ) فقال مثل أبي حيان ، وزاد عليه أن المقصود نفي مساواة المسيء للمحسن فيما له من الفضل والكرامة ، وقال : هذا الرأي الثاني هو الصواب ، لأن (لا) هنا أصيلة دلت على أن المسيء لا يساوي المحسن بعد أن فهم من الآية نفسها أن المحسن لايساوي المسيء ، لأن التقدير في (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات[1] .

٩ـ ثم ذهب فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج إلى مثل رأيه السابق وهو أن المراد نفي استواء المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنفسهم ، لأن أفرادهم كثيرون متفاوتون في قوة الإيمان والعمل الصالح . ثم إن المقابل الذي هو المسيء في العقيدة والعمل له أفراد كثيرون أيضا متفاوتون في درجات هذه الإساءة ، فأريد نفي المساواة فيما بينهم بقوله سبحانه « ولاالمسيء » .ولاشك أن مجموع هذا وذاك يلزمه انتفاء المساواة بين المحسنين في العقيدة والعمل والمسيئين فيهما ، فإنه إذا ثبت أن النوع الواحد قد انتفت المساواة فيه نفسه،أي انتفى التساوي بين أفراده فإنه يلزم انتفاء المساواة بين النوعين أوبين أفراد النوعين بالطريق الأولى وهذه نتيجة لايمكن الوصول إليها مع زيادة (لا)[2]

تعقيب

١ ـ هكذا مر بعض المفسرين بالآية مرورا لاذكر فيه للحرف (لا) وذهب آخرون إلى مثل ماذهبوا إليه في الآية السابقة .

والتعقيب هنا لايختلف عن التعقيب هناك[3] .

٢ ـ والذي أرجحه ـ والله أعلم ـ أن في الكلام حذفا يدل عليه السياق ، وبغير الحذف يكون التعبير هكذا : ومايستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين كفروا وعملوا السيئات ، ولا

(١) تفسير أبي السعود ٦٣١/٧

(٢) البحوث والمحاضرات لدورة المجمع اللغوي الثالثة والثلاثين ٨٧

(٣) نفي التساوي بين أفراد ما بعدها لا يحقق الغرض من الآية وهو نفي المشابهة بين المؤمنين والكفار .

الذين كفروا وعملوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات .

أى أن المؤمنين لايشبهون الكفار فى ضلالهم وفساد عقائدهم وسوء أعمالهم والعذاب المعدّ لهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالكفار ، وكذلك لايشبه الكفار المؤمنين فى اهتدائهم وصواب عقائدهم وطيب أعمالهم واستحقاقهم ثواب الله المعد لهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالمؤمنين ، كما تبين فى الآيات السابقة .

ومن هذا يتضح أن فى الآية محذوفا دل عليه الكلام الباقى وأغنى عنه ، وقد تقدم التفصيل والتدليل والتعليل فى الآية السابقة

(الآية الثالثة)

قال تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أَحْسَنُ ، فإذا الذى بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولىٌّ حميم . وما يُلَقَّاها إلا الذين صَبَرُوا ، وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍّ عظيم »[1] .

١ - قال الطبرى إن (لا) مكررة ، والمعنى ولا تستوى الحسنة والسيئة ، لأن كل ماكان غير مساو شيئا فالشىء الآخر غير مساويه ، كما أن كل ماكان مساويا لشئ فذلك الشئ مساو له ، فيقال فلان مساو فلانا وفلان له مساوٍ ، فكذلك فلان ليس مساويا لفلان ولا فلان مساويا له ، فلذلك كررت (لا) مع السيئة ولو لم تكن مكررة معها كان الكلام صحيحا .

وقد كان بعض نحويى البصرة يقول: يجوز أن يقال (لا) الثانية زائدة توكيدا ، كما فى قوله تعالى : « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شئ من فضل الله »[2] أى لأن يعلم أهل الكتاب ، وكما قال تعالى : « لا أُقسم بيوم القيامة ولا أُقسم بالنفس اللوامة »[3] .

وكان بعضهم ينكر قوله هذا فى « لئلا يعلم أهل الكتاب » وفى قوله « لا أقسم بيوم القيامة »[4] .

٢ - وقال الزمخشرى إن الحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسهما ، فخذ

---

(١) سورة فصلت : ٣٤ ، ٣٥
(٣) سورة القيامة ١ - ٢
(٢) سورة الحديد : ٢٩
(٤) تفسير الطبرى ٧٤/٢٤

بالحسنة التى هى أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان ، فادفع بها السيئة التى ترد عليك من بعض أعدائك .

ومثال ذلك رجل أساء إليك إساءة ، فالحسنة أن تعفو عنه ، والتى هى أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ، ويقتل ولدك فتفتدى ولده من يد عدوه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولى الحميم مصافاة لك .

وقيل (لا) مزيدة ، والمعنى ولاتستوى الحسنة والسيئة[1] .

٣ - وقال القرطبى نقلا عن الفراء إن (لا) صلة ، أى لاتستوى الحسنة والسيئة ، وأنشد :

ماكان يَرْضَى رسول الله فعلهم

أو الطيبان أبو بكر ولا عمر

أراد (أبو بكر وعمر) أى لايستوى ماأنت عليه من التوحيد وما عليه المشركون من الشرك[2] .

٤ - وذكر المنيسابورى أن (لا) زائدة لتوكيد نفى الاستواء ، والمعنى لا تستوى الحسنة والسيئة قط ، ومثالهما الإيمان والشرك ، والحلم والغضب ، والطاعة والمعصية ، واللطف والعنف[3] .

٥ - وذكر أبوحيان الأندلسى رأيين : أحدهما أن (لا) زائدة والآخر أنها أصيلة ، لأن الحسنة جنس والسيئة جنس ، فالمعنى إذن ولا تستوى الحسنات لأنها متفاوتة فى أنفسها ، ولا السيئات لأنها متفاوتة أيضا[4] .

٦ - أما ابن كثير فلم يذكر شيئا[5]

٧ - وأما الزركشى فقال إن (لا) تزاد مع الواو بعد النفى ، كما فى هذه الآية ، لأن استوى من الأفعال التى تطلب اسمين ، أى لاتليق بفاعل واحد ، نحو اختصم ، فعلم أن (لا) زائدة .

وقيل إنها دخلت فى السيئة لتحقق أنه لا تساوى الحسنة السيئة ولا السيئة الحسنة . وقال إنهاليست زائدةعندمن قال إن جنس الحسنة لا يستوى أفراده ،

---

(١) الكشاف ٣٩٢/٣ يتفق الرأى الأول ورأى فضيلة الدكتورعبد الرحمن تاج

(٢) تفسير القرطبى ٣٦١/١٥

(٣) على هامش الطبرى ١٠/٢٥ .

(٤) البحر المحيط ٤٩٨/٧

(٥) تفسير ابن كثير ١٠٠/٤ .

وجنس السيئة لا يستوى أفراده ، وهو الظاهر من سياق الآية : فليست زائدة ، والواو عطفت جملة على جملة[1].

٨ – وارتضى فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج ما ارتضاه فى الآيتين السابقتين وهو أن المقصود نفى استواء أفراد الحسنة نفسها ، ثم نفى استواء السيئة كذلك ، فإن لكل من أفراد الحسنة والسيئة أفرادا متفاوتة فى القوة والأثر .

وإذا كان الأمر كذلك ثبت بطريق الأولى عدم التساوى بين الحسنة والسيئة[2].

تعقيب

١ – تبين أن الآراء التى قيلت هنا لاتختلف عما قيل فى الموضعين السابقين ، فلا مدعاة للمناقشة ، لأن المناقشة السابقة تغنى .

وإذا كان من الحق أن الحسنات متفاوتة القدر والأثر والمثوبة ، وأن السيئات مختلفة الجرم والضرر والعقوبة ، ولهذا جاءت (لا) أصيلة لنفى المساواة بين أفراد ما بعدها ، إذا كان هذا حقــا فإنه لا يناسب ما تتوخاه الآية الكريمة من تبيين الفرق الجسيم بين الخير والشر ، وبين الحسن والقبيح ، وبين الإحسان والإساءة ، تمهيدا للأمر بالحلم والصبر والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة ، لأن هذه المقابلة تستل سخائم النفوس ، وتلين القلوب ، تغرس المودة ، وتوثق صلة الفرد بالفرد وصلة المجموع بالمجموع .

٢ – فأرجح – والله أعلم – أن فى الكلام محذوفا ، لأن أصله ولاتستوى الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة ، أى لا تستوى الحسنة والسيئة فى شرور السيئة وأذاها وإشعالها للضغن والعداء والانتقام ، ولا تستوى السيئة والحسنة فى محامد الحسنة وطيب آثارها وتأليفها قلوب الأفراد والجماعات.

ولا شك أن التعبير بهذه الصورة يتضمن أيضا توكيدا لنفى التساوى بين الحسنة والسيئة ، سواء أكان المقصود محامد الحسنة أم مخازى السيئة أم بيان الفروق العظيمة بينهما كما ، سبق فى الآيات الأولى .

أحمد الحوفى
عضو المجمع

(١) البرهان فى علوم القرآن ٧٨/٣ و ٣٥٧/٤

(٢) البحوث والمحاضرات للدورة الثالثة والثلاثين ٨١

اللغة العربية

مكانتها القومية والعالمية فى القديم والحديث

للأستاذ محمد شوقى امين

١ ــ مفهوم « القومية » أشبه بالطيف الشمسى يتكون من حزمة من الألوان ، لكنه يتجمع فى بلورة ليبعث شعاعه الألاق . ومهما يكن من تخالف المفاهيم للقومية ، ومهما يكن من تعدد مقوماتها من وحدة أرض أو لغة أو تاريخ أو مصالح مشتركة أو هتافات روحية ، فليس من شك فى أن هذه المقومات تلتقى عند الشعور الجماعى بالانتماء ، والتقدير المشترك للذكريات ، والتجاوب الذهنى والوجدانى فى المجالات الحيوية على تنوعها من اجتماعية وثقافية واقتصادية ودينية .

ولايغالى من يقول بأن « اللغة » هى الأساس فى ذلك كله ، إذ هى وسيلة التفاهم الفكرى ، وأداة التعاطف الروحى ، فالشعور الموحد مدين أعظم الدين للاشتراك اللغوى فى عمقه وشموله .

وليس المقصود باللغة مدلولها السطحى فى أنها مجرد وصلة للتعبير عن الأفكار ، ورمز لما يخالج الأفئدة ، بل هى تيار يمازج العقل والنفس ، وطاقة تتولد بها الألفة الوثقى بين الناس بعضهم و بعض ، فتجعلهم على صعيد رحيب يسوده جو نقى ، يتبادلون به الآراء والعواطف والأحاسيس ومظاهر السلوك الاجتماعى العام .

ونحن إذا تأملنا مدلول « القومية » العربية التى نعبر عنها فى الغالب بكلمة واحدة ، هى « العروبة » ، تبين لنا أنها لاتعنى مجرد جنس أو نسب أو عقيدة ، ولا مجرد علاقات من وحدة الأرض أو ذكريات التاريخ ، ولكنها تعنى دلالة صريحة جهيرة على معنى بارز موسع من المشاركة الجماعية فى كيان متميز ، يسطع فيه لألاء اللغة العربية بكل مافيها من سحر وجاذبية ، وبكل ماتحتويه من زاد ثقافى وفكرى وروحى .

٢ ــ ومكانة « اللغة العربية » قوميا يرجع بها التاريخ إلى مااصطلحنا على تسميته « العصر الجاهلى » . ففى هذا العصر كان للعرب فى جملتهم لغتهم التى وحدت شعورهم بكيانهم وتميزهم ، فبنوا عليها دعائم قوميتهم . وقد غلبت هذه « اللغة المشتركة » على شبه الجزيرة العربية ، وعبرت عن

مرافق حياتها ، وسجلت ألوان نشاطها الاجتماعي والأدبي في نماذج رفيعة من شعر وخطب ، ومن رسائل ووصايا ، ومن قصص وأمثال .

وإن « معجم اللغة العربية » في ذلك العصر المسمى بالجاهلي ليحفل بما ينم عن معارف في زراعة وملاحة ، وفي جغرافية وتاريخ ، وفي فلك ورياضة . كما أنه يدلنا على إبداع عقلي ، وترف ذهني ، وتفوق في التصور والتخيل ، وسمو في المثل والأهداف . ومابالنا نحيل على معجم للغة العصر الجاهلي ، لم يعن بوضعه أحد بعد ، وبين أيدينا معجم ألفاظ القرآن الكريم ، وماألفاظه في مجموعها إلا نخبة طيبة موثقة من لغة ذلك العصر الذي نعنيه ،وهي مرآة صافية صادقة الدلالة على أن صوت السماء القدسي إنما نزل بلغة اكتسبت بالشيوع والشمول صفة « القومية» واكتملت لها بالازدهار والنضج مزية الإبانة والإفصاح .

٣ — وإن نمو اللغة العربية ونضجها من حيث الأصوات والصيغ ونظام الجمل ، وقوميتها من حيث الشيوع و الشمول في البيئة الحضرية من ذلك العصر المعروف بالجاهلي ، هو الذي هيأها أن تستقبل الوثبة الكبرى بعد ظهور الإسلام ، فعاشت حياتها المديدة تتفاعل وتتطور ، وتختزن عناصر من القوة والفراهة ، حتى نهضت بتبعاتها الحضارية مع التقدم الإنساني المطرد ، وظلت على اتساع مناطقها لغة مشتركة بين من تظلهم « القومية العربية » ، محافظة على وحدتها ، متغلغلة في مجموعات من الأمم والشعوب ، حريصة على تحقيق التوازن بين ضرورات التطور والتغيير ومقومات البقاء والصمود . فأتيح لها أن تستوعب مااستوعبت ، مفسحة صدرها لتراث الإنسانية ومعارفها، وهضمت كل ماقدم إليها ، وقاومت مايعوق انطلاقها .

وبهذا جمعت اللغة العربية بين كونها « لغة قومية » وكونها « لغة عالمية » في آن .فهي « بقوميتها » لسان شعور متوحد مشترك ، وترجمان كيان بارز متميز ، وهي بإحاطتها برقعة كبيرة من المعمورة وجملة وافرة من الأمم والشعوب تمثل «لغة عالمية»بأوفى ماتحتمل الكلمة من معنى [(١)].

٤ — وقد أعان « اللغة العربية » على ذلك أنها ظفرت باكتساب قدسية التعبير عن وحي السماء ، في كتاب الله المبين ، فأضفى عليها من جلاله ونفخ فيها من سلطانه ، ومن ثم كانت لغة للدين كما هي لغة للدنيا ، وانتشرت في الأصقاع مشرقة ومغربة ، تدرس في أصبهان وشيراز ، كما تدرس في دمشق وبغداد ، وينبغ فيها كتاب وشعراء في قرطبة والحمراء ، كما ينبغون في القاهرة والقيروان ، وبذلك تمت لها الهيمنة من أواسط الهند شرقا إلى جبل طارق غربا ، ومن البحر الأسود شمالا إلى المحيط الهندي جنوبا . وهي

(١) من أو في ماكتب في اللغة العربية ومكانتها القومية و العالمية ما جاء في مؤلف الدكتور إبرهيم أنيس « اللغة بين القومية والعالمية » وقد اعتمده الكاتب في عدة مواضع .

بذلك أسبق لغة عالمية ، إذ تجلت حقيقتها قبل أن يعرض المحدثون لفكرة اللغة العالمية أو يحددوا معالمها .

٥ — وبوساطة « اللغة العربية » عرفت الأمة العربية فى محيطها الواسع : طب أبقراط ، وفلك بطلميوس ، وهندسة إقليدس ، وفلسفة أرسطو ، وسائر علوم إغريقا والإسكندرية ، ومعارف الهند والفرس والسوريان والقبط . ولولا أن اللغة العربية نقلت بلسانها تلك الذخائر على أقلام الأعلام فى بيت الحكمة ودار العلم وغيرهما من معاهد الترجمة والدرس ، لتأخرت المدنية الإنسانية قرونا . فحضارة البشر مدينة للغة العربية بنهضتها الأوربية الحديثة. ولو تصورنا أن هذه اللغة الحية لم تحافظ على التراث العلمى الحضارى ولم يتح لها تنميته والإبداع فيه على هذا النحو لحاز لنا أن نتصور الإنسانية وهى تبدأ رحلتها العلمية الحضارية من أول الطريق .

إن اللغة العربية لم تعدم من منصفى المؤرخين الأجانب من يقول إنه كان لابد من ظهور ابن الهيثم والبيرونى والكندى لكى يظهر جاليلو وكيلر وكوبرنيق . ولولا ماأصاب البلاد العربية من محنتها بالمغول والتتار ومن حبسوا الانطلاق العربى فى قماقم العبودية والجمود ، لكانت النهضة التى سجلها التاريخ الحديث لأوربا من حظ الأمة العربية بلغتها القومية العالمية ، تتقدم بها الركب الحضارى إلى أمام . وعلى الرغم من ذلك فإن ضمير التاريخ ، لا يستطيع أن يجحد فضل تلك اللغة التى دونت كنوز العرفان وحملتها أمانة إلى من تلقوها بشيرا بالفجر الجديد .

٦ — فى تلك العصور التى ازدهرت فيها البلاد العربية بالمعرفة الإنسانية ، استطاعت اللغة العربية أن تواتى العلماء بحاجاتهم من التعبير العلمى الصحيح ، ومكنتهم من أن يستخدموا فصاحة اللغة وطواعيتها لخلق أسلوب علمى قويم ، تتوافر له دقة وعمق وسلامة . وهذه هى مؤلفات ابن سينا وابن الهيثم والبيرونى والخوارزمى والرازى وغيرهم تشهد بما وفقوا فيه من تجلية الحقائق العلمية النظرية والتجريبية فى مختلف ضروب المعرفة ، مستعينين بما ابتدعوا من مصطلحات ومواضعات أصيلة بلسان عربى مبين .

وإن استجابة اللغة للمطالب العلمية والاجتماعية والحضارية بوجه عام ، لهى برهان ما تميزت به من سعة وغنى ومرانة ، فى مادتها الغزيرة وأقيستها المتنوعة . وفى طرائقها للوضع والاشتقاق من الألفاظ والتراكيب ، وفى أدواتها ووسائطها لتأدية ألوان المعانى والدلالات — عون وثيق لمن ينشد عندها التعبير عن كل ما يجد فى الحياة من الأعيان وسائر المسميات ، وما يقوم بالنفس من ضروب الخوالج والأفكار .

٧ – ولقد كان إيمان الأمة العربية بقومية لغتها باعتبار، وعالميتها باعتبار آخر، باعثا لها على أن تحرص على « الوحدة » اللغوية » فيما يتداول من الألفاظ والأساليب فى معظم ما تتناوله الأقلام وتتناقله الأفهام . ولم يكن ذلك مقصورا على أنماط الأدب وفنونه ، بل كان على وجه أخص فى لغة العلم ومواضعاته؛ فعلى الرغم من تباعد الأصقاع العربية وعسر اتصال بعضها ببعض ، من حدود الصين فى الشرق إلى حدود فرنسا فى الغرب ، ظلت الثقافة العربية « لغة مشتركة » موحدة لها خصائصها البارزة فى عباراتها وفى مصطلحاتها تيسيرا للتبادل الثقافى على أوسع نطاق ، حتى يسعنا القول بأن هناك لغة للعلم تخلقت ونمت وتنوعت على مر الزمن : «بذرت بذورها فى القرن الأول الهجرى، وظهرت مصطلحات فى علوم الفقه والتفسير والكلام. وتلتها فى القرن الثانى مصطلحات فى علوم اللغة والتاريخ ، فى الأخلاق والسياسة ، فى الطب والكيمياء، فى الفلك والهندسة ، واستكملت العلوم العربية فى القرن الثالث لغتها ، وتوفرت لها أسباب الحياة. وما إن حل القرن الرابع الهجرى ، وهو العصر الذهبى فى تاريخ الثقافة الإسلامية ، حتى استقر المصطلح العلمى ، وبدئ بتسجيله فى معجمات خاصة، ومنه ما نقل إلى الفارسية ، والتركية ، ومنه ما سرى إلى اللاتينية بل بعض اللغات الأوربية الحديثة »– كما فى بحث الدكتور إبراهيم مدكور المنشور فى الجزء التاسع والعشرين من مجلة «مجمع اللغة العربية» .

وهكذا كان تأصيل « اللغة القومية» وحياطتها من عوادى البلبلة والتفكك والفرقة ، عاملا جوهريا فى أن تصطبغ بالصبغة العالمية الناصعة ، وذلك بتأديتها لمطالب الحضارة الأدبية والعلمية والفنية والاجتماعية بين أمم وشعوب تراحبت بينها دائرة المشابهات وتضايقت دائرة الفروق ، خلال مئات من السنين .

٨ – ولقد أتى على العربية حين من الدهر، تخلفت فيه بتخلف البلاد العربية عن ركب التقدم الحضارى . وما إن مضى ذلك العهد ، وانقشعت غياهبه ، حتى كانت العربية بأصالتها وفراهتها على موعد مع النهضة العصرية الحديثة فى بلاد العروبة ، وقد نيف الآن عصر هذه النهضة على مائة سنة، تتابعت فيها الجهود لتنمية اللغة الحضارية ، فترجم الطب والهندسة وغيرهما فى مطالع العصر ، بل لقد كان تدريسها بالعربية أول الأمر ، وفى هذا العصر ترجمت شوامخ العلم والفلسفة والفن والأدب ، من أمثال أرسطو وداروين وفرويد وشكسبير ، وألفت كتب فى الفروع العلمية كافة ، وتولى تدريسها بالعربية علميون مختصون ، واستطاعت العربية العريقة ذات التجارب فى الأداء العلمى أن تطاوع ما تراد عليه من تأدية المعانى الاصطلاحية . ولم تكن المشكلة عندها نقل المعانى المجردة والأوصاف والشروح بل نقل أسماء الجواهر والذوات والأعيان وبعض المسميات ، ومع ذلك اتسعت لها بالوضع والاشتقاق فى الأكثر ، وبالتعريب فى الأقل

وبين أيدى قراء العربية ما تتابع خلال مائة السنة الماضية من معجمات ثنائية حافلة بالألوف من مصطلحات المعرفة الحديثة عامة ، نذكر منها تمثيلا لاحصرا: معجم شرف الطبى ، ومعجم عيسى النباتى ومعجم مظهر للعلوم، ومعجم الشهابى الزراعى ومعجم المعلوف الحيوانى ، ومعجم الجامعة العربية العسكرى ، ومعجم الياس العصرى وكذلك المورد والمنهل وغيرهما من عشرات المعجمات ، وهذا كله غير الجهد الحاشد المتواصل فيما أخرجه «مجمع اللغة العربية» القاهرى من عشرات الألوف من مصطلحات العلوم والفنون والآداب فى مجموعات متوالية، وغير ما لمجمع دمشق ومجمع بغداد وسواهما من الهيئات والمؤتمرات من جهود مساعفة فى مجال التعبير العصرى عن التقدم الحضارى .

وفى البلاد العربية على تعددها عشرات الكليات والمعاهد والأندية، تمارس الحياة العلمية الطليقة فى أدق مجالاتها وأرفع درجاتها وصميم اختصاصاتها ، واللسان الذى ينطق بهذه الحياة العلمية ويعبر عنها فى معظم المجالات هو اللسان العربى القومى العالمى . وتحت أنظارنا المطبعة العربية تخرج فى كل يوم، بل فى كل ساعة، من الزاد العلمى والثقافى مايتناول ضروب المعرفة بنسب متدرجة ، وفى العرب الألوف من الدارسين العلميين المتخصصين الذين جمعوا بين اللغات المتعددة والثقافات المتنوعة ، وقد فتحت أمامهم النوافذ على الصعيد العالمى، يحصلون ويعلمون ويؤلفون ويترجمون بالعربية : على نحو يؤكد احتواءها لأمهات المصطلحات العلمية وتعبيرها عن أكثرها من مادتها الفصحى.

وتلك هى الصحافة العربية تخرج للأمة العربية صباح مساء مصورة أحداث الحياة وشئون الدنيا وما يدور فيها من وجوه الأنشطة ، بلسان عربى ينتقل إلى أذهان قراء العربية فى كل مكان ، وهنالك إلى جانب ذلك كله ،وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة التى تتجاوب بلغة عربية عصرية حديثة .

وليس من ريب فى أن تلك الظواهر السائدة ، أو الحقائق الواقعة ، إنما تفصح فى يومنا الراهن عن قومية اللغة العربية وعالميتها اللتين تزدادان مع الأيام استقرارا وشمولا واطراد نمو ، وتمضيان قدما فى سبيل استيعاب الحضارة الجديدة على اختلاف مناحيها فى العلوم والفنون والآداب وسائر مرافق الحياة .

ومما يشهد لهذا أوثق شهادة أن الرأى العالمى العام فى أوج مستوياته الدولية ، قد اعترف للعربية بقوميتها وعالميتها ، فهى الآن إحدى اللغات المعدودة التى تعبر بها « اليونسكو » ، تلك المنظمة الثقافية الدولية الممثلة لهيئة الأمم المتحدة ، عن دراساتها وبحوثها وسائر وجوه نشاطها الفكرى

٩ – والإيمان بقومية اللغة العربية وعالميتها اليوم . لاينبع من تحمس لجنس . أو تعصب لعقيدة ، أو تأثر بعامل وهمي من العوامل المفتعلة التي تثيرها الدعايات أو الشعارات العارضة ، وإنما ينبع ذلك الإيمان من واقع ثابت له جذوره الراسخة في غير تعمل أو افتعال ، فإن للعدد الجم من الأمم والشعوب في شرق الأرض وغربها أعراقا في هذه اللغة الأصيلة ، وإن الاعتزاز بهذه الأعراق عميق إلى أقصى حدود العمق في تلك الأمم والشعوب ، ونعني بالأعراق العزيزة تراث الآباء والأجداد الذين رفعوا مشاعل المعرفة الإنسانية في أحقاب متوالية ، وتركوا آثارهم تزدان بها اللغة العربية في كنوزها الغالية التي تعتبر ركائز للثقافة البشرية الرفيعة على امتداد التاريخ

إن الألوف من المؤلفين باللغة العربية يذكرون بنسبتهم إلى أقطارهم المتعددة من بسيط الأرض ، وحسبنا أن نذكر من أمثالهم : الفارابي والقزويني واللكنوي والخراساني والأصبهاني والمراكشي والدينوري والأنطاكي والطوسي والمحريطي والخوارزمي والبطلميوسي والأفغاني والهندي والراجكوتي والطبرسي والزنجاني والصاغاني والفيروزابادي والغرناطي والبستي والقيرواني والفاسي والطنجي والصقلي والزمخشري والشيرازي والتبريزي والكشغري والجبرتي . فهؤلاء الألوف ينتسبون إلى بلاد لو رمز لها بنقاط على المصور الجغرافي للدنيا لملأت النقاط معظم الأرجاء ، وإن بلادهم التي نجلتهم ما برحت عامرة بأهلها الذين يباهون بما خلف الأجداد من أمجاد .

١٠ – من هذا كله ، يتبين أن هناك حقيقة تسمو إلى مستوى العقيدة ، فلا سبيل إلى الخلاف عليها ، ولاجدوى من الجدل حولها ، تلك هي أن الأمة العربية بمدلول العروبة الفكري والثقافي والروحي مصممة على الاستمساك باللغة العربية ، مؤمنة بأنها هي اللغة القومية العريقة الخالدة الجديرة بوصف العالمية الحق ، تلك اللغة التي تتمثل فيها عقلية العروبة ووجدانها ، ويتجلى في مرآتها النشاط العروبي الحيوي ، ويكمن في ذخائرها ما لهذا النشاط من أثر إيجابي في الحضارة والعمران .

ولن تدخر الأمة العربية وأشياعها وسعا في توكيد أسباب البقاء والنماء لتلك اللغة القومية العالمية التي واكبت أكثر من خمسة عشر قرنا من الزمن ، تعبر في طلاقة عن حضارة الكون ، وتنطق في صدق عن مشاعر الإنسان .

محمد شوقي أمين
عضو المجمع

الاحتجاج للقراءات

للأستاذ سعيد الأفغاني

تضافرت جهود أولى العبقريات النادرة فى هذه الأمة العظيمة ، على خدمة اللغة العربية فى أنحاء شتى متقاربة ومتباعدة ، من حيث كانت لغة القرآن الكريم مصدر التشريع والنظم الكافلين خير الناس قاطبة . ونمت من هذه الجهود — فيما نمى — علوم اللغة العربية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأصول فقه . . .

وفى « الاحتجاج للقراءات » الذى أعرض له إحدى هذه الفنون التى استغل العلماء بها خدمة للكتاب العظيم ، ولابد من عرض تاريخى موجز للقراءات يمهد للكلام على الاحتجاج لها والتأليف فيه .

لم يكن كتبة الوحى الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم يملى عليهم كلما أوحى إليه شىء ، من قبيلة واحدة بل من قبائل عدة أكثرها مضرية ، وكان الناس — على اختلاف لهجاتهم — فى سعة من أمرهم فى قراءة القرآن أول الأمر : كلٌّ يقرؤه بلحن قومه (أى لهجتهم) ؛ حتى إذا آنس أحدهم اختلافا فى قراءة سمعها من إنسان عما أقرأه الرسول ، هرع إليه شاكيا ، فسمع الرسول من كلٍّ قراءته فأقره عليها قائلا : « هكذا أنزلت »[1] .

وكان التغيير تغيير أداء أحيانا من حيث الإمالة أو الترقيق أو التفخيم أو ضبط المضارع الرباعى مثل (نُنْزِل) و (ننزِّل) تخفيفا أو تشديدا ، أو تغاير لفظين والمعنى واحد .. إلى آخر ما أحصوا من أحوال أطلقوا عليها خلافا وما هى بخلاف ، إذ لم تكن تؤدى إلى تغيير معنى ولا حكم ، وكلها مسندة إسناداً صحيحا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعدد السامعون منه ، وعرفوا من أمر هذه الرخصة[2] مالم يكونوا على علم به ، واندرجت هذه الوجوه الكثيرة من القراءة فى تعبير

(١) انظر مثلا الجامع الصحيح للبخارى ٦-٢٢٧ كيف لبب عمر بن الخطاب هشام بن حكيم لما سمعه يقرأ سورة الفرقان على حروف لم يقرئها الرسول عمر نفسه ، فقاده الى الرسول فلما سمع من هشام قال : « كذلك أنزلت » ولما سمعها من عمر قال : « كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ماتيسر منه . »

(الأحرف السبعة) الواردة فى الحديث وأريد بالسبعة التعدد والكثرة لا تحديد العدد بسبعة .

كثرت الوجوه المتواترة عن رسول الله فى القراءة[1]، وتفرق الصحابة فى الأمصار كل يقرئ أهل مصره بما سمع ، على لهجته . وتعارف الناس هذه الوجوه واللهجات ولم ينكر أحد على أخيه قراءته ؛ حتى إذا امتد الزمان قليلا وكثر الآخذون عن الصحابة ، وقع بين أتباعهم شيء من خلاف وإنكار خشى الأجلاء من الصحابة مغبته مع الزمن ؛ فحملوا الخليفة الثالث عثمان ابن عفان على معالجة الأمر ففعل ؛ وكان من رأيه المبارك كتابة مصحف يجتمع عليه قراء الصحابة وكتبة الوحى ، وهؤلاء وأولئك كثير متوافرون .. حتى إذا وقع خلاف كتبوه على لغة قريش ، وكذلك كان :

استعار عثمان من أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر المصحف الذى كان جمعه زيد بن ثابت بتكليف من الخليفة الأول بناء على رأى عمر بن الخطاب الذى هاله أن استحر القتل يوم اليمامة بالقراء ، ففزع إلى أبى بكر ليجمع الصحف واللخاف والعسب التى كتب عليها القرآن .. إلى ما فى صدور الرجال منه فيودع ذلك كله بجمع من قراء الصحابة مصحفاً واحداً حتى لا يضيع من القرآن شيء .. فأرسلت السيدة حفصة المصحف ، « فأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام لينسخوا المصحف فى المصاحف ، وقال للرهط من قريش : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما أنزل بلسانهم[2]» ففعلوا ذلك ، حتى إذا نسخ المصحف رد عثمان المصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق مصحفاً مما نسخوا وأمر بكل ما سواه من القرآن فى كل صحيفة ومصحف أن يحرق »(٢) ، « وأجمعت الأمة المعصومة من الخطأ على ما تضمنته هذه المصاحف وترك ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى مما كان مأذوناً فيه توسعة عليهم ولم يثبت عندهم ثبوتاً مستفيضاً أنه من القرآن ، وجردت هذه المصاحف جميعها من النقط والشكل ليحتملها ما صح نقله وثبت تلاوته عن النبى صلى الله عليه وسلم .. فكتبت المصاحف على اللفظ الذى استقر عليه فى العرضة الأخيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح به غير واحد من أئمة السلف »[3].

(١) قال ابن الجزرى . (٧٥١ -٨٣٣هـ) : وقوله من قال (إن القراءات المتواترة لا حد لها) : إن كان أراد فى زماننا فغير صحيح لأنه لم يوجد اليوم قراءة متواترة وراء العشر ، وإن أراد فى الصدر الأول فمحتمل - غيث النفع ص٧ .

(٢) انظر صحيح البخارى ٤ -٢١٩ والفهرست لابن النديم ص ٣٧ .

(٣) النشر فى القراءات العشر ص ٧ . واللام فى قوله (ليحتملها) لام العاقبة لا لام التعليل ، إذ لم يكن يومئذ نقط ولا شكل .

كانت تلك المصاحف التى وزعها عثمان على الأمصار مرجع الناس ، إليها يصيرون فى قراءتهم وخلافهم ، وبذلك قضى على احتمالات الفرقة فى الأجيال القادمة ، وترك الناس قراءات كثيرة صحيحة لا يحتملها الرسم العثمانى (1) إيثاراً للعافية ووحدة الكلمة فكان من ذلك بعد التيسير الأول تقريب بين اللهجات ، وبقى الرسم العثمانى ضابطاً لما اتفق عليه منها ، كما كان خطوة واسعة نحو التوحيد ، ثم تكفلت الأعصار المتعاقبة بالباقى .

مضت المائة الأولى للهجرة والناس على ماقدمنا لا يقرؤون المصاحف إلا ما أقرأهم الصحابة والتابعون ، والمقرئون الثقات الذين يرجع إليهم كثيرون مشهورون ، وانحصرت وجوه القراءات بما تواتر موافقاً الرسم العثمانى ، ونسيت القراءات الصحيحة التى لا تنطبق على الرسم . إلا أن ناشئة نشأت لم ترجع فى قراءتها إلى المقرئين الأئمة الثقات وإنما اكتفت بما ينطبق على الرسم « فصار أهل البدع والأهواء يقرؤون بما لا يحل تلاوته وفاقا لبدعتهم (٢) ولما كثر الاختلاف بفعل هؤلاء « أجمع رأى المسلمين على أن يتفقوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم فاختاروا من كل مصر وجه إليه مصحف أئمة مشهورين بالثقة والأمانة فى النقل وحسن الدراية وكمال العلم ، أفنوا عمرهم فى القراءة والإقراء ، واشتهر أمرهم وأجمع أهل مصرهم على عدالتهم . ولم تخرج قراءتهم عن خط مصحفهم» .(٢) وكانت وجوه قراءاتهم ينظمها ضابط صاغه علماء القراءات فى شروط ثلاثة :

١ ــ صحة السند بالقراءة إلى رسول الله متواترة من أول السند إلى آخره .

٢ ــ موافقة القراءة رسم المصحف العثمانى .

٣ ــ موافقتها وجهاً من وجوه العربية مجمعا عليه أو مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله . والشرط الأساسى كما يظهر للمتأمل هو الأول أما الثانى والثالث فالغالب أنهما أضيفا ليتكون من الثلاثة ماينطبق تمام الانطباق على القراءات العشر المعروفة ، وليخرج بذلك قراءات متواترة تركها الناس منذ حملهم عثمان على مصحفه ، لمخالفتها رسمه .

انعقد إجماع علماء القراءة على هذه الشروط ، إلا أن بعضهم اكتفى من الشرط الأول بصحة السند إلى رسول الله ولم

---

(١) كبعض ما فى مصحف ابن مسعود ، وكبعض قراءات أبى ، وبقى علم هذه القراءات عند المختصين .

(٢) إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر ص ٦

يشترط التواتر ، ويهمنا — هنا — بيان ضعف هذا الرأى ونكير العلماء عليه :

أشهر من عرف عنه ذلك فى المائة الخامسة للهجرة (١) مكى بن أبى طالب المقرئ المفسر العالم بالعربية ، فقد قال : « القراءة الصحيحة ماصح سندها إلى النبى صلى الله عليه وسلم وساغ وجهها فى العربية ووافقت خط المصحف » (٢) وشاع هذا القول بعده حتى « تبعه على ذلك بعض المتأخرين ومشى عليه ابن الجزرى (٣) فى (نشره) و(طيبته)»[٢] . وهما كتابان صارا عمدة فى فن القراءة يدرسهما كل من أراد تحصيله وكادت (مدرسيتهما) تسبغ عليهما التقديس.

واستنكر الجمهرة ذلك حتى قال الإمام السفاقسى فى كتابه المشهور (غيث النفع فى القراءات السبع) بعد أن أورده : « وهذا قول محدث لايعول عليه»[٢] بل لقد قرر هذا الإمام أن« مذهب الأصوليين، وفقهاء المذاهب الأربعة ، والمحدثين ، والقراء أن التواتر شرط فى صحة القراءة ، ولاتثبت بالسند الصحيح غير المتواتر ولو وافقت رسم المصاحف العثمانية والعربية »[٢] وهذا حكم صحيح يقتضيه المنهج السليم فى كل ما يرجع إلى النقل . وبذلك تمتاز وجوه القراءات من الأحاديث الصحيحة التى يكتفى فى ثبوت صحتها بنقل العدل الضابط عن مثله فى سلسلة تنتهى بالصحابى دون اشتراط التواتر .

ويعجبنى من السفاقسى استدراكه على ماقد يرد فى الخاطر إزاء التواتر فقد لفت الأنظار بقوله :

« ولايقدح فى ثبوت التواتر اختلاف القراء : فقد تتواتر القراءة عند قوم دون قوم ، فكل من القراء إنما لم يقرأ بقراءة غيره لأنها لم تبلغه على وجه التواتر . ولذا لم يعب أحد منهم على غيره قراءته لثبوت شرط صحتها عنده وإن كان هولم يقرأ بها لفقد الشرط عنده » (٢)

---

(١) أصله من القيروان وسكن قرطبة وسمع بمكة ومصر من ابن غلبون وقرأ عليه القرآن وكان من أهل التبحر فى علوم القرآن والعربية ، حسن الفهم والخلق ، جيد الدين والعقل كثير التآليف ، مجوداً للقرآن . أقرأ بجامع قرطبة وخطب به وانتفع به جمع وعظم اسمه — بغية الوعاة ص ٣٩٦

وترك تآليف أكثرها فى القرآن وقراءاته وعللها ، انظر اسماءها فى الأعلام للأستاذ خير الدين الزركلى ٨ — ٢١٤

(٢) ص ٦ ، ٧ غيث النفع (١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤م) وانظر بحثنا فى الاحتجاج من كتابنا (فى أصول النحو) ص ٢٨ — ٣٣ .

(٣) محمد بن محمد بن محمد الجزرى (٧٥١-٨٣٣هـ) نسبة إلى جزيرة ابن عمر ، أبو الخير شمس الدين العمرى ولد ونشأ فى دمشق وابتنى فيها (دار القرآن) ورحل إلى مصر والأناضول وماوراء النهر والحجاز. شيخ الإقراء فى زمانه وصاحب المصنفات المشهورة فى علم القراءات له (النشر فى القراءات العشر) و (تقريب النشر)و (طيبة النشر) و (غاية النهاية فى طبقات القراء) ،وكلها مطبوع وكلها مما عظم نفعا منه فى تحقيق هذا الكتاب .

— انظر المصدر الأخير ٢/ ٢٤٧ ، والأعلام للزركلى ٧/ ٢٧٤ .

أما القراءة الشاذة فهم فى تعريفها فريقان :

الأول : جعلها فيما توفر فيه الشرط الأول والثالث وتخلف الشرط الثانى وهو موافقة رسم المصحف الإمام . وفى هذا التعريف بعض تساهل قياساً إلى تعريف الفريق الثانى الآتى .

الثانى : جعلها فيما فقد التواتر من الشرط الأول ، فمهما تجتمع الشروط الثلاثة فى قراءة بسند صحيح غير متواتر فهى – عندهم – شاذة . وأجمعوا على تحريم القراءة بها فى الصلاة ، كما تحرم فى غير الصلاة أيضا إذا اعتقد قرآنيتها أو أوهم ذلك[1].

هذا وقد قرروا أن الشاذ هو كل ماوراء القراءات العشر المعروفة الآتى بيان أصحابها بعد[1] .

تناقل التابعون قراءات الصحابة بالتواتر ، وذهبت قراءات كثيرة صحيحة بسبب أخذ الناس باتباع المصاحف العثمانية[2] ، وأخذ عن أعلام التابعين خلق كثير لا يحصون فذهبت بذلك أيضا قراءات صحيحة لسبب يسير هو عدم بلوغها بالتواتر إلى التابعى مع صحتها فى نفسها ، وهكذا دواليك حتى ساغ لابن الجزرى وهو يؤرخ لحركة التدوين فى هذا الفن أن يقول :

« القراءات المشهورة اليوم [يعنى الثلث الأول من المئة التاسعة للهجرة] عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر بالنسبة إلى ما كان مشهوراً فى الأعصار الأول : قُلٌّ من كُثْر ، ونَزْر من بحر ؛ فإن من له اطلاع على ذلك يعرف علمه العلم اليقين ، وذلك أن القراء الذين أخذوا عن أولئك الأئمة المتقدمين من السبعة وغيرهم كانوا أمماً لا تحصى وطوائف لا تستقصى . والذين أخذوا عنهم أكثر .. وهلم جرا .

فلما كانت المئة الثالثة واتسع الخرق وقلّ الضبط وكان علم الكتاب والسنة أوفر ما كان وفى ذلك العصر ، تصدى بعض الأئمة لضبط ما رواه من القراءات ، فكان أول إمام معتبر جمع القراءات فى كتاب

(١) ص ٧ غيث النفع للسفاقسى . أما من حيث الاحتجاج بها على اللغة والقواعد العربية فذلك سليم سائغ إذا صحت نسبتها إلى صحابى أو عربى سليقى من التابعين – انظر كتابى (فى أصول النحو) ص ٣٠ فما بعد .

(٢) من القراءات الصحيحة التى فضل عليها غيرها ماكان مسموحاً به اتساعاً ورخصة على الناس قبل المصاحف العثمانية من قراءة كل قبيلة بلهجتها « فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه بأن يقرىء كل أمة بلغتهم وماجرت عليه عادتهم فالهذلى يقرأ : (عتى حين) يريد (حتى حين) وهكذا يلفظ بها ويستعملها ، والتميمى يهمز ، والقرشى لايهمز ، والآخر يقرأ : (قيل لهم) ، (وغيض الماء) بإشمام الضم مع الكسر .. الخ قال ابن قتيبة : ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته وماجرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا لاشتد عليه ذلك وعظمت المحنة فيه ..) النشر ص ٢٣ و ٢٤

أبو عبيد القاسم بن سلام ، وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة وتوفى سنة ٢٢٤ هـ ... الخ[١]

ومن قبله ألف فى القراءات عدد من العلماء ، من هؤلاء ابن جبير المكى وهو قبل ابن مجاهد الآتى ذكره بعد قليل ، فقد صنف « كتاباً فى القراءات فاقتصر على خمسة أئمة ، من كل مصر إمام ، وإنما اقتصر على ذلك لأن المصاحف التى أرسلها عثمان إلى الأمصار كانت إلى خمسة أمصار[٢]

ويمضى الشيخ ابن الجزرى يعدد المؤلفين الذين تتابعوا فى الإقراء والتأليف ويذكر المؤلفات المشهورة لهم :

ويعنينا منهم الآن أبعدهم أثراً وأوسعهم شهرة : أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ هـ بعد أبى عبيد بمئة عام ، إذ كان أول من اختار سبعة من أئمة القراء الكثيرين فألف فى قراءاتهم واختار لكل منهم اثنين ممن روى عنه ، على ما سيأتى تفصيله : واشتهر اختياره هذا حتى صارت (القراءات السبع) التى اختارها علماً فى القراءة وعناوين لكتب عدة ومنظومات شتى مشهورة ، هى إلى الآن المراجع التى تحفظ وتشرح وتدرس فى حلقات الإقراء :

ولد ابن مجاهد بسوق العطش ببغداد سنة ٢٤٥ هـ وقرأ على شيوخ كثيرين عدَّ منهم ابن الجزرى فى كتابه (غاية النهاية فى طبقات القراء[٣]) نحواً من مئة شيخ قرأ على أحدهم عبد الرحمن بن عبدوسى عشرين ختمة ، ونعته ابن الجزرى بـ (شيخ الصنعة وأول من سبَّع السبعة)[٣] وهو فى شهادة ابن النديم صاحب الفهرست[٤] « واحد عصره غير مدافع ، وكان مع فضله وعلمه وديانته ومعرفته بالقراءات وعلم القرآن ، حسن الأدب رقيق الخلق كثير المداعبة ، ثاقب الفطنة ، جواداً » : و« بعُد صيته واشتهر أمره وفاق نظراءه مع الدين والحفظ والخير : ولا أعلم أحداً من شيوخ القراءات أكثر تلاميذ منه ، ولا بلغنا ازدحام الطلبة على أحد كازدحامهم عليه .

حكى ابن الأخرم أنه وصل إلى بغداد فرأى فى حلقة ابن مجاهد نحواً من ثلاثمئة مصدِّر : وقال على بن عمر المقرى : كان ابن مجاهد له فى حلقته أربعة وثمانون خليفة يأخذون على الناس» .[٥] وعد له ابن النديم الكتب الآتية :

١ — كتاب القراءات الكبير

٢ — كتاب القراءات الصغير

(١) النشر ص ٣٣

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١ / ٥٣ نقلا عن السيوطى

(٣) ١ / ١٣٩ — ١٤٢

(٤) ص ٤٧

(٥) غاية النهاية ص ١٤٢ وذكر ابن النديم أنه توفى فى شعبان سنة ٣٢٤ ودفن فى تربة فى حريم داره بسوق العطش ثانى يوم موته — الفهرست ص ٤٧ .

٣ ــ الياءات

٤ ــ الهاءات

٥ ــ قراءة أبي عمرو

٦ ــ قراءة ابن كثير

٧ ــ قراءة عاصم

٨ ــ قراءة نافع

٩ ــ قراءة حمزة

١٠ ــ قراءة الكسائي

١١ ــ قراءة ابن عامر

١٢ ــ قراءة النبي صلى الله عليه وسلم .

وعرف هؤلاء الذين ألف فيهم كتبه بالقراء السبعة . ولعله جمع السبعة في كتاب (القراءات السبع) على ما في كشف الظنون ٢ / ١٤٤٨ .

وينبغي أن نلفت الأنظار هنا إلى أن اختيار ابن مجاهد هذا لا يعني أن هؤلاء السبعة هم أفضل الأئمة ، فقد انتقده غير واحد بذلك ، وإن كثيراً من الأئمة هم أفضل من بعض هؤلاء مثل يعقوب الحضرمي وأبي جعفر يزيد بن القعقاع وعبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي وغيرهم[1] بل نقدوه لاختياره العدد سبعة لا أقل ولا أكثر ، فدخل بذلك على العوام وأشباههم وغيرهم وهمٌ بأن هذه القراءات لهؤلاء السبعة هي المقصودة بالحديث الشريف : (أنزل القرآن على سبعة أحرف) ، وانبرى النقاد للوهم وإزالة هذا الوهم من النفوس . وصار بعضهم يزيد في تآليفه على السبعة وينقص حتى قال عبد الرحمن الرازي : «إن الناس إنما ثمّنوا القراءات وعشّروها وزادوا على عدد السبعة الذين اقتصر عليهم ابن مجاهد لأجل هذه الشبهة . . . وإني لم أقتف أثرهم تثميناً في التصنيف أو تعشيراً أو تفريداً إلا لإزالة هذه الشبهة[2] »

الاحتجاج للقراءات :

قدمت كل هذا من تاريخ القراءة والمقرئين[3] لأؤيد ما كنت ذهبت إليه منذ سنين طويلة من أن تأليف المؤلفين القدماء يحتجون للقراءات المتواترة بالنحو وشواهده عكسٌ للوضع الصحيح ، وأن السلامة في المنهج والسداد في المنطق العلمي التاريخي يقضيان بأن يُحتج للنحو ومذاهبه وشواهده بهذه القراءات المتواترة ، لما توفر لها من الضبط

(١) قال مكي بن أبي طالب : «وقد ذكر الأئمة في كتبهم أكثر من سبعين ممن هو أعلى رتبة وأجل قدراً من هؤلاء السبعة ... وقد ترك أبو حاتم وغيره ذكر حمزة والكسائي وابن عامر وزاد نحو عشرين ممن هو فوق هؤلاء .... والكسائي إنما ألحق بالسبعة بالأمس في أيام المأمون وغيره ، وكان السابع يعقوب الحضرمي فأثبت ابن مجاهد في سنة ٣٠٠ أو نحوها الكسائي في موضع يعقوب» النشر ص ٣٦ . قلت : وسترى في أقوال الكسائي التي نقلها مؤلف هذا الكتاب للاحتجاج كثيراً من الوهي وضعف الملكة إذا قسته بأمثاله من المحتجين .

(٢) انظر النشر ص ٤٣

(٣) جعلت الكلام على القراء السبعة فالعشرة فالأربعة عشر مع رواتهم في مدخل بعد التمهيد وقبل الشروع في الكتاب .

والوثوق والدقة والتحرى وهو شىء لم يتوفر بعضه لأوثق شواهد النحو . ولا أفيض هنا فى شرح مذهبى فقد كنت شرحته واستدللت له منذ اثنتين وعشرين سنة فى كتابى (فى أصول النحو)[1] ، ولم أكن بدعاً فى ذلك فقد سبقنى من العلماء الجهابذة ذوى الفكر الحر المستقل عدد استشهدت بأقوال بعضهم .

وأيّ كان فهذا ما وقع ، وعلىّ الإشارة إلى شىء من تأريخ التأليف فى الاحتجاج للقراءات :

بين علوم القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية ترابط محكم ، فهما تتقن من علوم العربية وأنت خاوى الوفاض من علوم القرآن فعلمك بها ناقص واهى الأساس ، وسبب ذلك واضح لكل من ألم بتاريخ العربية : فهو يعلم حق العلم أنها جميعاً نشأت حول القرآن وخدمةً له ، فمتن اللغة اهتم قبل كل شىء بشرح مفردات القرآن ، والنحو والصرف نشآ لعصمة اللسان من الخطأ فى التلاوة أول الأمر ، وعلوم البلاغة همها جلاء روعة البيان القرآنى لأذهان الناس ليتذوقوا حلاوته وتتلقح ملكاتهم بفصاحته .. لذا كان أمراً طبيعياً قيام أئمة القراء بعلوم العربية ، وكان كبارهم أئمة العربية الفحول كأبى عمرو بن العلاء وحمزة الزيات ، ويعقوب الحضرمى وابن محيصن واليزيدى ، وحتى الكسائى فى كوفته على ضعف ملكته .

وكذلك الرواة عنهم . وهذا الإمام ابن مجاهد مسبِّع السبعة يقول : «لا يقوم بالتمام إلا نحوى عالم بالقراءات ، عالم بالتفسير ، عالم بالقصص وتلخيص بعضها من بعض ، عالم باللغة التى نزل بها القرآن » [2] .

فى المئة الثالثة عصر التأليف بالقراءات وماقبلها بقليل كانت قراءات الناس متعددة كثيرة ، وكان كل يفاضل بين القراءة التى تلقاها والقراءات المستفيضة ، وتعددت وجوه المفاضلة من حيث التواتر وعدمه ، ومن حيث جلالة الإمام القارئ وقدمه ، ومن حيث البلدة التى استفاضت القراءة فيها مكية أو مدنية أو بصرية أو كوفية أو شامية ، وكان من جملة ماحكموا فى المفاضلة الوجوه النحوية التى توافقها القراءة أوتقترب منها . وعلم العربية حينذاك متسع منتشر اتساع القراءات وانتشارها.

---

(١) الطبعة الثالثة ص ٣٠ — ٤٥ من بحث الاحتجاج . وقرأت أخيرا للعلامة تونس الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور مايفيد اعتراضه على ذلك التحكيم الخطأ ، فقد قال فى مقـــدمة تفسيره (التحرير والتنوير) بصدد كلامه على القراءات : « وأما ما خالف الوجوه الصحيحة فى العربية ففيه نظر قوى : لأنا لا ثقة لنا بانحصار فصيح كلام العرب فيما صار الى نحاة البصرة والكوفة . وبهذا نبطل كثيرا مما زيفه الزمخشرى من القراءات بعلة أنها جرت على وجوه ضعيفة فى العربية» — ١ — ٥٥ (تفسير التحرير التنوير — سنة ١٩٦٤) .

(٢) الوقف والابتداء لابن الأنبارى ص ٢٥ نشر مجمع دمشق وتحقيق محيى الدين رمضان .

تجد الاستشهاد بالقراءات ولها مالئاً كتاب سيبويه (١٤٨–١٨٠هـ) وتستطيع أن تعد ذلك مذهب أستاذه الخليل إذ كان كثير النقل عنه والتأثر به، ولو وصل إلينا كتب من قبله لرأينا الأمر مقارباً . ومن المحتمل أن يكون ألف فى المئة الثالثة رسائل فى الاحتجاج للقراءات وإن لم يصل إلينا علم شيء منها. حتى إذا أدركنا المئة الرابعة وجدنا ابن النديم ينفى على أن لأبى بكر ابن السراج (– ٣١٦هـ) كتاب (احتجاج القراءة)[1]، وأن للقارىء النحوى أبى طاهر عبد الواحد البزار (– ٣٤٩ هـ)[2] كتاب الفصل بين أبى عمرو والكسائى فيسبق إلى الذهن أنه لا بد أن يستعين فى فصله بينهما بالنحو فإذا بلغ ابن مقسم أحد القراء بمدينة السلام (–٣٦٢هـ) سرد لنا كتبه فى اللغة والنحو والقراءات فكان من بينها (كتاب احتجاج القراءات) وذلك بعد وفاة ابن مجاهد واشتهار تسبيعه . ثم جاء أبو على الفارسى فألف كتابه المشهور (الحجة فى علل القراءات السبع)[3] وهو تلميذ ابن مجاهد وعليه قرأ ، وتلميذ ابن السراج سابقه فى التأليف فى هذا الفن ، وجعل كتابه شرحاً لكتاب القراءات السبع لابن مجاهد على ماقال صاحب كشف الظنون ٢/١٤٤٨

وقد كنت عزمت – لشهرة الكتاب الواسعة – على دراسته ونشره سنة ١٩٤٧ فى إحدى سفراتى إلى مصر ، وعكفت فى دار الكتب على قراءة أجزائه الستة الضخمة ثم عدلت بعزم ، لتطويله الشديد وضعف تأليفه ، ولقد كان ابن جنى منصفاً فى نعته حين قال : « وقد كان شيخنا أبو على عمل كتاب الحجة فأغمضه وأطاله حتى منع كثيراً ممن يدعى العربية – فضلا عن القرأة – منه وأجفاهم عنه» . ولايحظى مطالعة بمادة علمية تعدل ذلك التطويل والاستطراد . وتمنيت لو أن أحداً عرض المادة التى فيه فى جزء لطيف يفى بحاجة أهل العلم وطلابهم ويجنبهم فى الوقت نفسه مكارهه .

فلما كانت سنة ١٩٥٦ فى شهرها العاشر حللت تونس ورأيت ماكنت أبغى فى مخطوطة لكتاب (حجة القراءات) للشيخ أبى زرعة عبد الرحمن ابن زنجلة وأوصيت بعد مطالعتى إياه بتصويره واصطحبت مصوره معى . وأبو زرعة من مخضرى المئتين الثالثة والرابعة. وسيأتى الكلام عليه وعلى كتابه بعد قليل . واطلعت على

(١) ص ٩٢ وبغية الوعاة ص٤٤

(٢) الفهرست ص ٤٩

(٣) صدر من الجزء الأول فى القاهرة (دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بغير تاريخ) .

كتاب (المختار فى معانى قراءات أهل الأمصار) لأبى بكر أحمد بن عبيد الله بن إدريس ، فكان حسن التأليف قريب العبارة ، أداره على معانى مااختلفت فيه القراء الثمانية[1] (السبعة ويعقوب الحضرمى) فى منهج مرضى وصفه بقوله: « اختصرت الترجمة وتنكبت الإطالة ، وملت إلى الإيجاز ، غير مخل بالإفهام و ذكرت [من ذلك ما] يستعين به المتوسط ويتذكر به المتناهى.. »[2]. ورأيت مؤلفه — بعد الإمعان — قد وفى بشرطه .

ويأتى فى المئة الخامسة مكى بن أبى طالب المغربى الأندلسى (٣٥٥–٤٣٧هـ) فى كتابه (الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها) يشرح فيه مختصراً كان ألفه فى المشرق ، وفى إشارته إلى ذلك ووصفه عمله فيه تأريخ لمرحلة هامة من مراحل التصنيف فى هذا الفن ، ورد فعل لعمل أبى على الفارسى الذى طوّل واستطرد وأغمض ،وترك غصة فى قلب مطالعة وحسرة حافزة على استئناف تأليف يقرب الفن إلى القارىء ،ويبعد عنه ما تورط فيه أبو على. وإليك جملاً من مقدمه مكى بعبارته : « كنت قد ألفت بالمشرق كتاباً مختصراً فى القراءات السبع فى سنة ٣٩١ هـ وسميته (كتاب التبصرة) فيما اختلف فيه القراء السبعة المشهورون ، وأضربت فيه عن الحجج والعلل ومقاييس النحو فى القراءات واللغات ،طلباً للتسهيل وحرصاً على التخفيف ، ووعدت فى صدره أنى سأؤلف كتاباً فى علل القراءات التى ذكرتها فى ذلك الكتاب « كتاب التبصرة » أذكر فيه حجج القراءات .. ثم إذا صرنا إلى فرش الحروف ذكرنا كل حرف ومن قرأ به ، وعلته وحجة كل فريق ثم أذكر اختيارى فى كل حرف وأنبه على علة اختيارى لذلك كما فعل مرة تقدمنا من أئمة المقرئين ... وذكرت فى كتاب (التبصرة) أسماء القراء ورواتهم وأسانيدهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ... فهذا الكتاب كتاب فهم وعلم ودراية ، والكتاب الأول كتاب نقل ورواية ».

ولمكى هذا فضل كبير فى توسيع نشر هذا الفن فى الأندلس والمغرب ، وقد شاعت مؤلفاته فيهما . وأسلوبه فى كتابه سؤال جواب ، هكذا اختار لنفسه . وقد وجدت كتاب « المختار » الآنف الذكر أقوى طبعاً من كتاب مكى وأمتن تأليفاً

---

(١) لاتنسى مامر بك حول تقدمهم ابن مجاهد على جعل العدد سبعة .

(٢) الورقة الأولى من مخطوطة مكتبة جاد الله رقم ١٨ ، وهى فى ١٢٤ ورقة كتبت سنة ٥٩٦ هـ

وأرضى طريقة، وهناك كتب أخرى صنفت فى العصر نفسه[1]

وأزمنة تأليف هذه الكتب بدءاً من الفارسى متقاربة ومؤلفوها إلى تحكيم مذاهب النحو فى القراءات أقرب منهم إلى العكس، سمة غلبت على التأليف فى العهد العباسى[2]؛ وبدعة نسج الآخر فيها على منوال الأول، وقد عرفت أن المنهج السليم يقضى بتحكيم القراءات فى مذاهب النحو، وتعديل هذه لتساوق تلك حين يكون بينهما تخالف.

آن بعد هذه الإلمامة بتاريخ التأليف فى الاحتجاج للقراءات أن أقدم مثالا على كلمة مما اختلفوا فيه واحتجوا له، أنتزعه من (حجة القراءات) كتاب أبى زرعة تلميذ ابن فارس وأحد المؤلفين المجودين فى هذا الفن، وقد طال مكثه بين يدى منذصورته من المكتبة العبدلية فى تونس. وعادته أن يبدأ كلامه بقوله: (قرأ فلان وفلان كذا) وحجتهما كذا، وقرأ الباقون (يريد بقية القراء السبعة) كذا وحجتهم كذا؛ فإن كان هناك أكثر من حجة قال: وحجة أخرى .. وعرّج على سرد حججه معتمداً على المعنى حيناً، وعلى ورود الكلمة كذلك فى موضع آخر من القرآن الكريم حيناً آخر، أو على حجة نحوية أو صرفية أو لغوية أو بيت من الشعر أو جملة من حديث أو كلام من يحتج به؛ حتى إذا اكتفى انتقل إلى آية أخرى حتى نهاية السورة. وإليكم ما شرح به قوله تعالى فى سورة يوسف ١٢/١٣: «.. وقالت: هَيْتَ لك»:

(..وقالتْ هيْتَ لك .. — ٢٣)

قرأ أهل العراق: «هيْتَ لك» بفتح الهاء والتاء؛ أى هلمّ وتعال وأقبلْ إلى ما أدعوك إليه. وحجتهم قول الشاعر:

أبلغ أمير المؤمنين
أخا العراق إذا أتيتا

أن العراق وأهله
عُنُقٌ إليك فهيْتَ هيتا[3]

(١) اطلعت أخيراً على كتاب نشر فى بيروت بعنوان (الحجة فى القراءات السبع) ونسب لابن خالويه، فلما تصفحته وجدته يعرض قراءات بقوله: (وقرىء كذا) ولاينسب القراءة إلى إمام غالباً ولايدعمها بسندها، وهذا فى عمدته النقل والسند.

ثم قرأت عنه فى مجلة (اللسان العربى) بحثاً قيماً عنوانه «نسبة الحجة إلى ابن خالويه لاتصح» للأستاذ العلامة محمد العابد الفاسى فند فيه هذه النسبة. وكان محقق الكتاب تقدم به إلى مسابقة المكتب الدائم. فكان تقرير الأستاذ الفاسى هذا عاذراً لعدم قبول اللجنة هذا العمل — (مجلة اللسان العربى: المجلد الثامن ١/٥٢١)

على أنه — ولو صحت النسبة — لايرق هذا الكتاب إلى مستوى الكتب التى ذكرناها لعدم الفائدة من ذكر قراءات غير مسندة. والسند والعز وهما دعامتا الوثوق فى البحوث النقلية.

(٢) باستثناء سيبويه الذى كان يستشهد بها ولها معا.

(٣) فى لسان العرب مادة (هيت) وفى شرح المفصل ٤/٢٣: (سلم) بدل (عنق). يقال: جاء القوم عنقا أى طوائف كل جماعة منهم عنق، يريد أقبلوا إليك بجماعاتهم.

أما (سلم) فمعناها: منقادون إليك. أنشد الفراء محتجا لهذه القراءة (هيت) لشاعر لم يسمه يخاطب على بن أبى طالب — معانى القرآن ٢/٤٠

قال الزجاج : أما فتح التاء فى (هيتَ) فلأنها بمنزلة أصوات ، وليس منها فعل يتصرف ففتحت التاء لسكونها وسكون الياء واختير الفتح لأن قبل التاء ياء كما قالوا: (كيف وأين) .

وقرأ أهل المدينة والشام: «هِيتَ» وهى لغة .

وقرأ ابن كثير : «هَيْتُ» بفتح الهاء وضم التاء، وحجته قول الشاعر :

ليس قومى بالأبعدين إذا ما
قال داعٍ من العشيرة هيتُ
هم يجيبون ذا (هَلُمَّ) سراعاً
كالأبابيل ، لا يغادر بيت[1]

فأما الضم من (هيتُ) فلأنها بمعنى الغايات ، كأنها قالت :(دعائى لك) ، فلما حذفت الإضافة وتضمنت (هيْتَ) معناها بنيت على الضم كما بنيت (حيث) .

وقرأ هشام : «هِيْئتُ» بالهمز من الهيئة كأنها قالت : تهيأت لك .

ويشعر القارىء أن المؤلف متمكن فى فنه تمكنه فى علوم اللغة والأدب ورواية الشعر ، موجز فى عبارته واثق أنه يخاطب محصلاً فى هذا الفن مشاركاً فى بقية الفنون العربية عامة ، ولذلك ترك الإسهاب والتطويل وحتى التقديم للكتاب .

وكان يخلط بين ما نسميه اليوم حركات إعراب وما نسميه حركات بناء؛ فيقول مثلا فى قوله تعالى: «فلا تَحْسَبُنَّهُم » : قرىء برفع الباء ونصبها(بدل قولنا اليوم بضم الباء وفتحها) ، وكذلك قوله : (الجزم) بدل السكون. والظاهر أن هذا كان شأن قوم حتى المئة الخامسة ، أثرا من آثار الكوفيين فى عدم الدقه .

وكثيراً ما يعقب بعد إيراد الحجج بالقاعدة يصوغها فى إيجاز كقوله (٢/ص٨٠) فى صدد الآية «قال تزرعون سبع سنين دأبا» ١٢-٤٧ إنها قرئت بفتح الهمزة وإسكانها :

(كل اسم [ثلاثى] ثانيه حرف من حروف الحلق جاز حركته وإسكانه).

ويغاب إذا كانت الحجة لغيره أن يسميه فى مثل قوله فى الصفحة نفسها : (وحجته ذكرها اليزيدى) ولا نستغرب كثرة تردد اسم اليزيدى وغيره من النحاة القراء ، فكتابنا مظنة وجود ذلك فيه بكثرة[2] .

---

(١) أبابيل : جماعات جماعات . ذا هلم ، أى الذى يناديهم بـ (هلم) مستغيثا .

(٢) ستصدر الجامعة الليبية فى بنغازى هذا الكتاب (حجة القراءات لأبى زرعة) فى مطبوعاتها لعام ١٣٩٤هـ إن شاء الله وهذا البحث من مقدمتى له .

وأكرر التنبيه هنا على أن كلمة الحجة فى هذه المؤلفات لا يراد بها الدليل ، لأن دليل القراءة صحة إسنادها وتواترها ، وإنما يراد بها وجه الاختيار : لماذا اختار القارىء قراءته من بين القراءات الصحيحة المتواترة التى أتقنها؟ يكون هذا الوجه أحيانا تعليلا نحوياً وأحياناً لغوياً

وآونة معنوياً وتارة لأخبار أو أحاديث استأنس بها فى اختياره ...فهى تعليل اختيار لادليل صحة القراءة ، إذ هى صحيحة بنفسها وتواترها لابأسباب اختيار قارىء لها. ولابد من هذا التنبيه لأن عدداً من الباحثين البعيدين عن هذا الفن تورطوا فى مزالق ومزلات حين جهلوا المقصود من هذا المصطلح ، كما انزلق قديما الزمخشرى وهو لايحسن هذا الفن ولامصطلحه ، حين ظن أن القارىء حر فى قراءته أو أنه أسير رسم المصحف العثمانى ، وغاب عنه أن القراءة سنة متبعة .

هذا ،ولابد أيضاً من لفت النظر إلى أن معنى إسناد كل حرف من حروف الاختلاف إلى صاحبه من الصحابة فمن بعدهم هو فى تعبير ابن الجزرى : « أنه كان أضبط له وأكثر قراءة وإقراء به ، وملازمة له وميلا إليه لاغير ذلك .وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراء ورواتهم يراد بها أن ذلك القارىء اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة حسبما قرأ به فآثره على غيره وداوم عليه ،ولزمه حتى اشتهر وعرف به ،وقصد فيه وأخذ عنه ؛ فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء . وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم ، لاإضافة اختراع ورأى واجتهاد »[1]

وتشيع كلمة (الاختيار) فى هذا الضرب من تصانيف المقرئين ، وهذا ابن الجزرى نفسه بعد أن نقل عن البغوى صاحب التفسير وشرح السنة قوله فى أئمة القراءة : « واتفقت كلمة الأمة على اختيارهم [الذين اختاروه] » يعقب بقوله : « وقد ذكرت فى هذا الكتاب (النشر) قراءات من اشتهر منهم بالقراءة واختياراتهم[2]» : وفى ترجمته لأبى عمرو ابن العلاء يروى قول شعبة : «انظر مايقرأ أبو عمرو مما يختار لنفسه فإنه سيصير للناس إسنادا »[3] .

(١) النشر فى القراءات العشر ص ٥١

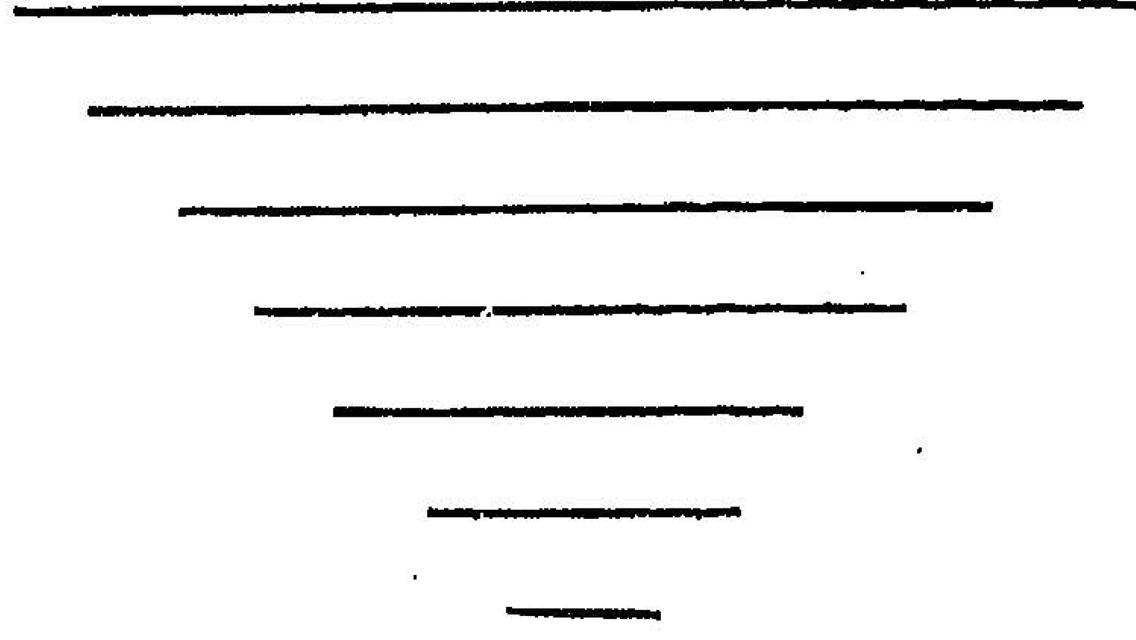
(٢) المصدر السابق ص ٣٧ وينقل عن الدانى فى طبقاته قوله « وائتم بيعقوب فى اختياره عامة البصريين .. الخ» ص ٤٣

(٣) غاية النهاية ٢٩٢/١

وأضيف إلى ذلك بعد الإمعان فى تاريخ الفن وتراجم رجاله أن هذا الاختيار لا يحصل إلا بعد أن يتقن القارىء المختص روايات عدة من القراءات الصحيحة المتواترة عن أئمتها ، فيختار لنفسه من بينها واحدة يثبت عليها وتؤخذ عنه .

إن هذه العناية البالغة فى تحرى القراءات تحمل اللغويين على العض عليها بالنواجذ والاحتجاج بها ، وتحكيمها فى القواعد ؛ إذ أتيح لها من الضبط مالم يتح للشعر ولا للنثر ، ولئن طرح القراء القراءات الشاذة لمخالفتها الرسم العثمانى إن على اللغوى أن يتمسك بها كل التمسك متى صح سندها إلى عربى سليم السليقة فى عصور الاحتجاج .

سعيد الأفغاني
عضو المجمع المراسل
من سورية



المحصول اللفظي لطفل المدرسة الابتدائية

للدكتور فؤاد البهي السيد

ملخص

هذا المقال نتائج البحث التجريبي الذي أجري على ٥٥١ طفلا من اطفال المدرسة الابتدائية بالكويت، وذلك للكشف عن متوسط المحصول اللفظي لكل سنة دراسية. هذا مع العلم بأن المدرسة الابتدائية الكويتية تشتمل على أربع سنوات دراسية.

وسنبين فيما يلي ماذا نعني بالمحصول اللفظي والاختبار الذي استخدم لقياس هذا المحصول وعينة الأطفال التي اجرى عليها الاختبار، والنتائج التي انتهى اليها البحث، كما تتمثل في متوسطات الاجابات الصحيحة، ومتوسطات السرعة الكتابية، وترتيب صعوبة الحروف الهجائية التي تبدأ بها كلمات المحصول اللفظي بالنسبة لسنوات المرحلة الابتدائية.

المحصول اللفظي العام:

المحصول اللفظي العام هو عدد الكلمات العربية التي يستطيع الفرد ان يكتبها كتابة صحيحة في زمن تحدده ظروف التجربة.

ويحسب متوسط المحصول اللفظي العام لأطفال فرقة دراسية ما بقسمة عدد الكلمات الصحيحة التي يكتبها جميع افراد تلك الفرقة على عدد الأفراد.

وبذلك يمكن الكشف عن الخصائص العلمية لنمو المحصول اللفظي من السنة الاولى الابتدائية إلى السنة الثانية الابتدائية إلى نهاية تلك المرحلة. ولاشك أن لتتابع السنوات الدارسية علاقة وثيقة بتتابع العمر الزمني. ولذا تدل تلك النتائج على النمو اللغوى فى الأعمار الزمنية المتتالية للطفل، كما دلت على النمو اللغوى فى السنوات الدراسية المتعاقبة.

المحصول اللفظي النوعي:

يحسب متوسط المحصول اللفظي النوعي الذي تبدا كلماته بحرف هجائي معين لأطفال فرقة دراسية ما، وذلك بقسمة عدد الكلمات الصحيحة التي يكتبها جميع افراد تلك الفرقة والتي تبدا بذلك الحرف، على عدد افراد تلك الفرقة. ويستفاد من هذا المحصول فى الكشف عن أثر الحرف الأول للكلمة العربية فى تحديد مستوى صعوبتها. فالمتوسط الكبير يشير إلى السهولة، والمتوسط الصغير إلى الصعوبة:

وبذلك يمكن الكشف عن الصعوبة النسبية للكلمات العربية ، وذلك تبعا للحرف الهجائى الأول الذى تبدأ به الكلمات المختلفة هذا وقد أكدت الأبحاث العلمية أهمية الحرف الأول فى تحديد مستوى صعوبة الكلمة المكتوبة ، ومدى تغير هذه الصعوبة تبعا لتغير السنة الدراسية من الأولى إلى الثانية إلى نهاية المرحلة .

معدل السرعة الكتابية :

تهدف هذه الدراسة فيما تهدف اليه ، إلى الكشف عن معدل السرعة الكتابية لكل سنة دراسية من سنوات المرحلة الابتدائية .

ونعنى بالسرعة الكتابية متوسط عدد الكلمات الصحيحة والخاطئة التى يكتبها الأفراد فى زمن محدد ، ويحسب هذا المتوسط لأية سنة دراسية ، وذلك بقسمة المجموع الكلى للكلمات الصحيحة والخاطئة التى كتبها أطفال تلك السنة على عدد هؤلاء الأطفال .

هذا ويمكن حساب معدل السرعة الكتابية بالنسبة لأية وحدة زمنية نصطلح عليها مثل الدقيقة أو الثانية .

اختبار المحصول اللفظى :

تعتمد فكرة اختبار المحصول اللفظى لهذه الدراسة على أنه اكثر الاختبارات المعروفة ارتباطا بالقدرة على التحصيل اللغوى ، وهو يعد بحق المقياس العلمى الصحيح للقدرة على الطلاقة اللفظية .

ويتميز هذا الاختبار أيضا بصلاحيته لقياس المحصول اللفظى من السنة الأولى الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية ، ويمكن أيضا أن يمتد إلى ما بعد المرحلة الثانوية — وبذلك يصلح بخواصه تلك لقياس مدى نمو المحصول اللفظى للفرد خلال مراحل تعليمه المتعاقبة ، وخلال مراحل العمر المتتالية .

وسنبين فيما يلى الصفات الرئيسية لهذا الاختبار :

١ — هدف الاختبار : يهدف الاختبار إلى قياس المحصول اللفظى للفرد ، وبما أن هذا المحصول ينمو تبعا للنمو اللغوى ، إذن فهذا الاختبار يكشف عن المستوى اللغوى للفرد .

٢ — طريقة الاجابة : على الفرد أن يكتب جميع الكلمات التى يعرفها وتبدأ بحرف الألف ، ثم يكتب جميع الكلمات التى تبدأ بحرف الباء ، وهكذا تستمر هذه العملية حتى حرف الياء .

٣ — زمن الاختبار : زمن التعليمات ، والتدريب على طريقة الاجابة ١٥ دقيقة . وزمن الاختبار ٢٨ دقيقة ، أى دقيقة واحدة لكل سؤال ، وبذلك يصبح الزمن الكلى للاختبار مساويا لـ ٤٢ دقيقة ، أى ما يقرب من حصة دراسية .

٤ — ثبات الاختبار : ونعنى بالثبات مدى اقتراب نتائج البحث من نفسها ، وذلك إذا أمكن تطبيق الاختبار على نفس مجموعة الأفراد تحت نفس الظروف التجريبية

الأولى . ولهذا الثبات أهميته القصوى فى مدى اعتمادنا على نتائج الاختبار . وكلما اقترب معامل الثبات من الواحد الصحيح ، ازدادت تبعا لذلك نقاوة الاختبار من الأخطاء التجريبية التى تؤثر على نتائجه وتحول بيننا وبين الاعتماد عليه . وقد حسب معامل الثبات (بطريقة التجزئة النصفية) ودلت نتائج هذه العملية على أن معامل الثبات يساوى ٠,٩٤ وهكذا نستطيع ان نستنتج من هذه الحقيقة العلمية أن النتائج الراهنة لاختبار المحصول اللفظى ذات ثبات مرتفع جدا :

عينة الأفراد التى أجرى عليها البحث :

تشتمل عينة البحث على أفراد من تلاميذ المدرسة الابتدائية بالكويت بجميع سنواتها المتعاقبة ، أى من السنة الدراسية الأولى إلى السنه الدراسية الرابعة من كلا الجنسين ، أى البنين والبنات :

وتم اختيار العينة بطريقة طبقية عشوائية ، وهى طبقية بالنسبة للمستويات المتعاقبة المتتالية للسنوات الدراسية ، و عشوائية بالنسبة لاختيار الشعبة الدراسية فى كل من تلك السنوات .

ويدل الجدول رقم (١) على توزيع أفراد عينة البحث بالنسبة للسنوات الدراسية ، وبالنسبة للجنس ذكراً كان أم أنثى .

السنوات الدراسية	المدارس الابتدائية						مجموع البنين والبنات
	البنين			البنات			
	النجاح	العضيلية	المجموع	هدى شعراوى	أبرق خيطان	المجموع	
١	٣٢	٣٥	٦٧	٢٤	٤٠	٧٤	١٤١
٢	٣١	٣٦	٦٧	٤٣	٣٤	٧٧	١٤٤
٣	٣٥	٣٨	٧٣	٣٤	٢٤	٥٨	١٣١
٤	٣٤	٣٦	٧٠	٣٦	٢٩	٦٥	١٣٤
المجموع	١٣٢	١٤٥	٢٧٧	١٤٧	١٢٧	٢٧٤	٥٥١

جدول (١) يبين توزيع عينة البحث

متوسطات الإجابات الصحيحة فى المرحلة الابتدائية :

حسبت متوسطات نتائج الاجابات الصحيحة لجميع السنوات الدراسية للمرحلة الابتدائية ، وذلك بقسمة مجموع درجات تلاميذ السنة الدراسية الواحدة على عدد أفراد الفصول الدراسية لهذه السنة ، سواء أكانوا بنين أم بنات :

ويدل الجدول (٢) على نتائج حساب هذه المتوسطات : وبما أن الاختبار أجرى فى بدء النصف الثانى من العام الدراسى ، اذن فتلاميذ السنة الدراسية الأولى قد مضى عليهم فى المدرسة ٥ و ٠ سنة عند تطبيق الاختبار ، وتلاميذ السنة الدراسية الثانية قد مضى عليهم ٥ و ١ سنة عند تطبيق الاختبار . وهكذا بالنسبة للسنوات الدراسية الأخرى :

السنة الدراسية	متوسط الاجابات الصحيحة	متوسط الكلمات الصحيحة فى الدقيقة الواحدة
س	ص	
٠,٥	٣٥,٢٣	١,٢٦
١,٥	٥٤,٤٤	١,٩٤
٢,٥	٩٦,٢٤	٣,٤٤
٣,٥	١٢٧,٣١	٤,٥٤

جدول (٢) المتوسطات التجريبية للاجابات الصحيحة فى المرحلة الابتدائية

وبذلك نستطيع أن نفسر نتائج هذا الجدول على أن متوسط المحصول اللفظى للتلاميذ الذين قضوا فى المدرسة الابتدائية ٥ و ٠ سنة هو ٢٣ و ٣٥ كلمة عربية صحيحة ، ومتوسط المحصول اللفظى للتلاميذ الذين قضوا فى المدرسة الابتدائية ٥ و ١ سنة هو ٤٤ و ٥٤ كلمة عربية صحيحة ، وهكذا بالنسبة لمتوسطات السنوات الدراسية الأخرى التالية . ونستطيع ايضا أن نرى أن متوسط الكلمات — الصحيحة فى الدقيقة الواحدة هو ٥ و ٠ سنة دراسية ، و ٩٤ و ١ فى ٥ و ١ سنة دراسية ، وهكذا بالنسبة للسنوات الدراسية الأخرى :

فاذا رمزنا للسنوات بالزمن (س) ولمتوسطات الاجابات الصحيحة بالرمز (ص) فاننا نستطيع أن نرصد نتائج هذه التجربة فى رسم بيانى يوضح العلاقة بين (س ، ص) : وبما أن هذه العلاقة تقترب

جدا من الخط المستقيم ، اذن يمكن ان نحسب الخط المستقيم الذى يمثل هذه العلاقة . وقد دلت نتائج هذا التحليل على أن معادلة الخط المستقيم التى تمثل هذه العلاقة هى :

ص = ٨٠ و ٣١ س + ٧١ و ١٤

وهكذا نستطيع — عن طريق هذه المعادلة أن نستنتج متوسطات الاجابات الصحيحة لجميع السنوات الدراسية فى المرحلة الابتدائية كما يدل على ذلك الجدول (٣) . وهكذا نرى إن المتوسط النظرى للاجابات الصحيحة لتلميذ السنة الرابعة الابتدائية هو ٩١ و ١٤١ ، وأن المتوسط النظرى للطفل عند التحاقه بالمدرسة الابتدائية هو ٧١ و ١٤ كلمة ، وهكذا بالنسبة للسنوات المختلفة ؛ وأن متوسط الكلمات الصحيحة فى الدقيقة يساوى ٦٦ و ١ فى ٥ و ٠ سنة دراسية ، ويساوى ٠٩ و ١ فى السنة الأولى الدراسية ، وهكذا بالنسبة للسنوات الأخرى .

السنة الدراسية	متوسط الاجابات الصحيحة	متوسط الكلمات الصحيحة فى الدقيقة الواحدة
س	ص	
صفر	١٤,٧١	٠,٥٣
٠,٥	٣٠,٦١	١,٠٩
١,٠	٤٦,٥١	١,٦٦
١,٥	٦٢,٤١	٢,٢٣
٢,٠	٧٧,٣١	٢,٧٦
٢,٥	٩٤,٢١	٣,٣٦
٣,٠	١١٠,١١	٣,٩٣
٣,٥	١٢٦,٠١	٤, ٩
٤,٠	١٤١,٩١	٠,٠٧

جدول (٣) المتوسطات النظرية للاجابات الصحيحة فى المرحلة لابتدائية

متوسطات السرعة الكتابية فى المرحلة الابتدائية :

حسبت متوسطات السرعة الكتابية لجميع السنوات الدراسية لمرحلة التعليم الابتدائى ، وذلك بقسمة المجموع الكلى للكلمات المحصول واللفظى الصحيحة والخاطئة لكل سنة دراسية على عدد تلاميذ تلك السنة كما يدل على ذلك الجدول (٤)، وهكذا نرى أن متوسط

السرعة الكتابية للنصف الأول من السنة الأولى الدراسية هو ٥١,٢١ كلمة ، وأن معدل السرعة الكتابية فى الدقيقة الواحدة هو ١٨٣ كلمة، وهكذا بالنسبة للسنوات الدراسية التالية حتى نصل إلى أن متوسط السرعة الكتابية للسنة الدراسية ٣,٥ تساوى ١٦٢,٥٣ كلمة ، ومعدل السرعة الكتابية لهذه السنة الدراسية هو ٥,٨٠.

السنوات الدراسية	متوسط السرعة الكتابية	معدل السرعة الكتابية فى الدقيقة الواحدة
س	ص	
٠,٥	٥١,٢١	١,٨٣
١,٥	١٠٠,٥٤	٣,٥٩
٢,٥	١٣٩,٤٥	٤,٩٨
٣,٥	١٦٢,٥٣	٥,٨٠

جدول (٤) متوسطات ومعدلات السرعة الكتابية فى المرحلة الابتدائية

هذا وعندما رصدنا هذه النتائج فى رسم بيانى يوضح العلاقة بين (س ، ص) ظهر أن هذه العلاقات تقترب جدا من الخط المستقيم ، ولذلك فقد حسبت معادلة هذا الخط وقد دلت نتائج هذا التحليل على أن معادلة الخط المستقيم هى :

ص = ٣٧,٢٩ + ٣٨,٨٥

وهكذا نستطيع عن طريق هذه المعادلة ، أن نحسب متوسطات السرعة لجميع السنوات الدراسية للمرحلة الابتدائية كما يدل على ذلك الجدول (٥) حيث نرى أن متوسط السرعة الكتابية يساوى ٥٠ و ٥٧ فى السنة الدراسية ٠,٥ ، وأن معدل السرعة الكتابية فى الدقيقة الواحدة هو ٢,٠٥ كلمة لنفس هذه السنة الدراسية ، وهكذا بالنسبة لبقية السنوات الدراسية للمرحلة الابتدائية.

حسبت متوسطات السرعة الكتابية لجميع مستويات مرحلة مكافحة الأمية بنفس الطريقة التى حسبت بها هذه السرعة لمرحلة التعليم الابتدائى .

تحليل نتائج الصعوبة للكلمات الصحيحة :

حسبت متوسطات الكلمات الصحيحة لكل حرف هجائى تبدأ به كل كلمة كتبها التلاميذ، ثم رتبت هذه الكلمات بالنسبة لحرفها الأول ترتيبا تنازليا تبعا لسهولتها ،

وتصاعديا وفقا لصعوبتها ، واصطلح على والرقم (٢٨) يدل على أصعب كلمة ، كما أن الرقم (١) يدل على اسهل كلمة ، يوضح ذلك الجدول رقم (٦) :

السنة الدراسية	متوسط السرعة الكتابية	معدل السرعة الكتابية فى الدقيقة الواحدة
س	ص	
صفر	٣٨,٨٥	١,٣٩
٠,٥	٥٧,٥٠	٢,٠٥
١,٠	٧٦,١٤	٢,٧٢
١,٥	٩٤,٧٩	٣,٣٨
٢,٠	١١٣,٤٣	٤,٠٥
٢,٥	١٣٢,٠٨	٤,٧٢
٣,٠	١٥٠,٧٢	٥,٣٧
٣,٥	١٦٩,٣٧	٦,٠٥
٤,٠	١٨٨,٠١	٦,١٢

جدول (٥) متوسطات ومعدلات السرعة الكتابية فى المرحلة الابتدائية كما تدل عليها معادلة الخط المستقيم

الحروف الهجائية	ترتيب الصعوبة فى سنوات المرحلة الابتدائية					الترتيب النسبي للصعوبة من السهل الى الصعب
	١	٢	٣	٤	المتوسط	
أ	١	١٨	١٤	٦	٩,٧٥	١٠
ب	٥	١٢	٢٣	٢٢	١٥,٥٠	١٦
ت	١٩	٢٣	٢٠	١٢	١٨,٥٠	١٩
ث	٢٤	٢٥	٢٦	٢٤	٢٤,٧٥	٢٥
ج	١٤	٥	٥	٨	٨,٠٠	٧
ح	٢	١٠	١٠	٧	٧,٢٥	٥
خ	٢	١٥	١٩	٢	١٨,٥٠	١٩
د	٦	٧	١٢	١٧	١٠,٥٠	١١
ذ	٢٣	٢٤	٢٧	٢٧	٢٥,٢٥	٢٦
ر	١١	١٤	١٧	١٦	١٤,٥٠	١٤
ز	٢٧	١٩	٢١	١٩	٢١, ٥	٢٤
س	٢١	١	٦	١	٧,٢٥	٥
ش	١٥	٦	٩	٥	٨,٧٥	٨
ص	٢٦	١٣	١٨	١٣	١٧,٢٥	١٨
ض	٢٨	٢٧	٢٥	٢٣	٢٥,٧٥	٢٧
ط	٢١	١٦	١٥	١٤	١٦,٥٠	١٧
ظ	٢٥	٢٨	٢٨	٢٨	٢٧,٢٥	٢٨
ع	١٠	٨	٢	٣	٥,٧٥	٤
غ	١٦	٢٢	١٦	٢١	١٨,٨٥	٢١
ف	١٢	٨	٧	٩	٩,٠٠	٩
ق	٤	٢	١	١٥	٥,٥٠	٣
ك	٩	١٧	٨	١٨	١٣,٠٠	١٢
ل	١٣	٢١	٢٢	٢٥	٢٠,٢٥	٢٢
م	٣	٤	٤	٤	٢,٧٥	١
ن	٧	٢	٣	٢	٣,٧٥	١
هـ	١٧	١١	١٣	١١	١٣,٠٠	١٢
و	٨	٢٦	٢٤	٢٦	٢١,٠٠	٢٣
ى	١٨	٢٠	١١	١٠	١٤,٧٥	١٥

جدول رقم (٦) ترتيب الكلمات الصحيحة تبعا لزيادة صعوبتها وذلك بالنسبة للحرف الهجائى الاول فى الكلمة

وهكذا نرى أن أسهل خمسة حروف تبدأ بها الكلمات فى المرحلة الابتدائية هى كما يلى مرتبة من السهل إلى الصعب :

م — ن — ق — ع — س —

وأصعب خمسة حروف تبدأ بها الكلمات هى كما يلى مرتبة من الصعب إلى السهل :

ظ — ض — ذ — ث — ز —

رعاية المحصول اللفظى للطفل :

تتطلب عملية الرعاية معرفة المستوى الواقعى للمحصول اللفظى والمستوى المتوقع ثم تنمية المستوى الواقعى حتى يصل إلى المستوى المتوقع :

ويقاس المستوى الواقعى للمحصول اللفظى العام والفرعى ، باختبار المحصول اللفظى ، ولا يتطلب هذا الاختبار من الطفل اكثر من أن يكتب جميع الكلمات التى يعرفها ، وتبدأ بحرف معين من حروف الهجاء فى مدى زمنى يساوى تماما دقيقة واحدة ، وهكذا بالنسبة لبقية الحروف الأخرى ، ويمكن معرفة عدد الكلمات التى يعرفها الطفل والتى يكتبها فى ٢٨ دقيقة :

ويقاس المستوى المتوقع للمحصول اللفظى العام والنوعى باختبار المحصول اللفظى وذلك عن طريق تطبيقه على تلاميذ السنة الدراسية التى ينتمى لها الطفل ، ثم حساب متوسط إجابة تلاميذ هذه السنة ، ومقارنة المحصول اللفظى للطفل بمستوى المحصول اللفظى لفرقته الدراسية .

وبذلك يمكن معرفة مستوى الطفل بالنسبة لمستوى فرقته .

ومستوى الطفل إما أن يكون أقل من مستوى فرقته فيحتاج عندئذ إلى تدريب وقراءة حتى يصل إلى مستوى فرقته :

وإما أن يساوى مستوى فرقته أو يزيد عليه ، وبذلك يستقيم محصوله اللفظى ولا يشير إلى التخلف الذى نخشاه .

والقراءة خير علاج لتخلف مستوى المحصول اللفظى عن المستوى العادى .

ويمكن أن يقاس المحصول اللفظى على فترات متعاقبة ، وتقارن نتيجة كل قياس بالتى تسبقها حتى يعرف الأثر النسبى للبرنامج القرائى المتبع فى زيادة ذلك المحصول .

وللمحصول اللفظى أهميته القصوى فى القدرة على التعبير ، والقدرة على معرفة المادة القرائية .

الدكتور فؤاد البهى السيد

الصّغانى

للدكتور حسين على محفوظ

٥٧٧ — ٦٥٠ هـ

اسمه ونسبه ولقبه :

هو ، رضى الدين أبو الفضائل الحسن ابن أبى السعادات محمد بن أبى الفضل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن على بن إسماعيل ، العمرى ، العدوى ، القرشى ، اللاهورى ، الصغانى ، اللغوى القرشى ، اللاهورى ، الصغانى ، اللغوى الأديب، المحدث ، النحوى الفقيه ، الحنفى.

ولادته ووفاته وقبره :

ولد فى لاهور، يوم الخميس ١٠ من صفر سنة ٥٧٧ هـ = ٢٥ من حزيران سنة ١١٨١م، وتوفى — فجأة — ببغداد ، ليلة الجمعة ١٩ من شعبان ، سنه ٦٥٠ هـ = ٢٥ من تشرين الأول سنة ١٢٥٢ م ، عن ٧٣ سنة .

وتولى أصحاب الوزير ابن العلقمى تجهيزه ودفنه .. فقبر فى داره بالحريم الطاهرى فى الجانب الغربى .

ثم نقل إلى مكة ، ودفن جوار الفضل ابن عياض ، كما أوصى .

مجمل سيرته :

نشأ بغزنة ، ورحل فى طلب الحديث والعلم ، ودخل اليمن ، وورد إلى عدن سنة ٦١٠ هـ ، وحج ، وجاور مكة ، وكان بها ستة ٦٢٣ . وقدم بغداد سنة ٦١٥ ، وبعثه الخليفة الناصر رسولا إلى ملك الهند ، سنة ٦١٧ هـ . ورجع منها سنة ٦٢٤ ، وعاد إلى بغداد — بعد مدة طويلة وأرسله المستنصر بالله — أيضا — إلى ملكة الهند . ثم رجع إلى بغداد سنة ٦٣٧ هـ .

سمع بمكه ، وعدن ، والهند، وبغداد، وقرأ الناس عليه ، وانتفعوا بعلمه الجم .

وجعله المستنصر شيخ رباط المرزبانية الذى بناه الخليفة الناصر لأهل النصوص فى قرية المرزبانية على نهر عيسى ، بالجانب الغربى . كما كان مدرس المدرسة التتشية الحنفية ببغداد .

وقربه الوزير مؤيد الدين ابن العلقمى، واختصه لتعليم ولده عز الدين محمد . وألحقه قاضى القضاة أعز الدين أبو العباس أحمد بن محمود الزنجانى بالمعدلين .

أساتذته وشيوخه :

لاقى الصغانى أفاضل الشيوخ ، ومنهم :

١ ـ أبو الفتوح بن الحصرى ، بمكة .

٢ ـ سعيد بن الرزاز ، ببغداد

٣ ـ القاضى سعد الدين خلف بن محمد ، الحسنابادى .

٤ ـ والده : أبو السعادات محمد بن أبى الفضل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن على بن إسماعيل القرشى ، بلاهور .

٥ ـ النظام محمد بن الحسن ، المرغينانى .

تلاميذه والرواة عنه :

قرأ الناس عليه ببغداد ـ وانتفعوا به وكان يقرأ عليه ـ بعدن ـ كتاب « معالم السنن » للخطابى .

وقد قرأ عليه ، وسمع منه ، وروى عنه ، جماعة من الأفاضل والأعيان ، منهم :

١ ـ السيد ، جمال الدين ، أبو الفضائل أحمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس ، الحسينى ، المتوفى سنة ٦٧٣ هـ أجاز له جميع مسموعاته ومؤلفاته ومنشآته .

٢ ـ أبو العز ، أسد البغدادى بن إسكندر بن محمد بن نصر بن محمود ، الشروانى .

٣ ـ العلامة الحلى ، جمال الدين ، أبو منصور ، الحسن بن يوسف بن المطهر ، الحلى ، المتوفى سنة ٧٢٦ هـ . روى عنه كتاب « التكملة والذيل والصلة » . وإليه ينتهى سند الفيروزابادى ـ صاحب القاموس المحيط ـ فى رواية هذا الكتاب . ولاريب أنه أجاز له فى طفولته .

٤ ـ قاضى القضاة ، تقى الدين ، أبو الفضل ، سليمان بن حمزة ، المقدسى :

٥ ـ محيي الدين ، أبو التقى ، صالح بن عبد الله بن جعفر بن على بن صالح ، الأسدى ، الكوفى ، الفقيه ، النحوى ، المعروف بابن الصباغ . روى عنه إجازة ٦٥٠ هـ .

٦ ـ موفق الدين ، أبو محمد ، عبد القاهر بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الفوطى ، البغدادى ، الأديب ، المقتول ـ فى واقعة التتار ـ سنة ٦٥٦ هـ . قرأ عليه الأدب .

٧ ـ السيد ، غياث الدين ، أبو المظفر عبد الكريم بن أحمد بن موسى بن جعفر ابن محمد بن طاووس ، الحسنى ، المتوفى سنة ٦٩٣ هـ . أجاز له ـ طفلا ـ جميع مسموعاته ومؤلفاته ومنشآته ـ فى إجازة أبيه السيد جمال الدين بن طاووس .

٨ ـ الحافظ ، شرف الدين ، أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن بن شرف ابن الخضر بن موسى ، الدمياطى ، الشافعى المتوفى سنة ٧٠٥ هـ . سمع منه ببغداد .

٩ – العلامة ، كمال الدين ، أبو الحسن ، علي بن محمد بن محمد بن محمد بن وضاح أبن أسعد محمد بن وضاح ، الشهرابانى الحنبلى ، الفقيه ، النحوى ، الكاتب ، نزيل بغداد ، المتوفى سنة ٦٧٣ هـ .

١٠ – ابنه ، الضياء ، أبو البركات ، محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن على بن إسماعيل ، الصغانى . قرأ عليه كتاب « العباب » سنة ٦٤٩هـ .

١١ – الوزير عز الدين أبو الفضل ، محمد بن الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد ، ابن العلقمى ، الأسدى : قرأ عليه أكثر دواوين العرب . وكان الصغانى يتردد إلى دار والده الوزير يعلمه .

١٢ – الشيخ برهان الدين ، محمود ابن أبي الخير أسعد ، البلخى ، شارح كتاب « آثار النيرين فى اخبار الصحيحين » فى الحديث .

١٣ – نظام الدين محمود بن عمر ، الهروى .

آثاره :

عددت المصادر تآليفه . وقد بلغت ٩٠ كتاباً ورسالة ، كل الظن أنها نحو ٥٠ زادت بالتصحيف ، والتحريف ، والتغيير ، والتكرير .

وهذه أسماؤها مجموعة ، كما جاءت فى مختلف كتب التراجم :

١ – الأثر .

٢ – الأحكام ، فى فقه الحنفية .

٣ – أسامى شيوخ البخارى .

٤ – الأسماء .

٥ – أسماء الأسد .

٦ – أسماء الدين .

٧ – أسماء الذئب وكناه .

٨ – أسماء السعادة .

٩ – أسماء العادة .

١٠ – أسماء الغادة فى أسماء العادة .

١١ – أسماء الغارة .

١٢ – أسماء الفارة .

١٣ – أسماء القارة .

١٤ – أفعل فعلان .

١٥ – بغية الصديان .

١٦ – بقعة الصديان

١٧ – بيان الأحاديث الموضوعة .

١٨ – التذكرة الفاخرة .

١٩ – تعزيز بيتى الحريرى .

٢٠ – تقرير منتهى الحريرى .

٢١ – تكملة العزيزى ، فى الأدب .

٢٢ – التكملة على الصحاح ، فى ٦ مجلدات كبار . ذكر فيها ما فات الجوهرى من اللغة . وهى أكبر حجماً من الصحاح .

٢٣ – التكملة والذيل والصلة .

٢٤ – توشيح الدريدية .

٢٥ — حاشية ذيل الصحاح فى اللغة من تأليفه المسمى بالتكملة وصلته .أفردها تسهيلا على الطالب وتيسيراً على الراغب .

٢٦ — درّ السحابة فى بيان مواضع وفيات الصحابة .

٢٧ — درّ السحابة فى معرفة صفات الصحابة .

٢٨ — در السحابة فى وفيات الصحابة.

٢٩ — الدر الملتقط فى تبيين الغلط. ذكر فيه مافى كتابى الشهاب والنجم ، من الموضوع .

٣٠ — الدرر الملتقطة ، فى بيان الأحاديث الموضوعة .

٣١ — ذيل العزيزى .

٣٢ — رسالة فى الأحاديث الموضوعات .

٣٣ — رسالة فى الأحاديث الموضوعة .

٣٤ — رسالة أخرى فى الأحاديث الموضوعة.

٣٥ — رسالة فى الأحاديث الواردة فى صدر التفاسير ، فى فضائل القرآن ، وغيرها.

٣٦ — رسالة فى الموضوعات من الأحاديث.

٣٧ — شرح أبيات المفصل .

٣٨ — شرح الأخبار المولوية والآثار المرضية.

٣٩ — شرح أسباب المفصل .

٤٠ — شرح القلادة السمطية فى توشيح المقصورة الدريدنه .

٤١ — شرح مقصورة ابن دريد .

٤٢ — الشمس المنيرة من الصحاح المأثورة فى الحديث .

٤٣ — الشوارد فى اللغات .

٤٤ — ضوء الشهاب ؛ للقضاعى .

٤٥ — العباب الزاهر واللباب الفاخر .

٤٦ — القلائد السمطية فى توشيح الدريدية.

٤٧ — القلائد السمطية فى شرح الدريدية.

٤٨ — كتاب الأسفار .

٤٩ — كتاب الأسماء .

٥٠ — كتاب الأصفاد .

٥١ — كتاب الأصفار .

٥٢ — كتاب الأضداد .

٥٣ — كتاب الافتعال .

٥٤ — كتاب افتعل .

٥٥ — كتاب الأفعال .

٥٦ — كتاب الانفعال .

٥٧ — كتاب انفعل .

٥٨ — كتاب التراكيب .

٥٩ — كتاب خلق الإنسان .

٦٠ — كتاب السالكين .

٦١ — كتاب السحابة فى وفيات الصحابة.

٦٢ — كتاب الضعفاء .

٦٣ — كتاب العادات .

٦٤ — كتاب العروض .

٦٥ — كتاب الفرائض .

٦٦ — كتاب فَعّال ؛ على وزن خَذّامِ وقَطّامِ ، فيما بنته العرب على لفظ فَعّالِ على حروف المعجم .

٦٧ — كتاب فعلان ؛ على وزن سيان.

٦٨ — كتاب فعول .

٦٩ — كتاب فى التصريف .

٧٠ — كتاب فى علم الحديث .

٧١ — كتاب فى نوادر اللغة .

٧٢ — كتاب المفعول .

٧٣ — كتاب يفعول .

٧٤ — كشف الحجاب عن أحاديث الشهاب .

٧٥ — ما أهمله الجوهرى من لغة .

٧٦ — ما تفرد به بعض أئمة اللغة .

٧٧ — مجمع البحرين فى الجمع بين أحاديث الصحيحين ؛ فى الحديث .

٧٨ — مجمع البحرين فى اللغة ، فى ١٢ مجلداً .

٧٩ — مختصر العروض .

٨٠ — مختصر الوفيات .

٨١ — مشارق الأنوار الجمع بين الصحيحين .

٨٢ — مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية .

٨٣ — مصباح الدجى فى حديث المصطفى .

٨٤ — مصباح الدجى فى صحاح حديث المصطفى .

٨٥ — مصباح الدعاء .

٨٦ — مصباح الدياجى .

٨٧ — مناسك الحج .

٨٨ — نظم عدد آى القرآن .

٨٩ — نقعة الصديان فيما جاء على وزن فعلان .

٩٠ — النكت الأدبية .

مكانة كتبه :

يعد الصغانى من أئمة اللغة ، ومن أعلام المصنفين فى فنونها ، عد عن آثاره الأخرى فى علوم الحديث ، والقرآن ، والأدب والعروض ، والتصريف ، والفرائض ، والفقه ، والتاريخ .

ومعجماه الكبيران «التكملة» ، و«العباب» هما خير ما ترك فى اللغة من آثار .

أما كتاب «التكملة والذيل والصلة» ، فقد ألفه فى ست مجلدات — بعد أن بلغ الكبر ، وبعد أن أحاط بما جمع من كتب اللغة — وقد جمع فيه ما أهمله الجوهرى فى كتابه «الصحاح» ، وذيل عليه.

واستخرج لغاته من أصول أربت على ألف مصدر ؛ من كتب اللغة ، والنحو وغرائب الحديث ، ودواوين الشعراء ، وأراجيز الرجاز ، والكتب المصنفة فى المذكر والمؤنث ، والآباء والأمهات والبنين والبنات ، والأضداد والنبات والأشجار

وما اتفق لفظه وافترق معناه ، وما صنف فى أسامى الجبال والمواضع والبقاع والأصقاع . وقد أحصى فيه ٩٨ كتاباً من أمهات المراجع فى الأدب واللغة والشعر ، حفظ أسماءها ، ونسبها إلى مؤلفيها ؛ مما يفيد فى الفهرسة ، وتاريخ الثقافه ، وتدوين التراث . وفى التكملة هذه — من مادة تلك الكتب التى ضاع كثير منها — ما قد يسلينا من الهم والحزن على ضياع مافقد من ذخائرها.

وأما كتاب «العباب الزاخر واللباب الفاخر» فقد ألفه للوزير الفاضل ابن العلقمى؛ إذا أوعز إليه أن يؤلف كتاباً فى لغة العرب؛ يكون جامعا لشتاتها وشواردها ، حاوياً مشاهير لغاتها وأوابدها ، مشتملا على كل التراكيب المستعملة . فقد جمع فيه ما تفرق فى كتب اللغة المشهورة ، وما بلغه مما جمعه علماء اللغة ، والقدماء الذين شافهوا العرب وساكنوهم وسايروهم ، ومن بعدهم ممن أدرك زمانهم .

وقد أتى فيه على عامة ما نطقت به العرب من المستعمل والنادر ، مستشهداً على صحة ذلك بالآيات ، والأحاديث ، والأشعار والأمثال.

وذكر أسامى خيل العرب ، وفرسانها ، وشعرائها وبقاعها ، وأصقاعها ، وبرقها ، وداراتها .

وقد أتى بالأشعار معزوة إلى قائلها بعد أن راجع دواوينهم ، واعتام أصحّ الروايات واختار أقوال الثقات .

والكتاب فى ٢٠ مجلداً ، وصل فيها إلى مادة «بكم» . وقد صدره بفصلين :

الفصل الأول — فى أسامى جماعة من أهل اللغة .

والفصل الثانى : فى أسامى كتب حوى معجمه لغاتها .

وقد أحصى فى مقدمته ١٠١ كتاب من أمهات المراجع ، حفظ — أيضا — أسماءها ونص على نسبتها إلى مصنفيها . وتعد هذه المدونة القيمة — على اقتضابها — من فهارس التراث المفيدة ، التى تؤرخ الآثار الباقية فى زمانه مما ضاع بعضه ، عدّ عما أحاط به العباب من مادتها اللغوية والأدبية التى فقدت المكتبة العربية نفائس أصولها .

مراجع الترجمة :

١ — إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .

٢ — الأعلام .

٣ — إيضاح المكنون .

٤ — بروكلمن .

٥ — بغيه الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة .

٦ — تاج التراجم فى طبقات الحنفية .

٧ — تاج العروس .

٨ — تاريخ آداب اللغة العربية .

٩ — تكملة بروكلمن .

١٠ — تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب .

١١ — الجاسوس على القاموس .

١٢ — الجواهر المضية فى طبقات الحنفية .

١٣ — الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة .

١٤ — دول الإسلام .

١٥ — رجال السند والهند فى القرن السابع .

١٦ — روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات .

١٧ — ريحانة الأدب فى تراجم المعروفين بالكنية أو اللقب .

١٨ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .

١٩ — فوات الوفيات .

٢٠ — قاموس الأعلام .

٢١ — القاموس المحيط .

٢٢ — كشف الظنون .

٢٣ — الكنى والألقاب .

٢٤ — مجلة ثقافة الهند .

٢٥ — مجلة العربى .

٢٦ — مجلة المجمع العلمى العربى .

٢٧ — مرآة الجنان وعبرة اليقظان .

٢٨ — المزهر .

٢٩ — معجم الأدباء .

٣٠ — معجم المؤلفين .

٣١ — مفتاح السعادة ومصباح السيادة .

٣٢ — مقدمة التكملة والذيل والصلة .

٣٣ — منتخب المختار .

٣٤ — نامة دانشوران ناصرى .

٣٥ — نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر .

٣٦ — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .

٣٧ — هدية الأحباب فى ذكر المعروفين بالكنى والألقاب والأنساب .

٣٨ — هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين .

٣٩ — الوافى بالوفيات .

حسين على محفوظ

عضو المجمع المراسل من العراق

سيبويه

إمام النحو وأدبه

للأستاذ علي أصغر حكمت

تصادف تصادف هذه السنة (١٣٩٤هـ ق = ١٣٥٣ هـ ش) الذكرى المائة الثانية عشرة لذكرى أحد أئمة الأدب وأساطين النحو العربي، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسيبويه، وبمناسبة إقامة مهرجان تخليداً لذكرى هذا العبقري الفارسي من قبل جامعة پهلوى بشيراز قمت أبحث بعد سبر أحواله ودراسة أخباره عن مادة تاريخية لعام وفاته، كما هو المتداول والمتعارف في أوساط الأدباء.

وبعد ذلك وجدت أن جملة (إمام النحو وأدبه) التي يستخرج منها بحساب الجُمَّل الرقم (١٩٥) مناسبة لسنة وفاة عالمنا الجليل[1]. وبما أن وفاته كانت عام (١٩٤هـ ق) على أصح الأقوال فإننا نطرح رقما واحداً من الجمع فيحصل لدينا عام (١٩٤هـ ق) وقد أحسست بشوق إلى نظمها في صورة قطعة شعرية أقدمها لأعتاب العلماء والأدباء.

فنظمت هذه القطعة المتضمنة للخطوط العريضة لحياة عالمنا الإمام النحوي والأديب الأريب ومنزلته العلمية العظيمة، وهذه ترجمتها باللغة العربية:

(سيبويه إمام النحو وأدبه)

كان كالتفاح عمرو بن عثمان
فلا مندوحة إذاً أن يلقب بسيبويه
قد عاش منذ اثنى عشر قرنـــــا
وكان عصره هو العصر الذهبي
مولده ببيضاء في فارس
وورث عن إيران أصله ونسبه
أصبحت البصرة من بدء نشأته (تربيته)
مدرسة علم، وما أروعها من مدرسة
كتابه «الكتاب» خزانة أدب
وقد شمخت صروح اللغة العربية به
أستاذه الخليل بن أحمد
فلا تعجب إن وجه أعذب المديح إليه
وإن الأخفشين الكبير والصغير
يقفان متأدبين بجواره
وكأن الكسائي على أعتــــابه
تلثم شفتاه أعتابه بأدب
كلامه كأعطاف الورد
وحديث سواه كالشوك والخشب

---

(١) حسن فسائي ذكر تاريخ وفاة سيبويه في كتابه الكبير، فارسنامه ١٩٥ هـ، ج ١ ص ١٣ طبعة طهران.

ناهز الأربعين من عمره
تلألأ كوكبا ساطعا فى سماء الأدب
إذا قصدت مرقده كما تقصد الكعبة
فاطلبه فى شيراز عند الحجر الأسود
طلبت يوماً من الله تعالـى
مدداً ، لتاريخ وفـاته
فخرج علىّ من الجمع واحد
يقول لى بالشعر أرّخ «إمام النحو وأدبه»
أربع وتسعون ومائة
عام وفاته إن أردت معرفته

نظم «حكمت » هذه القطعة تكريما وتعظيما له،فأتت أحلى من السكر والرطب.

طهران ١٧ صفر ١٣٩٤

ولما كانت الإشارات الورادة فى هذه القطعة تعوزها بعض التنبيهات فإننى أشير إليها وأشرحها خلال هذه المقالة .

(١)

إن جل المؤرخين فسّروا إسم الإمام (سيبويه) الفارسى ب(رائحة التفاح) وبعضهم زعموا أن خدّيه كانتا تشبهان التفاح فى النضارة والجمال .[١]

ورأيى أنا أن كلمة « سيب » وحدها كانت اسما له بالفارسية ، لأن سكان فارس (جنوب إيران) فى لهجتهم الدارجة ينطقون الأعلام بصورة عامة بإشباع الضمة على شكل واو مضمومة ،فأخذوا يدعونه فى بلده ب « سيبُو » ومن ناحية أخرى فإن مثل هذه الأسماء الأعلام حينما تعرب يضاف إليها حرفا « الياء والهاء » ويفتحان عند النطق.

وهذه التسمية العربية لم تكن منحصرة فى الأسماء الفارسية فحسب ،بل إن إلحاق « ويه » كانت متداولة فى العالم العربى أيضاً مثل ، نفطويه وخالويه وقولويه ، وغيرها من الأعلام المعروفة .

ومن هذا القبيل إلحاق « ويه » بالأعلام الفارسية؛فهو ما زال موجودا ومستعملا حتى اليوم فى جنوب إيران ، والكل ينطقونها بلهجتهم الدارجة بإشباع الضمة بدون تلك اللاحقة ، وقد حفظت لنا السجلات القديمة كلمة « ويه » فى مثل الكلمات : « كوه كيلو » المنطقة المعروفة ، وتعريبها« كوه كيلويه » وقرية « مهارلو » المعربة فى المخطوطات القديمة ب « مهارلويه » (وهى قرية على بعد أربعين كيلو مترا فى الناحية الشرقية من شيراز (وكذلك ميناء « عسلو ») التى جاءت فى المخطوطات الرسمية «عسلويه». وهكذا لقب الأمير علاء الدولة الديلمى بالفارسية « كاكو » =خال » وعربت

---

(١) مقدمة « الكتاب » طبعة بيروت ١٣٨٧ هـ . ق.شد الإزار فى حط الأوزار عن زوروا المزار . « أبو القاسم جنيد شيرازى (قرن ٧) ص ٩٦ ط طهران ١٣٢٨ هـ.ش وفيات الأعيان ، ابن خلكان .

هذه الكلمة بـ « كاكويه » . والسلالة التاريخية لملوك الديالمة الذين اشتهروا بأسرة « بويه » (بفتح الواو ، باللغة العربية ، والأصح سكونها) .

(٢)

كما أسلفنا ، أن ميلاد عمرو بن عثمان ؛ سيبويه وحياته ونشأته كانت فى القرن الثانى للهجرة ، وأن عمره كله انقضى فى هذا القرن . ولاشك أن القرن الثانى ليعتبر فى تاريخ إيران الإسلامى قرناً مباركاً وكان يعد القرن الذهبى للثقافة الإيرانية الإسلامية ، حيث تمكن الإيرانيون بقوة ذكائهم وأصالة ثقافتهم ، وبلوغهم الذاتى ، أن يتملكوا الزعامة الفكرية والمادية فى مجالات العلم والفن والسياسة فى منطقة الشرق الأوسط . وأصبحت الشريعة الإسلاميـــة تنتشر انتشاراً منقطع النظير فى الأقاليم والأوساط الإيرانية ، وترعى تحت ظلالها المذهب الجعفرى . وبذلك أصبحت لغة الإيرانيين مزيجاً من اللغة العربية الحجازية ومن الفارسية الفهلوية . ومن مميزات هذا القرن أيضاً ، ظهور أبى مسلم الخراسانى (المقتول ١٣٧ هـ) وثورته القاضية على الحكم الأموى الغاصب وإرساؤه قواعد الخلافة العباسية (١٣٢ هـ مقتل مروان الأموى) .

ففى أواخر هذا القرن أيضاً قضى الأمير الطاهر ذو اليمينين (قيل إنه من أحفاد بهرام جوبينه) على محمد الأمين ، ونصب أخاه المأمون (الذى كانت أمه إيرانية) على الخلافة . والطاهر كوّن أول أسرة ملكية إقليمية إيرانية فى خراسان وما وراء النهر تدعى بالطاهريين (توفى ٢٠٧ هـ بمرو)

وفى هذا القرن كان وزراء وحكام إيرانيون يديرون شئون الدولة الإسلامية المترامية الأرجاء باسم خليفة بغداد من أمثال يحيى وجعفر والفضل البرمكيين (المقتول ١٩٣ هـ ق) والفضل بن الربيع السرخسىّ (توفى بطوس ٢٠٨ هـ ق) .

وقد ظهر أيضاً فى القرن الثانى عباقرة وعلماء وشعراء ، من مثل عبد الله بن المقفع (المقتول بالبصرة ١٤٣ هـ ق) والذى ترجم كتاب كليلة ودمنة من اللغة البهلوية إلى العربية ، والف كتباً أخرى ، وهكذا نرى فى هذا القرن شاعراً كبيراً مثل بشار بن برد (١٦٧ هـ ق) وأبا نواس (١٩٨ هـ ق) ومسلم بن الوليد (المتوفى بجرجان ٢٠٨ هـ ق) ، الذين دوت أشعارهم وقصائدهم فى أرجاء العالم الإسلامى رقام هؤلاء الكبار الذين ينتمون إلى أصل فارسى بنهضة عظيمة مدوية فى الشعر العربى وأدبه .

(٣)

أجمع المؤرخون على أن مولد سيبويه كان فى ناحية «بيضاء» فى ولاية فارس ، وتقع هذه الناحية فى شمال غربى شيراز ، على بعد ٤٠ كيلو مترا ، ومركز هذه الناحية يسمى

الآن « تل بيضا » (١) وأغلب الظن أن هذه القرية المركزية كانت مولد سيبويه الإيرانى نسباً وعنصراً : كان جده الأعلى اسمه « قنبر »،والظاهر أن هذه الكلمة إيرانية .

وفى قرية بيضاء ولد كثير من العلماء والشخصيات المعروفة من المتقدمين من مثل : حسين بن منصور الحلاج (المقتول ٣٠٦ هق) وهو من كبار علماء التصوف والعرفان :وقصته معروفة . ومن هناك أيضاً القاضى ناصر الدين أبو سعيد المعروف بالقاضى البيضاوى (المتوفى فى تبريز – ٦٩٥ ه ق) وهو مشاهير الأدب والفقه والتاريخ والتفسير. ولابأس فى أن نشير هنا إلى أن محل « تل بيضاء » الحالية والقرية المجاورة لها المسماة بـ « مليان » هى محل المدينة الأثرية القديمة « آنشان . أو–أنزان» Aushan التى كانت فى أواخر الألف الثانى وأواسط الألف الأول،مدينة عظيمة عامرة ومركزا لمحافظة «بارسوا Parsua فارس قبل حكم الأخمينين Aeaminians فى عصر العيلاميين Elamites الذين كان لهم حضارة وحظ فى جنوب إيران . وكانوا معاصرين للأشوريين وقد حكموا فى جنوب إيران وجنوب العراق ،ولكن بعد أن قضى عليهم كورش الكبير وأسس عاصمته باسار كاده Pasorcde فقدت مدينة «آنشان» أهميتها وأصبحت شيئا فشيئاً قرية صغيرة تناولها النسيان . وفى عام ١٩٧٢ م عثر العالم الأثرى الأمريكى الدكتور Dr. Sumner على آثار قديمة للمدينة فى أنقاض « مليان » و« تل بيضا» فظهرت مرة أخرى إلى الوجود مدينة آنشان الأثرية . فلا غرو إذن أن نرى سكان هذه المدينة –التى ورثت الحضارة العيلاميـــة – متميزين بنهضة علمية ومقدرة عقلية جبارة، فيظهر من هذا الوسط الحضارى من أمثال سيبويه والحلاج والبيضاوى وغيرهم من الأفذاذ .

(٤)

وبعد أن بزغت شمس الإسلام ،وانقرضت الدولة الساسانية على يد المسلمين العرب (٦٥٠م) وجالت خيول العرب من الجزيرة العربية على شكل الغزاة المسلمين فى جميع إيران وثوران ، أقاموا معسكراتهم فى منطقتين :

إحداهما فى شمال العراق باسم الكوفة والأخرى فى الجنوب باسم البصرة،وإن هاتين المنطقتين العسكريتين تطورتا أخيرا إلى مركزى علم وأدب للعرب ، وكان المسلمون العرب يحكمون من الكوفة شمال إيران من ماوراء النهر إلى إرمنتان (إرمينية) ومن البصرة يحكمون المناطق الجنوبية والشرقية حتى السند والهند ، ولما هدأت الأحوال وأخذت الأمور تسير فى مجراها فى القرن الثانى ،واستتب السلام ، وتوفرت الفرص

---

(١) فارسنامه ناصرى ج ٣

للدراسة والبحث لرجال العلم ، تكونت حينئذ مدرستا الكوفة والبصرة من علماء العرب والفرس، وانهال رواة الحديث وطلاب العلم من كل حدب على هاتين المدينتين،وظهر زجال الفكر والثقافة فى كل فن من فنون العلم والأدب ، وألفت كتب كثيرة فى فنون الأدب ، كاللغة والنحو والصرف والشعر ، وكذلك فى علوم الفقه والتفسير والكلام . ففى هذا الوسط الثقافى برز إلى الوجود عالم اشتهر فى علم اللغة والأدب والموسيقى ،وألف كتباً كثيرة وهو الخليل ابن أحمد (١٧٠ هـ ق) الذى كان يقيم فى البصرة ،وقد عرف بالأستاذ :

ورحل سيبويه الإيرانى مع أبيه من فارس إلى البصرة ، وفى هذا الجو المشبع بالعلم والفن عكف أولا على دراسة الحديث والفقه ،ثم على دراسة النحو وتتلمذ على الخليل بن أحمد ،فأخذ عنه اللغة وعلم النحو ،إلى أن وصل مرتبة الكمال وهو حدث. وقبيل الشباب حاز على قدر كبير من العلم والفضيلة ،وقد أثنى الخليل فى إبان دراسته على سيبويه وكان يستقبله الخليل بترحيبته المعروفة : « مرحباً بزائر لا يمل »: وقيل إن الخليل لم يثن على أحد بمثل ما أثنى على سيبويه . وقد تتلمذ سيبويه أيضاً على أساتذة آخرين أمثال الأخفش الكبير (عبد الحميد بن عبد المجيد البصرى (توفى ١٧٧ هـ.ق) .وقد أخذ سيبويه لغته من أبناء البادية أيضا ، وتتلمذ على سيبويه علماء كبار من مثل : الأخفش الأوسط (سعيد بن مسعدة المتوفى ٣١٥ هـ ق) والأخفش الأصغر (على بن كيسان المتوفى ٣١٥ هـ.ق) ، وغيرهما .

(٥)

إن أعظم أثر تركه لنا سيبويه كتاب اشتهر بـ « الكتاب » بصورة مطلقة ، وقد أثنى على « الكتاب» طوال التاريخ الثقافى الإسلامى ،ولايزال مصدرا كبيراً من مصادر الدراسة فى علم النحو والعربية .وقد شرح هذا الكتاب وعلق عليه كثير من العلماء ، منهم : أبو سعيد السيرافى (٣٦٨ هـ ق) وأبو على الفارسى المعاصر له ،وغيرهما من الشراح (انظر معجم الأدباء لياقوت) وطبع فى كلكته والقاهرة وبيروت وباريس وبرلين .

ولاشك أن سيبويه قد أرسى قواعد اللغة العربية ، ووضع أصولها فى هذا الكتاب . وقد قيل إنه أخذ الأصول من الخليل ، واقتبس الفروع والشروح من عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب، وغيرهم من علماء البصرة ، فجمع أشتات ،واضيعها ورتبها ، ولهذا عرف « الكتاب» باسم سيبويه . وهذا كتاب قد شبهوه بالبحر .

(٦)

وعندما شمخت صروح الخلافة فى بغداد وأخذت فى التوسع ،وأصبح الوزراء البرامكة

موئلا ومحجا للخاص والعام ، قصد عالمنا الشاب بغداد ليزور يحيي البرمكي ،فحاز فى بغداد على مكانة وشهرة واسعتين جداً . وهناك كان الكسائى أبوالحسن على بن حمزة الكوفى أحد القراء السبعة ومعلم هارون وابنه الأمين (توفى فى الرى ١٨٩ هـ ق)ونعلم أنه من رواد مدرسة الكوفة ، وكان فى بغداد تفرش له الوسادة ، وله منزلة سامية عند الخليفة حيث عينه معلماً لولده محمد الأمين ، ولما عرف الكسائى مالسيبويه من منزلة كبيرة فى العلم حسده ،وخطأه فى بعض من المسائل العلمية ، فلما اشتد الخلاف بينهما أمر يحيى البرمكى أن يعقد مجلس بحث ونوقشت القضية المعروفة « بالزنبورية » (والمسألة موجودة فى كتب النحو المبسطة أمثال مغنى اللبيب لابن هشام) ولما كان الكسائى محظوظاً لدى جهاز الخلافة تآمر محمد الأمين والكسائى على سيبويه،وجاءوا بجماعة من أعراب البادية ليحكموا بينهما ، فأوعزوا إليهم أن يخطئوا سيبويه ويقولوا: « الصواب قول الكسائى »

(انظر وفيات الأعيان والفهرست)

وبهذه المسرحية المبكية أفحموا سيبويه الفارسى الذى كان ذا لكنة بسيطة فى لسانه ؛ ولكن أسلوبه وطريقته فى الكتابة سهلة مرنة جزلة . وبعد هذه الحادثة ، قام يحيى البرمكى الذى أعد هذا البرنامج باستعطاف سيبويه ،وقدم إليه عشرة آلاف درهم . فعاد سيبويه من بغداد إلى البصرة وقد صمم على أن يذهب إلى طلحة بن طاهر أمير خراسان ،فلما وصل إلى مدينة ساوة اضطره المرض على أن يعدل عن سفره إلى خراسان،وهو مهموم ومهضوم ،فيمم نحو شيراز قاصداً موطنه الأصلى . فتوفى هناك فى الثانية والثلاثين من عمره على قول ، وقيل: فى الأربعين من عمره ، ودفن فى مقبرة « باهلية »، وقد نصب عليه رخام أسود ، وقدبقى من تربته هذا الحجر الأسود حتى الآن. واشتهرت المنطقة التى فيها قبر سيبويه بواسطة الرخامة = سناك ، بمنطقة « سنديساه » « الحجر الأسود (١)

(٧)

قد اختلف المؤرخون وكتاب التراجم فى مدفن سيبويه ، فبعضهم قال :إنه دفن فى مدينة ساوة،وقال آخرون دفن فى« بيضا » مسقط رأسه. أما أصح الأقوال فهو أن مدفنه فى شيراز ،وقد زرت قبره فى حى«سنديساه» عليه رخام طوله ٩٤ (م ٩ م ٩) سنتيمتراً وعرضه م ٩ سنتيمتراً .

ذكر مؤلف كتاب شد الإزار (المتوفى فى ٧٩١ هـ ق) بأنه لم يتأكد من موضع قبره فى « باهلية »،ولكن ابنه عيسى بن جنيد تعرف على القبر وأشار إلى المحل الذى هو الآن معروف لدى عامة سكان شيراز .

---

(١) شد الإزار ص ٩٥ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ، الفهرست لابن النديم ط . طهران جـ ٥٧ ، فارسنامه ناصرى ج ٣ وآثار العجم فرصت شيرازى .

كانت الرخامة سابقاً ذات كتابة ونقوش وقد نحتت عليها أبيات من الشعر ، ولكن مرور الزمن محا تلك الخطوط وأصبحت الرخامة صافية لماعة[1] . ويذكر عيسى ابن جنيد عن سبب لمعان تلك الرخامة : أن المعروف عند عامة الناس فى شيراز ، أن من طلاب العلم مَنْ إذا أراد أن يصل إلى درجة الكمال يأتى عند قبر سيبويه ويمسح صدره على تلك الرخامة ليكتسب البركة من صاحب القبر ، وقد فشت هذه العادة بين الناس فى مدينة شيراز فيأتون بأطفالهم المصابين بمرض السعال الديكى Coqulouche ويمسحون رقابهم وصدورهم ذهبت الكتابة وبسبب هذه العقيدة والمسح المستمر على خطوط تلك اللوحة الصخرية بتلك الصخرة وأصبحت شفافه لماعة[2] .

(٨)

كما أسلفنا فى صدر كلامنا أن تاريخ وفاة سيبويه هو عام ١٩٤هـ ق على أصح الأقوال وأن حسن فسائى فى فارسنامه قد ذكر تاريخ الوفاة ١٩٥هـ . ق ، ولكن المصادر تدلنا على أن عام ١٩٤ هـ هو أصح الأقوال بما يلى :

أولا : أن الحافظ الخطيب البغدادى أبا بكر أحمد بن على (المتوفى ٤٦٣ هـ.ق) ذكر فى تاريخ بغداد ، أن وفاة سيبويه كانت فى ١٩٤هـ ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة ، فعليه يكون قد ولد عام ١٦٢هـ ، والخطيب كما نعلم من ثقات المؤرخين ومعتمد لدى المؤرخين والأدباء ، وأن القاضى جمال الدين المصرى (المتوفى فى شيراز ٦٥٣هـ. ق) يؤيد كلام الخطيب[3] وأن ابن دريد الأديب اللغوى (المتوفى ٣٢٤ هـ. ق) والذى أخذ الخطيب عنه كثيرا من مصادره التاريخية ، يقول : إن سيبويه توفى فى مدينة شيراز عام ١٩٤ هـ وقبره معروف فى هذه المدينة .

ثانياً : بعد دراسة تاريخ المناقشة التى وقعت بين سيبويه وبين الكسائى نعلم أن محمدا الأمين الذى كان ينحاز إلى الكسائى ، ويؤازره فى المؤامرة المدبرة على سيبويه كان فى مرحلة من النضج والإدراك ، بحيث كان يدرك ويتعقل تدبير المؤامرة . ولما كنا نعلم أن ولادته — أى الأمين — كانت فى سنة ١٧٤هـ فيغلب على الظن أن تكون المناظرة قد وقعت حول عام ١٩٠ هـ وأن سيبويه ترك بغداد بعد أربع أو خمس سنوات إلى ساوة ، ومن هناك إلى فارس ، وتوفى بعد مدة قليلة . واعتماداً على هذه الوثائق التاريخيه نقطع بأن وفاته كانت عام ١٩٤ هـ وماعدا ذلك ليس بصحيح .

---

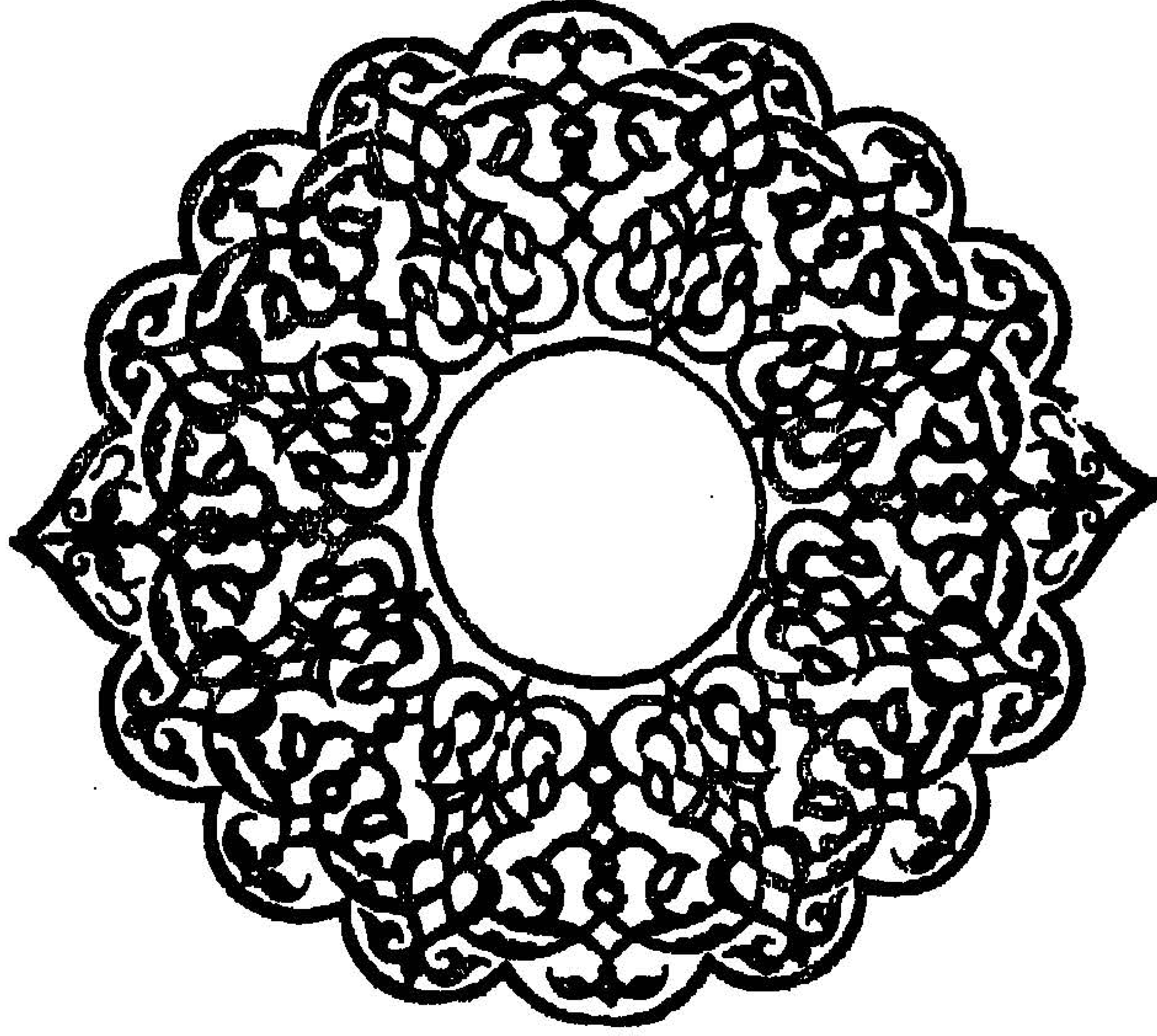
(١) آثار العجم ، فرصت شيرازى (تأليف عام ١٣١٠ هـ ق)

(٢) المزارات عيسى بن جنيد ص ٤٦٥

(٣) شد الإزار ، هامش ص ٩٨

وفى هذا العام (أى ١٣٠٤ هـ ق = ١٣٥٣ هـ ش) يوافق الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة سيبويه. قامت جمعية الآثار الوطنية فى طهران التى تقوم منذ نصف قرن على حفظ الآثار، وإصلاح المبانى والمشاهد والمقابر الأثرية وطبع الكتب والرسائل الكثيرة ونشرها وجهود علمية كبيرة. هذه الجمعية تفكر الآن بتشييد بناء ضريح يناسب ذلك الإمام الفارسى فى شيراز، وهى أيضاً بصدد شراء الدور التى تحيط بالمقبرة فى «سنند سياه» وتسوية المعابر والشوارع الموصلة إلى المقبرة إن للجمعية الثقافية فى فارس وبلدية شيراز الدور الفعال فى هذا العمل العظيم. أرجو من الله التوفيق وعليه التكلان.

على اصغر حكمت
طهران — ايران



سيبويه في الميزان

للدكتور احمد مكي الأنصاري

قبل أن أخوض في هذا الحديث المستفيض أبادر فأضع بين يديكم مبدأ راسخا .. ينبغي ألا نحيد عنه في دراساتنا لسيبويه العظيم .. ذلك المبدأ هو :

يجب أن نقدر سيبويه كل التقدير .. ولكن ينبغي ألا نقدسه أى تقديس .. وفرق كبير بين التقدير والتقديس .

ذلكم هو المبدأ .. وهذا هو المنطلق الذى ننطلق منه ، فى رحلتنا الطويلة مع سيبويه .. وأظنكم توافقوننى على أن تقديس الأشخاص حرام .. حرام قطعا ، شرعا وقانونا ونحوا وصرفا .

والآن نبدأ فى وزن سيبويه .. وأشهد أننى لم أجد ميزانا واحدا يتسع لوزن سيبويه الضخم العملاق . وكيف تتسع له الموازين وقد طبقت شهرته الآفاق .. شرقا وغربا ، عربا وعجما . فكان ملء السمع والبصر والفؤاد .. فى القديم وفى الحديث على السواء .

إن سمعة سيبويه العبقرى تغزو الآن أوربا .. حتى أن كتابه الفريد يترجم إلى بعض اللغات الحية مثل اللغة الألمانية ، والإسبانية .. وغيرهما من اللغات .

وقديما أنصفوه فأطلقوا عليه (إمام النحاة) .. كما أنهم بالغوا فى تقدير كتابه فقالوا : (إنه قرآن النحو) ، وحسبه ذلك تمجيدا وتقديرا . ومن هنا يجد الباحث نفسه أمام عمل ضخم حينما يحاول جاهدا أن يضع (سيبويه فى الميزان) . وأشهد أن عبقرية سيبويه تجلت فى كتابه الخالد .. فهو كنز هائل ، ومنبع ثرّ ، كأنه بحر زاخر يمده من بعده سبعة أبحر .. فيه من الجوانب الحية النابضة مايدعو الباحثين إلى التعمق فيها ، وهى ماتزال أبكارا ، عربا أترابا . تنتظر الباحثين فى كثير من الميادين ، مثل الأصوات ، واللهجات ، والبلاغة ، والنقد .. بالإضافة إلى النحو والصرف واللغة بوجه عام .. وإليك بعض العناوين لتكون بين يديك بمثابة دليل أو معين .

١ – سيبويه والأصوات : فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة .

٢ – سيبويه واللهجات :

٣ – شواهد سيبويه على محك النقد – (ومن ورائها الشواهد النحوية بوجه عام) .

٤ — التداخل بين البلاغة والنحو فى كتاب سيبويه .

٥ — كتاب سيبويه بين النقل والابتكار .

٦ — القضايا النحوية بين سيبويه والمبرد .

٧ — أخطاء سيبويه فى نظر ابن تيمية .

٨ — مشكلات ابن الضائع فى كتاب سيبويه .

٩ — مآخذ الأخفش على الكتاب .

١٠ — ظاهرة التأويل فى كتاب سيبويه .

١١ — وأخيرا وليس آخرا (سيبويه والقراءات) .

كل هذه الموضوعات أو جلها وغيرها كثير وكثير .. ماتزال تنتظر البحث .. ومن خلال هذا البحث والدرس العميق نستطيع أن نزن سيبويه وزنا دقيقا ، لنعرف حجمه الطبيعى دون تهويل أو تهوين .. ثم نضعه فى المكان اللائق به .. وما أحسبه إلا فى عنان السماء : بين السماكين أو الفرقدين . وكم كنا نود أن نزن سيبويه من جميع النواحى ، ولكن أنى لنا ذلك . والجهد قاصر ، والقضايا متعددة الجوانب . لهذا وذاك سنقصر حديثنا الآن على قضية واحدة ، فقط وهى (موقف سيبويه من القراءات) — وقديما قالوا : « مالا يدرك كله لايترك كله » ، « وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق » . وإليك البيان :

القضية الكبرى :

هى : موقف سيبويه من ، القراءات القرآنية .. ومنها تتفرع سائر القضايا الأخرى وهى :

١ — قضية المعارضة الصريحة للقراءات عند سيبويه .

٢ — قضية المعارضة الخفية للقراءات عند سيبويه .

٣ — قضية التأويل للآيات القرآنية عند معارضتها للقواعد النحوية .

٤ — قضية موافقة الكتاب للكتاب ، والمراد بها موافقة كتاب سيبويه لكتاب الله العزيز .

مسالك التفكير عند سيبويه :

يخيل إلى أن مسالك التفكير عند سيبويه كانت على النحو التالى :

إن سيبويه — رحمه الله — وضع القواعد النحوية فى كفة ، ووضع الآيات القرآنية فى كفة أخرى ، ثم نظر فى الآيات القرآنية فما كان منها موافقا للقواعد البصرية .. تقبله بقبول حسن ، واستشهد به فى الكتاب وتلك هى القضية الرابعة التى أشرنا إليها آنفا (موافقة الكتاب للكتاب) . أما ماتعارض من الآيات مع القواعد النحوية البصرية .. فوقف منه مواقف ثلاثة .. تتجلى فيمايلى :

قسم منها استطاع أن يخضعه للتأويل والتقدير .. ليتفق مع القواعد البصرية

وتلك هى القضية الثالثة (قضية التأويل للآيات ، وإخضاعها للقواعد) .

أما الباقى من الآيات المتعارضة للقواعد البصرية .. فإنها تأبى الخضوع للتأويل والتقدير :

وحينما استعصت على سيبويه وقف منها موقف المعارضة القوية ورماها بالضعف ، والقبح والرداءة .. لالشيء إلا لأنها خالفت القواعد البصرية .. وكأن القواعد النحوية مقدسة أكثر من الآيات القرآنية.

ومهما يكن من أمر فإن المعارضة القوية كان لها مظهران عند سيبويه :

المظهر الأول : هى المعارضة الخفية .. وذلك حينما يضع القاعدة النحوية التى تصطدم بالآية اصطداما عنيفا دون أن يذكر نص الآية بصراحة .. وإن كان يذكر كل ماينطبق عليها ، ويحددها تمام التحديد. وعندما تصل الأمور إلى هذا الحد يستوى فيها التصريح والتلميح : والمظهر الآخر هو المعارضة الصريحة .. وذلك عندما يفلت منه الزمام .. فيذكر نص الآية بصراحة ويذكر معها بعض الصفات التى لا تليق .. كما سيأتى بالتفصيل عما قليل . ولعلك تلحظ أن المعارضة الصريحة ، والمعارضة الخفية ، هما وجهان لعملة واحدة : يتعامل بها سيبويه مع القراءات التى لا تتفق مع المذهب البصرى ، ولايستطيع إخضاعها للتأويل والتقدير يروهما ؛ لأن القضية الأولى والثانية من القضايا الأربع التى تشتمل عليها القضية الكبرى ، وهى (موقف سيبويه من القراءات) .

وإليكم بعض النماذج

أولا : نماذج من المعارضة الصريحة[1] :

قال تعالى فى سورة الجاثية[2] : «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون» : جاءت القراءة بنصب كلمة (سواء) ويرفعها كذلك ، وكلتاها قراءة سبعية ، ولكن سيبويه يأخذ ما يروق له . وهى قراءة الرفع .. ثم يهاجم قراءة النصب ويصفها بالقبح والرداءة [3] مع أنها قراءة سبعية كما ترى .. قرأ بها أكثر من قارئ فى السبعية . قرأ بها حفص وحمزة والكسائى : وتوجيهها فى النحو سهل ميسور .. فإنها تعرب حالا ، أو مفعولا ثانيا لنجعلهم ، أى نجعلهم سواءً فى المحيا وفى الممات .. إلى غير ذلك من الأعاريب التى ذكرها العلماء بالتفصيل ،

(١) انظر تفصيل كل ذلك فى كتابنا (سيبوية والقراءات) ص ١٦ فما بعدها ، توزيع دار المعارف بمصر

(٢) آية : ٢١

(٣) راجع الكتاب ١ : ٢٣٣ ط بولاق

ولكنها لا تتفق مع مذهب سيبويه .. ولهذا وصفها بالقبح والرداءة سامحه الله. وهناك آية أخرى ينطبق عليها وصف سيبويه بالقبح والرداءة، وهي قوله تعالى: «سواء العاكف فيه والباد» وهي قرءة سبعية أيضا[1]. ولكن سيبويه لا يحفل بالقراءة السبعية أو غيرها من القراءات . إذا ما اختلفت مع القواعد النحوية البصرية بالذات .

ومن النماذج أيضا قراءة آية أخرى وصفها سيبويه بالضعف والقبح معا [2] وهي قوله تعالى : «ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن» بضم كلمة (أحسن) على أنها خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير : تماما على الذى هو أحسن — مثل هذا جائز مستساغ، لا غبار عليه عند غير سيبويه ومن لف لفه من البصريين والمتبصرين .. أولئك الذين هاجموا هذه القراءة ورموها بالضعف والقبح والشذوذ .. ومن كان منهم معتدلا بعض الاعتدال وصفها بالقلة والندور [3]

وإن أردت المزيد من النماذج فعليك بكتاب (سيبويه والقراءات)[4] ففيه بعض الآيات التى عارضها سيبويه معارضة صريحة، ومنها قوله تعالى : «وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين» فى قراءة أبى عمرو بن العلاء بالإبدال — والمراد إبدال الهمزة ياء فى (ائتنا) وكان حقها أن تبدل واوا فى نظر سيبويه؛ لأن ما قبلها مضموم .. فلما لم تجئ على القاعدة البصرية رماها بالضعف — سامحه الله .

ثانيا : من نماذج المعارضة الخفية[5] :

(أ) قال تعالى فى سورة يس : «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون»[6] قرأ بنصب المضارع (يكون) قارئان كبيران من القراء السبعة .. هما الكسائى وابن عامر — وتكررت قراءة النصب فى هذا الحرف من القرآن حين جاء فى سورة النحل كذلك عندهما معا — كما أن ابن عامر قرأ بالنصب فى جميع المواضع الأخرى التى ورد فيها هذا الحرف من القرآن الكريم، باستثناء موضعين اثنين ومع هذه الكثرة الكاثرة من الآيات القرآنية المنصوبة .. ومع التوثيق الكامل لقراءة الكسائى وابن عامر فإن سيبويه رحمه الله يقرر ضعف النصب هذه الحال [7] .

---

(١) راجع كتاب (سيبويه والقراءات) ص ٢٣

(٢) انظر الكتاب ١ - ٢٧٠ ط بولاق

(٣) راجع شراح الألفية فى باب الموصول عند قول ابن مالك :

(وبعضهم أعرب مطلقا وفى . . . ذا الحذف أيا غير أى يقتفى)

(ان يستطل وصل وان لم يستطل . . . فالحذف نزر وأبوا أن يختزل)

(٤) ص ٢٥ فما بعدها - (٥) راجع تفصيل كل ذلك فى كتاب (سيبويه والقراءات) ص ٤٦ فما بعدها

(٦) آية - ٨٢ (٧) راجع الكتاب ١ . ٤٢٣ ط بولاق

لا لشيء إلا لأنها لاتتفق مع القاعدةالنحوية التى وضعوها بأيديهم فى مصنع التقعيد — وخلاصة القاعدة عندهم أن الفعل المضارع لا ينصب بعد الفاء إلا إذا كان جوابا .

هذه هى القاعدة الناقصة التى أحاطوها بالتقديس أكثر من القراءات القرآنية المحكمة؛ماذا عليهم لو نسفوا هذه القاعدة من أساسها .. و على الأقل يعدلونها ويوسعونها بحيث تشمل هذه القراءات السبعية المتعددة .. ويجيزون النصب — دون ضعف — كما يجيزون الرفع وإن كان الرفع أكثر !

ماذا على شيخنا سيبويه —رحمه الله— لو فعل ذلك .. وأعفى نفسه من الحرج بوضع قاعدة نحويةتصطدم بالقرآن الكريم فى أعلى قراءاته .. وهى القراءة السبعية ؟ ليته فعل ... ولكنه لم يفعل مع الأسف الشديد .

(ب) ومن ذلك [1] قوله تعالى : «يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك »[2] وقوله جل شأنه : « أولئك هم خيرالبرية» [3]

قرأ نافع بتحقيق الهمزة فى الكلمتين معا (النبيءوالبريئة)وهومن القراء السبعة وبه بدأ ابن مجاهد حيث كانت قراءته أوثق القراءات فى نظره لأنه قرأ على سبعين من التابعين ، ولكن سيبويه— رحمه الله — لا يبالى بذلك ويصف هذه القراءة بالقلة والرداءة [4] .

هذا إلى أنتحقيق الهمزة وتخفيفها كلاهما لهجة واردة عن العرب الفصحاء . .وأكثر من هذا أن التحقيق أدخل فى باب اللغة من التخفيف ، وفى هذا يقول العلامة الرضى : « والتحقيقهو الأصل كسائر الحرو ، والتخفيف استحسان » .

وإذا لم يكن هذا ولاذاك فالقرآن وحده الحجة البالغةعلى جميع اللغات . . والقراءة سنة متبعة . . ولولا ذلك ما تكلفت قريش نبر الهمزة وتحقيقها فى القرآن الكريم ، وآية ذلك أن الإمام علياكرم الله وجهه قال : « نزل القرآن بلسان قريش وليسوا بأصحاب نبر ،ولولاأنجبرائيل عليه السلام نزل بالهمزة على النبى صلى الله عليه وسلم ماهمزنا »[5] فانظر إلى الإمام على يقرر نزول الوحى بقراءة الهمزة ويخضع لها مع أنها تخالف لهجته الخاصة . . ثم انظر إلى سيبويه يصفها بالرداءة مع أنه يعلم اليقين أنها واردة وأن القراءة سنة متبعة هذه واحدة . وأخرى سلفت . وهناك أخريات . . وأخريات مما لا أطيل بذكره الآن [6]

---

(١) انظر ص ٧٠ فما بعدها من كتاب (سيبويه والقراءات) (٢) التحريم

(٣) سورة البينة آية رقم (٧) وقبلها جاءت كلمة (البرية) كذلك فى آية رقم (٦) من نفس السورة .

(٤) انظر الكتاب ٢ ـ ٢,١٧٠ ـ ١٦٣ ط بولاق (٥) راجع شرح الشافية ٣ . ٣٢

(٦) راجع المبحث الثانى كله ابتداء من ص ٤٠ فما بعدها من كتابنا (سيبويه و القراءات) .

ومنها (تاءات البزى) المشهورة عند جميع القراء . وعددها واحد وثلاثون موضعا فى القرآن الكريم . وقد تعرض سيبويه لبعضها فمنعها منعا باتا مع أنها جميعا من القراءات السبعية المحكمة [1] .

ثالثا : من نماذج التأويل [2]

(أ) قال تعالى فى سورة النور [3] : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . الإعراب الفطرى الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة هو أن تعرب (الزانية) مبتدأ وخبره جملة (فاجلدوا) .. وبه قال بعض العلماء الأجلاء من أمثال المبرد والزجاج والزمخشرى وأبى زكريا الفراء .

غير أن سيبويه — رحمه الله — لجأ إلى التأويل البعيد حينما وقفت له الصنعة بالمرصاد فقال : إن خبر (الزانية) محذوف تقديره (فيما يتلى عليك الزانية والزانى — أو فيما يتلى عليكم حكم الزانية والزانى) .. أما جملة (فاجلدوا) فأعربها مستأنفه .. ولا يصح أن تكون خبرا فى نظره لا لشىء إلا لأنها خالفت القاعدة النحوية البصرية .

فانظر إليه رحمه الله ..كيف تتحكم فيه الصنعة فيرفض الإعراب الذى يساير الفطرة كما يساير طبيعة اللغة العربية السمحة .. فماذا عليه لو أجاز هذا الإعراب كما أجازه العلماء الأجلاء من المدارس النحوية الكبرى جميعا ؟ وما الذى يضيره أو يضير اللغة العربية حينما يوسع هذه القاعدة الناقصة .. فيجعلها تشمل هذا الخبر كما تشمل غيره من الأخبار ؟ لو فعل ذلك لأراح نفسه وأراح الناس من بعده .. من أمثال هذا التأويل المتكلف ، وذلك التقدير الذى يفسد الذوق العربى السليم .. ولكن هيهات أن يمس القاعدة المقدسة مهما كانت مخالفة للكثير من الآيات القرآنية المماثلة [4] .. ومن الشعر العربى الفصيح [5]

(ب) ومن التأويل المتكلف ما جاء فى قوله : قوله تعالى : «إذا السماء انشقت» — وقوله جل شأنه : «وإن أحد من المشركين استجارك» [6] إذا أردت الفطرة السليمة فى الإعراب واستلهمت الحس اللغوى المرهف أعربت كلمة (السماء) مبتدأ وما بعدها خبر لها — وكذلك الحال فى الآية الثانية .. وبه قال كثير من

---

(1) انظر ص ٥٣ فما بعدها من نفس المصدر . (2) راجع ص ١٧٠ فما بعدها من المصدر السابق .

(3) آية رقم ٢

(4) من الآيات المماثلة قوله تعالى: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» المائدة ٣٨ — وقوله عز وجل: «واللذان يأتيانها منكم فآذوهما» النساء — ١٦ .

(5) من ذلك قال الشاعر .

وقائلة خولان فانكح فتاتهم ... وأكرومة الحيين خلو كاهيا

(6) التوبة ، آية .

العلماء الأجلاء[1] ولكن سيبويه — رحمه الله — يرفض هذا الإعراب الفطرى الجميل ويلجأ إلى التأويل والتقدير، ويتبعه فى ذلك سائر البصريين والمتبصرين إلى يومنا هذا فى هذا العصر الحديث .:. ويقولون : إن كلمة (السماء) فاعل لفعل محذوف تقديره (انشقت) وكذلك كلمة (أحد) فاعل لفعل محذوف تقديره (استجارك) .:. وبناء على هذا وذاك يكون التقدير فى الآيتين هكذا :—(انشقت السماء انشقت) — (وان استجارك أحد من المشركين استجار) . وأكثر الظن أننا لسنا بحاجه إلى التعقيب على هذا التقدير المتكلف ذلك الذى يخرج الآية الكريمة عن سماحتها وسلاستها .. ويشوه الأسلوب القرآنى الرفيع .

ويلاحظ أن باب التأويل داخل فى التعارض مع القواعد .:. ولكن سيبويه — رحمه الله — يلوى أعناق الآيات .. إلى أن يخضعها للقواعد البصرية ». أما القسم الذى لا يقبل الخضوع للتأويل فإنه يقف منه موقف المعارضة الصريحة ، أو المعارضة الخفية —كما سلف به البيان — غير أن الكل داخل فى باب التعارض مع القواعد — كما ترى :

والآن آن لنا أن نقتضب الحديث اقتضابا، ونكف عن ذكر النماذج للقضية الرابعة وهى (موافقة الكتاب للكتاب) .. ذلك أن معظم الآيات الواردة [2] فى كتاب سيبويه من هذا القبيل .:. فلا تحتاج إلى بحث أو تنقيب .. ومن أراد شيئا من النماذج المختارة فعليه بالمبحث الرابع من كتاب (سيبويه والقراءات) [3] .

أثر سيبويه فى المخالفين :

وكان من الطبيعى أن يتأثر النحاة بما جاء فى كتاب سيبويه .. وأن يقتدوا به (حذوك الكف بالكف) .. إلا من رحم ربك ..وقليل ما هم .. ولنا مع هؤلاء النحاة حديث يطول نرجئه إلى حين . . غير أننا نشير إشارة عابرة إلى (المزايدات) التى زادوها على سيبويه فى قراءة سبعية محكمة [4] وهى قراءة حمزة فى سورة النساء:« واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » بخفض الأرحام ،حيث وصفوها بالقبح والضعف واللحن والخطأ .. وأكثر من هذا وذاك أنهم حرّموا القراءة بها تحريما قاطعا .. ولهذا قال المبرد : « لو أنى صليت خلف إمام يقرؤها لقطعت صلاتى وحملت نعلى ومضيت » .

---

(١) من أمثال الأخفش وأبى زكريا الفراء والكوفيين بوجه عام .

(٢) احصاها بعض الباحثين فوصل بها إلى (٣٧٣) آية ، وهى تمثل جميع القضايا الأربع التى عالجناها فى كتابنا (سيبويه والقراءات)

(٣) ص ١٨١ فما بعدها . وانظر الكتاب ١ / ٣٧ فما بعدها و ١ / ٤٦ فما بعدها و ٢ / ١٦٥ و١ / ١٢٠ فما بعدها وغيرها كثير وكثير . طبع بولاق .

(٤) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا (الدفاع عن القرآن) توزيع دار المعارف بمصر .

لا لشيء الا لأنها خالفت القاعدة النحوية الناقصة .. ماذا عليهم لو عدلوا هذه القاعدة كما عدلها الإمام التقي الورع الحصيف.. ابن مالك الحياني حيث قال فى الألفية المشهورة:

وعود خافض لدى عطف على
ضمير خفض لازما قد جعلا
وليس عندى لازما إذ قد أتى
فى النظم والنثر الصحيح مثبتا

حياك الله يا ابن مالك .. حياك الله أيها الإمام العظيم .. حياك الله أيها النحوى الغيور على القرآن الكريم ، وقراءاته السبعية المحكمة.

هذا إلى أننى لا أتهم هؤلاء النحاة .. كما أننى لا أتهم[2] سيبويه فى دين أو خلق .. فقد كان رحمه الله – مثالا عاليا لهذا وذاك .. ولكنها العصبية المذهبية . . والتمسك بالقواعد النحوية الناقصة .. وكان جديرا به ، وبغيره من النحاة الأوائل أن يتخذوا القرآن الكريم منبعهم الذى لا يغيض ، ومصدرهم الأول فى كل تقعيد .. ومن هنا كانت دعوتنا الحارة لا تخاذ الخطوات الجادة فى إخراج (النحو القرآنى) .. وأكرر وأضغط فى التكرار على (النحو القرآنى)

نداء ورجاء لإصلاح نحونا الجميل :

لعلى لا أكون متعصبا لتخصصى حين أقول : إن النحو العربى من ألذ العلوم وأجملها .. ولكن تشويه بعض الشوائب وليتنا نستطيع أن نخلصه من هذه الشوائب الدخيلة عليه ، المتطفلة على موائده الشهية اللذيذه الممتعة .-. وتتمثل هذه الشوائب فى آثار الفلسفية الإغريقية ظنا منهم أن النحو منطق دائما وأبدا .. ونسوا – أو تناسوا – أن اللغة ظاهرة اجتماعية لا تخضع دائما للمنطق العقلى .. وإنما لها منطقها الخاص الذى قد يتفق مع المنطق العقلى ، وقد يختلف معه فى بعض الأحايين (١)

ومن هنا كانت الحاجه ماسه إلى شيء من الإصلاح المتعقل .. وإذا كان الإصلاح الجذرى[3] للنحو العربى قد عز علينا .. فلا يعز علينا – مجتمعين – مثل هذا الإصلاح الجزئى .. ذلك الذى يتمثل فى (حركة التنقية والانتقاء) بحيث نبدأ بتنقية النحو من جميع الشوائب الفلسفية التى علقت به .. ثم نقوم بحركة الانتقاء ، واختيار أيسر الآراء على الدارسين والمتعلمين .. شريطة أن يكون هذا التيسير قائما على أساس من الأصالة فى اختيار الآراء من أقوال النحاة القدماء دون تعصب لشخص .. أو مذهب على مذهب .. ونكتفى بهذه الإشارة الخاطفة إلى الإصلاح .

وللإصلاح لدينا حديث طويل نرجئه إلى حين ، ولكن لنابعض التوصيات ..وإليك البيان :

(١) باب (عطف النسق)

(٢) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا (أبو زكريا الفراء) ص ٤٠٣ فما بعدها - توزيع دار المعارف بمصر .

(٣) راجع ص ٤٠٩ فما بعدها من المصدر السابق بعنوان (المنهج اللغوى السليم)

التوصيات التى يهدف إليها هـذا البحث تتركز فيما يأتى :

١ – الاقتناع الحقيقى بأن القداسة للشواهد القرآنية .. وليست للقواعد النحوية .
ويترتب على ذلك :

٢ – تعديل القواعد على أساس الوارد من الشواهد .

٣ – الإصلاح الجزئى .. إذا تعذر الإصلاح الكلى الجذرى[1]

٤ – تضافر الجهود لإخراج (النحو القرآنى) وتعميمه فى جميع البلاد العربية والإسلامية ، والاستعانه فى ذلك بكل الوسائل المتاحة علميا ودينيا واجتماعيا .. وتتمثل هذه الوسائل فيما يلى :

(أ) فى المجامع اللغوية المتعددة .

(ب) وفى الجامعات والمعاهد العليا تلك التى تعنى بالدراسات العربية والإسلامية .

(ج) وفى جامعة الدول العربية لما لها من صلات .

(د) وفى المؤتمرات الإسلامية ومراكزها الفعالة .

(هـ) وفى وسائل الإعلام باختلاف ألوانها وأنشطتها .

(و) وأخيرا الاستعانة بالحكومات الإسلامية المؤمنة لتقرير هذا النحو فى مراحل التعليم المختلفة ؛ ليتسنى له البقاء والخلود .. بعد الظهور إلى حيز الوجود .. وإلا أصبح حبرا على ورق ، وضاع فى غمار الحياة .. وكأنه صيحة فى واد أو نفخة فى رماد ، ومهما يكن من شئ فإننى راض عن النتائج .. حيث إننى شاركت ونبهت .. ومازلت أنادى وأصيح .. ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

(وبعد) فأود أن تحكموا بينى وبين سيبويه العظيم .. هل ظلمته .. أو تجنيت عليه ؟

ما أظن هذا ولا ذاك .. فتلك نتيجة البحث المنهجى الصرف .. وقد حكمنا عليه بما رأيناه واستخرجناه من كتابه هو .. وحملناه أوزار ما صنعت يداه — إن جاز لنا أن نحمل الباحثين المجتهدين شيئا من الأوزار — وقديما قالوا فى الأمثال العريقة : «يداك أوكتا وفوك نفخ» .

على أننى لم يكن من أهدافى قط أن أنال من شيخنا الكبير سيبويه إمام النحاة .. أو أغض من شأنه فى قليل أو كثير .. بل على العكس — كما يقول أحد الزملاء الفضلاء العقلاء — أننى بذلك دافعت عن سيبويه دفاعا مجيدا .. حيث أبعدت عنه شبهة الزندقة أو الإلحاد .. ونسبت هذا الصنيع فى المعارضات إلى النزعة النحوية من العصبية

---

(١) نفس المصدر .

المذهبية، والتمسك بالقواعد إلى حد كبير. والهدف الأساسي عندى هو التنبيه إلى بعض الثغرات التى نفذ منها الفساد إلى النحو العربى ثم العمل على سد هذه التغرات .. ومحاولة الإصلاح بالقدر المستطاع .. ونتمنى أن يتحقق شيء من ذلك . وألا نقول مقالة الشاعر الأول :

« وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟! »

والآن بعد مئات السنين .. بعد ألف سنة أو تزيد .. يفكر العالم فى تكريم سيبويه بإقامة مهرجان له فى إيران .. وإذا أردنا أن نكرمه حق التكريم ينبغى علينا أن نعكف على كتابه الخالد. وندرسه دراسة جادة واعية ناضجة متعمقة .. ونستخرج منه الكنوز الدفينة التى احتواها .. ثم ننظر إليها فى ضوء مناهج البحث الحديث .. ونقف منها موقف الباحث لا موقف المناظر .. وفرق كبير كبير بين الموقفين كما تعلمون .

هكذا يكون تكريم سيبويه العملاق .. وهكذا يكون الانتفاع بعلمه الغزير .. فى كتابه الفريد ، ولا يتأتى ذلك إلا بالتعمق العميق فى دراسة الكتاب ..

ومعظم الباحثين فى عصرنا الحديث يهابونه هيبة شديدة ، ولا يكادون يقتربون منه ولهذا أهمل أو كاد فى كثير من الجامعات الحديثة .

أما فى العصر القديم فإنهم كانوا يقدرونه بطريقتهم الخاصة .. ومن بينها الحفظ والاستظهار، على نحو ما كان يفعل القدماء فى المغرب والأندلس .. وعلى رأسهم حمدون النحوى(١) ذلك الذى قالوا عنه: إنه أول من حفظ كتاب سيبويه عن ظهر قلب .. من الغلاف إلى الغلاف ، أو من الألف إلى الياء. كما يقولون .. فهنيئا له هذه الأولية .. وإن كنا ننظر إليها بمنظار آخر، ونقول كما قال بعض الحكماء : « إن هذا العمل الشاق لم يضف إلى النحو جديدا أكثر من أنه زاد نسخة من نسخ الكتاب .. فأصبح (حمدون) كتابا يمشى على قدمين » .

وفى النهاية : أعود فأقول : إننا نقدر سيبويه كل التقدير .. ولكننا لا نقدسه أى تقديس. وفرق كبير بين التقدير والتقديس.

احمد مكى الانصارى

(١) توفى نحو سنة ٢٠٠ هـ

في القرآن والعربية : (٢)

الصراع بين القراء والنحاة

للدكتور أحمد علم الدين الجندي

يتبين لنا من المقال السابق[١] مكانة القرآن الأقدس في النفوس والقلوب والأرواح، ومكانة القرآن في العالم الإسلامي، والمنهج الصارم الذي أخذ به القراء أنفسهم للمحافظة على النص القرآني، والضوابط والمعالم والمقاييس التي وضعتها الأئمة معيارا يعول عليه، وذلك كله بمثابة الجرح والتعديل لفن القراءات .

ولهذا كان الكتاب الكريم أعرب وأقوى في الحجة من الشعر[٢]، وأنه يختار له ولا يختار عليه، وأنه نزل بأفصح لغات العرب، وغير جائز توجيه شيء منه إلى الشاذ من لغاتها وله في الأفصح الأشهر معنى مفهوم ووجه[٣] معروف » ومن هنا رأى علماء القراءات أن تصحح قواعد العربية بالقراءة لا أن تصحح القراءة بقواعد العربية. فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو ، أو كثير منهم ، ولم يعتبر إنكارهم ، بل أجمع الأئمة المعتد بهم من السلف قبولها وقد شدد علماء القراءات النكير على هؤلاء المخالفين ولقد حاول النحاة أن يسيطرو على حقل الدراسات القرآنية فضيقوا وحجروا وأولوا وعابوا على القراء ونسبوهم إلى اللحن والوهم .

وسأقدم بين يدي القارىء منهجا يتجلى في :

أولا : موقف النحاة من القراءات التي صورت لهجات قبائل عربية منسوبة : سبعية كانت هذه القراءات أو ماوراء ذلك

ثانيا :

موقف النحاة من القراءات التي صورت لهجات قبائل عربية غير منسوبة موضحا مكانها من السبعة أو مازاد عنها ، ويكون ذلك من خلال عرض النصوص الموثقة الأمينة حتى أشرك القارىء معي فيما أراه، وأميل إليه وأحكم به .

ثالثا : تغيرات وروايات قرائية أخرى.

رابعا : مقياس الصواب والخطأ عند كل فريق منهم .

(١) نشر بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة عدد ٣٣ .

(٢) معاني الفراء ١ / ١٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٢ / ٣٢٢ .

(٤)

أولا : طعنهم فى القراءات القرآنية التى تمثل لهجات عربية معزوة :

(ا) فى قوله تعالى : «ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل[1] » قرأ حمزة بكسر الياء ووافقه الأعمش ، وأبو عمرو بن العلاء وهى لغة[2] بنى يربوع إذ الكسر عندهم مطرد فى الياء المضاف إليها جمع المذكر السالم فى حالة الوصل ، وقد قال القاسم بن معن عن هذه القراءة (إنها صواب)[3] (وكان معن هذا ثقة بصيرا) وقال عنها الأخفش « ماسمعت هذا من أحد من العرب ولا من النحويين »[4] كما وصفها الزجاج بأنها « عند جميع النحويين رديئة مرذولة[5] » وأنكرها كذلك أبو حاتم ، ورماها الزمخشرى ، بالضعف وزاد فى إضعافها وتهوينها بأن الشاهد الشعرى عليها لرجل مجهول ، والحق أن الشاهد للأغلب العجلى ورواه أبو شامة فى أول ديوانه[6] ويرى المعرى : إجماع أصحاب العربية على كراهة هذه القراءة كما يرى أن أبا عمرو ما جاز هذه القراءة الا متهزئا[7] ، وكأنه يشير بذلك إلى ماجاء عن أبى عمرو عندما سئل «إن أصحاب النحو يلحنوننا فيها فقال : هى جائزة[8]» أما موقف أبى العباس المبرد فكان صارما عنيفا يصور غضبه هنا

وثورته ماجاء فى تفسير القرطبى[9] على لسان المبرد من قوله « لو صليت خلف إمام يقرأ (بمصرخى) بالكسر لأخذت نعلى ومضيت » فانظر كيف يحتج الرجل على سماعه لهجة عربية تواكبها قراءة قرآنية بخروجه عن جماعة المسلمين وإمامهم .

ويرى ابن الجزرى : أنها قراءة صحيحة اجتمعت فيها الأركان الثلاثة . ثم يقول «وقياسها فى النحو صحيح[10]» .

واستنبط من هذا العرض أن البصريين أنكروا هذه القراءة إذ أن الأخفش والزجاج وأبا حاتم والمبرد والزمخشرى على مذهب البصريين ، أما القاسم بن معن فهو من من رؤساء النحويين الكوفيين ، ولهذا أجاز القراءة بها ، كما أجازها أبو عمرو بن العلاء ، لأنه إمام فى القراءة ، والمجيزون على حق ، لأن هذه القراءة صحت سماعا ، كما أنها صحت قياسا ، إذ الياء كسرت اتباعا للكسرة التى بعدها فى (بمصرخى إنى) واللسان

---

(١) إبراهيم آية ٢٢ .
(٢) الخزانة ٢ / ٢٥٨
(٣) النشر ٢ / ٢٩٩
(٤) البحر المحيط ٥ ـ ٤١٩
(٥) إبراز المعانى ٣٦٩
(٦) حاشية يس بن زين الدين على التصريح ٢ / ٦٠
(٧) الغفران : للمعرى ٢٣٩ ـ ٢٤٠ دار المعارف
(٨) ابراز المعانى ٣٧٠ (٩) / ٣٠
(١٠) النشر ٢ / ٢٩٩ .

فيها يعمل من موضع واحد، ووجه واحد، ففيها الانسجام وتقريب الأصوات بعضها من بعض، وتلك شريعة العربية وسنة فيها متبعة. وذلك ما يميل إليه البدو أمثال « بني يربوع » والعجيب ان ينكر هذه القراءة القرآنية السابقة شيخ من علماء الكوفة، ويرمي قارئيها بالوهم، ذلكم هو أبو زكريا الفراء حيث يقول : حدثني القاسم بن معن عن الأعمش عن يحيي أنه خفض الياء، ولعلها من و هم القراء طبقة يحيي فإنه قل من سلم منهم من الوهم.[1]

(ب) كما قرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع وغيره قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا »[2] بضم التاء — وحكى أنها لغة أزد شنوءة.[3] وقال عنها الزجاج هذا غلط من[4] أبي جعفر « كما خطأها الفارسي[5] ولم يجزها الزمخشري »[6] لأن حركة الاعراب عنده لا يصح أن تستهلك لحركة الاتباع.

ولكن أرجح أن العربية تحرص على الانسجام الصوتي والاتباع حرصها على على الإعراب، ولهذا « رواها الكسائي » ووجهها أن التاء ضمت اتباعا لحركة الجيم.

ولو لم يتبعوا لخرج اللسان من كسر إلى ضم، والعرب تكره ذلك.

وأرى من ذلك أن الزجاج، والفارسي والزمخشري وكلهم بصريون قد غلطوا أبا جعفر أحد القراء المشاهير الذين أخذوا القرآن عرضا عن عبد الله ابن عباس، ثم هو شيخ نافع بن أبي نعيم أحد القراء السبعة، ثم هو لم ينفرد بهذه القراءة، بل قرأ بها غيره، وشاركه فيها الكسائي الكوفي، وإذا ثبتت لهجة عربية فلا ينبغي أن نخطأ بها بها القارئ أو يغلط.

ومما يتصل بحركة الانسجام هذه، قراءة الحسن (الحمد لله) بكسر الدال واللام، وقراءة ابن أبي عبلة (الحمد لله). بضم الدال واللام، وهما قراءتان لأهل البدو،(*) وقد عزيت القراءة الأولى لتميم وبعض غطفان، كما عزيت الثانية لربيعة، وقد ذهب البصريين إلى أنهما قراءتان شاذتان في الاستعمال ضعيفتان في القياس، كما وسمها الزجاج (البصري) بقوله « ولا يلتفت إلى هذه اللغة ولا يعبأ بها ».[7]

كما حكى الصفار عن علي بن سليمان (الأخفش) أنه عقب على تلك القراءة بقوله « لا يجوز من هذين شيء عند البصريين، يقصد « الحمد لله » ، « الحمد لله »[8].

---

(١) معاني الفراء ٢ / ٧٥ . ويقرر الفراء وهم القراء : بأنهم ظنوا أن الباء في (بمصرخي) خاصة للحرف والياء من المتكلم خارجة من ذلك.
(٢) سورة البقرة آية ٣٤ . !
(٣) النشر ٢ / ٢١٠ فما بعدها .
(٤) البحر ١ / ١٥٢ .
(٥) البحر ١ / ١٥٢ .
(٦) النشر ٢ / ٢١١ .
(*) المقصود لقراءة أهل البادية ما يقرؤه بعضهم من غير مراعاة للرواية ؛ وكثيرا ما ربط علماء العربية بين الفصاحة والبداوة . والحق أن سمة الفصاحة لم يستأثر بها البدو وحدهم . يقول ابن بسام : إنه كثيرا ما سمع من الأعراب ألفاظا مستكرهة قبيحة : العربية ١٦٣ فوك .
(٧) اللسان ٤ / ١٣٣
(٨) نزهة الألباء : ٣٦٤

والحق أن هذه الحركات المنسجمة وإن تعارضت مع الإعراب فى حالة كسر الدال الا أن لها وجها مقبولا، إذ أن هذا التركيب لما كثر تداوله عند العرب جُعل هذا التركيب مثل الكلمة الواحدة، ولا شك أن الكلمة الواحدة يستقل فيها الانتقال من ضمة يتلوها كسرة و العكس، فأثروا الكسرتين حينا، مع أن الحمد مبتدأ مرفوع، كما ضموا اللام اتباعا للدال فى القراءة الثانية. وقد اجتهد الكوفيون فى توثيق هاتين القراءتين، لاسيما قد نسبتا لهجة لبعض القبائل.

(ج) كما وردت عدة قراءات لآيات كريمة، وكلها تفيد التقاء الساكنين على غير حدة منها:

١ – قوله تعالى «أمّن لا يهِدّى إلا أن يُهْدَى»[1]

٢ – قوله تعالى «إن الله نعمّا يعظكم به»[2]

٣ – قوله تعالى «إن تبدوا الصدقات فنعماهى»[3]

٤ – «تأخذهم وهم يخصّمون»[4]

٥ – «لا تعدوا فى السبت»[5] بتشديد الدال.

٦ – كما ورد فى الأثر: نعما المال الصالح.

فقد قرأ أهل المدينة بتسكين الهاء وتشديد الدال، فجمعوا بين ساكنين فى الآية الأولى كما ذكر الشمس ابن الجزرى أن العراقيين والمشرقيين قدرووا الإسكان أى إسكان العين مع تشديد الميم فى الآيتين الثانية والثالثة. وبهذا قرأ أبو جعفر أيضا فى الآية الرابعة بإسكان الخاء وتشديد الصاد وبإسكان العين مع تشديد الدال فى الآية الخامسة.

ولقد ساق أبو شامة ما يفيد بأن التقاء الساكنين فى مثل ذلك إنما هو لغة النبى صلى الله عليه وسلم، كما أيد ذلك صاحب البحر «والتقاء الساكنين على غير حدة أجازه الكوفيون» ومن الواضح أن تلك القراءات التى تثبت التقاء الساكنين إنما وردت عن طريق القراء موصولة بسندها، فإذا نظرنا إلى جانب النحاة البصريين فسنرى اتهامات شنيعة لتلك القراءة منها:

١ – ماساقه ابن منظور من أن الزجاج اتهم القراءة مرة بقوله «ليست بمضبوطة»[6] وأخرى بأنها «شاذة»[7] وقال عنها ثالثة بأنها رديئة»[8]

٢ – وعقب أبو علىّ على من قرأ بها «بأن قوله لم يكن مستقيما عند النحويين، لأنه جمع بين ساكنين، الأول منهما ليس بمد ولين»[9]

---

(١) سورة يونس آية ٣٥

(٢) سورة النساء آية ٥٨

(٣) سورة البقرة ٢٧١

(٤) سورة يس آية ٤٩

(٥) سورة النساء آية ١٥٤

(٦) اللسان ١٦ – ٦٧

(٧) اللسان ٢٠ – ٢٣٠

(٨) البحر المحيط ٢ – ٣٢٤

(٩) ابراز المعانى ٢٦٢ .

٣ — كما وصف محمد بن يزيد أحد مؤيديها بقوله « وهو من عجيب اختباراته » وجمع هؤلاء الطاعنين فيها من نحويي البصرة ، أما الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فقد أيدها وهو كوفي ، كما أيدها الفراء ، ومنهم الداني بقوله « إن الإخفاء أقيس . والإسكان آثر»(١)

وإنما آثرت لهجة النبي صلى الله عليه وسلم وقريش التقاء الساكنين لأن التقاءهما دليل على الأداء الكامل وإعطاء الصوت حقه دون أن يطغى عليه مجاوره بالحذف أو التأثير وتلك صفة من صفات الحضر الممثلين فى قريش . والحق أن تتبع كتب القراءات توقفنا على كثير من القراءات القرآنية التى تمثل لهجات عربية تلك التى تجهم لها البصريون وغيرهم من النحاة، ووقفوا منها موقف المعارضة لأنها خالفت أصولهم وقواعدهم ، فحاولوا تأويلها أو رفضها ، ولهذا كان استقراؤهم ناقصا حين اعتمدوا فى الأخذ عن القبائل المشهورة فقط ، واصطدمت بقراءات القرآن تلك التى تمثل لهجات عربية مشهورة ومغمورة ، وموقف النحاة هذا الموقف من القراءات وهى تستند على ما بين اللهجات من خلاف ، وانحراف عن المنهج السليم ، لأنهم ضيعوا علينا كثيرا من الدراسات فى الجانب اللغوى ، وحجروا واسعا وضيقوا ، وماذا عليهم لو جعلوا قواعدهم مرنة تتقبل المأثور المروى من القراءات أو عدلوها واتخذوا شواهد لها من القراءات على أن إجماع النحاة ليس حجة مع مخالفة القراء لهم ؛ لأن من القراء جماعة من أكابر النحويين ، ثم ولو قدر أن القراء ليس فيهم نحوى ، فإنهم ناقلون لهذه اللغة وهم مشاركون للنحويين فى نقل اللغة ، فلا يكون إجماع النحويين حجة دونهم ، والقراء أولى ، لأن القراءة متواترة وما نقلة النحويون آحاد .

(د) تميل القبائل الحضرية إلى تخفيف النون فى الصيغ الآتية :

١ — اللذان ٢ — اللذين ٣ — هذان

٤ — هاتان

فحركة النون حقيقة على لهجة قريش والحجاز(٢) على حين تميل بعض القبائل البدوية إلى تشديد هذه النون، وقد وردت قراءات على الصيغتين : التخفيف والتشديد فمنها :

١ — قوله تعالى : « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » (٣)

٢ — وقوله جل شأنه : « هذان خصمان»(٤)

٣ — وقول عز وجل : « فذانك برهانان من ربك » (٥)

٤ — وقوله سبحانه وتعالى : « إحدى ابنتى هاتين» (٦)

(١) الإتحاف ١٩٦ ، النشر ٢ — ٢٥٣ .
(٢) ارتشاف الضرب لأبى حيان ١ — ١٣٦ مصور بدار الكتب رقم (٦١٥٦هـ)
(٣) سورة النساء آية ١٦
(٤) سورة الحج آية ١٩
(٥) سورة القصص آية ٣٢ .
(٦) سورة القصص آية ٢٧

٥ — وقوله عز شأنه «ربنا أرنا اللذين أضلانا»[١] فابن كثير قرأ بتشديد النون فيهما كليهما[٢] وقرأ باقى السبعة بتخفيفها[٣] ولقد حدد صاحب التصريح القبائل التى تميل إلى تشديد النون ، وهى : تميم وقيس وهما من القبائل الضاربة فى البداوة .

ولكن البصريين[٤] كما روى عنهم أبو حيان[٥] لايجيزون التشديد فى حالتى النصب والجر . ولكن ورود هذا التشديد فى القراءات القرآنية حجة عليهم . ويمكن أن يحتج لكلتا اللهجتين ؛ بأن من شدد فكأنه جعل التشديد عوضا عن الياء المحذوفة فى (الذى) إذ كان مقتضى القياس : اللذيان واللتيان ، كما تقول : القاضيان، ويمكن أن يكون هذا التشديد تأكيدا للفرق بين تثنية المبنى والمعرب . وهو ماراه صاحب التصريح . وأما من خفف فحجته أن العرب قد تحذف طلبا للتخفيف من غير تعويض

(هـ) من الثابت فى العربية أن الحركات والسكنات يتعاقبان على الصيغة ويتقاصفان عليها فيؤلفان نمطا منسجما يتواكب مع المعانى الوظيفية للكلمة . فقد كثر عن العرب مثلا فى مجىء المصدر على فعل ساكن العين ، واسم المفعول منه على فعل مفتوحها : كالنفض والنفض والخبط والخبط .[٦]

وتلك لعمرى شفافية من العربية فى لحظ هذه الظلال الدقيقة بين السكون والفتح . ولهذا كثر التفريع فى (فعل) بكسر العين ، وضمها . أما صيغة (فعل) بفتح الفاء والعين فلا تفريع فيها عند النحاة . لأن الفتح ضعيف فلا داعى للخروج عنه : يقول سيبويه[٧]«وأما ماتوالت فيه الفتحتان فإنهم لايسكنون منه ، فلا يقولون فى جمل (بفتح الميم) جمل (بسكونها) » .

وفى ركاب سيبويه يسير السيرا فى[٨] وابن جنى فى محتسبه حيث يقول معلقا على قراءة أبى السمال وأبى المتوكل وأبى الجوزاء (حتى يلج الجمل[٩] : وأما الجمل بالسكون فبعيد أن يكون مخففا من المفتوح لخفة الفتحة .

وأرى أن كلا من سيبويه ومن تبعه فى مذهبه قد جانبهم الصواب لورود ذلك فى القرآن المعجز . ومن ذلك :

١ — قراءة جمع من القراء « حتى يلج الجمل » بسكون الميم ؛ وذلك تخفيف من الفتح

---

(١) سورة فصلت آية ٢٩
(٢) اتحاف فضلاء البشر : ١٨٧
(٣) البحر المحيط ٧ — ١١٨ !
(٤) شرح التصريح ١ — ١٣٢
(٥) البحر ٧ — ٤٩٥٩
(٦) المحتسب لابن جنى ٢ — ٦٢ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : تحقيق الأستاذ على النجدى ، والدكتور عبد الفتاح شلبى .
(٧) الكتاب ٢ — ٢٥٨ ، ٢ — ٢٨١
(٨) فى شرحه على سيبويه ٥ — ٤١٦
(٩) سورة الأعراف ٤٠ وانظر المحتسب فى نفس السورة والآية .

٢ – وقراءة أبي عمرو بن العلاء التميمى أحد القراء السبعة «ويدعوننارغبا ورهبا[١]» بالإسكان .

٣ – كما خففت الجماعة المفتوح فى (كانتا رتقا)[٢] .

٤ – ومن تخفيف المفتوح مافى البديع لابن خالوية : «ومن يقتل مؤمنا متعمدا »[٣] ساكنة التاء وقد حكم النحاة على تلك القراءة بأنها فى غاية الشذوذ والوهن ..

٥ – وقراءة أبي عمرو «فى قلوبهم مرض »[٤] ساكنة الراء .

٦ – وقراءة ابن محيصن (أمنةنعاسا)[٥] ساكنة الميم .

ولاأدرى لم رمى النحاة هذه القراءات الموثقة بالشذوذ والوهن ، إلا أن تكون قد خالفت قواعدهم التى حكموها فى حقل العربية حتى جعلوه ضيقا حرجا، على الرغم من أنها تمثل لهجات قبائل : تميم وبكر ابن وائل ، وقبائل ربيعة وأكثر قبائل أسد ، وعامة قبائل قيس المتاخمة لتميم، وذلك لأنهم يميلون جميعا إلى السرعة فى النطق حيث يحذفون الحركات وفى ذلك تيسير واقتصاد فى الجهد العضلى . وذلك مايهدف إليه الأعراب والبداة الجفاة[٦] .

(و) الحركة الإعرابية بين النحـاة والقراء .

(أ)يرى بعض النحاة – جواز حذفها مطلقا – وعلى هذا ابن مالك .

(ب) ويرى كثير منهم عدم حذفها مطلقا فى الشعر ؛ ومن هؤلاء المبرد وأضرابه.

(ج) جواز حذفها فى الشعر ، ومنع هذا الحذف فى الاختيار ، وهذا رأى جمهور النحاة [٧] .

أما القراء فقد روى عنهم حذف الحركة الاعرابية .

أولا : فى الفعل المضارع :
فى قوله تعالى « ينصركم[٨] »و« يأمركم» و« يأمرهم » و«تأمرهم» و« يشعركم» و « ويعلمهم » . فقد أسكن أبو عمرو بن العلاء فى هذه المواضع كلها . [٩]

---

(١) سورقة الأنبياء آية ٩٠

(٢) الأنبياء ٣٠

(٣) سورة النساء آية ٩٢

(٤) سورة البقرة ١٠ وانظر المحتسب ١ – ٥٣

(٥) سورة آل عمران ١٥٤ والمحتسب ١ – ٢٧٣ .

(٦) انظر مقالتنا فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة جزء ٢٩ .

(٧) حاشية عبادة على الشذوز ٢ – ٣١

(٨) فى آل عمران والملك .

(٩) إبراز المعانى ٢٣١

ثانيا : فى الأسماء : يدل لذلك قراءة مسلمة بن محارب « وبعولتهن أحق بردهن[1] بسكون التاء . وقراءة أبى عمرو « فتوبوا إلى بارئكم » بسكون الهمزة[2]. «ورسلنا لديهم »بضياع حركة الإعراب [3]

وقراءة حمزة « استكبارا فى الأرض ومكرالسيء ولايحيق المكر السيء إلا بأهله[4] بإسكان (السيء الأولى) المجردة :

ولكن المؤسف حقا أن نرى موقف الكثير من النحاة، حيث أنكروا الإسكان .

(أ) فسيبويه والمبرد والسيرافى والفارسى وابن جنى والزجاج ينكرون الإسكان فيحمل سيبويه ظاهرة الإسكان فى قراءة أبى عمرو على الاختلاس ، والمبرد يسم قراءة أبى عمرو باللحن[5] وابن جنى حين نكر الظاهرة يشنع على القراء فيقول [6]

ولم يؤت القوم (يقصد القراء) فى ذلك من ضعف أمانة ولكن أوتوا من ضعف دراية » والسيرافى يذهب مذهب سيبويه ويسم تلك الظاهرة بالضرورة . [7]

ولا أدرى كيف يكون حذف الحركة . الإعرابية ضرورة مع ورود القرآن به

ثالثا : أنماط أخرى من حذف الحركة منها :

(أ) تسكين الياء المنصوبة فى الآخر فى قراءة طلحة بن سليمان «أن يحي الموتى»[8] ساكنة [9]

(ب) وقراءة « ثانى اثنين » [10]

(جـ) وقراءة السلمى[11] «ألم ترأن الله» وقراءة أبى عبد الرحمن : «ألم تركيف»[12]

(د) وقراءة « أو يعفو الذى بيده[13] » بالسكون [14] .

(١) سورة البقرة ٢٢٨ وانظر النشر ٢ — ٢١٤

(٢) المحتسب ١ — ١١٤ مخطوط بالتيمورية .

(٣) البحر ٢ — ١٨٨ .

(٤) سورة فاطر آية ٤٣!

(٥) البحر ٢٠٦

(٦) الخصائص ١ — ٧٥ ط الهلال .

(٧) شرح السيرافى ١ — ٣٢ مخطوط برقم ١٣٧ دار الكتب .

(٧) سورة القيامة ٥٠

(٨) المحتسب ٢ — ٣٤٢ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٩) سورة التوبة آية ٤٠

(١٠) سورة إبراهيم آية ١٥ والمحتسب ١ — ٣٦٠ ط المجلس الأعلى

(١١) سورة الفيل آية ١ وانظر المحتسب ٢ — ٣٧٣ ط المجلس الأعلى .

(١٢) سورة البقرة آية ٣٣٧

(١٤) الهمع ١ — ٥٣

رابعا : حذف الحركة الإعرابية فى الشعر ذلك كثير :

(أ) ماجاء فى شرح السيرافى من قول الأقيشر الأسدى :

رحت وفى رجليك مافيهما
وقد بدا هَنْكَ من المئزر

بسكون النون . (١)

(ب) وما أنشده أبو على لجرير:

سيروا بنى العم فالأهواز منزلكم
ونهر تيرى فما تعرفْكم العرب (٢)

وهناك روايات أخرى فى الشعر كثيرة حذفت فيها الحركة الإعرابية (٣)، ولكن النحاة عز عليهم ضياع الحركة الإعرابية فى هذه الشواهد وغيرها فرووا لها روايات أخرى لاإسكان فيها حتى تسلم لهم قواعدهم ومقاييسهم ، وحتى لايروا ذهاب حركة الإعراب لغير ماسبب .

وظاهرة الإسكان التى أنكرها النحاة وأيدها القرآن والنثر والشعر على السواء هى لهجات لقبائل عربية : كتميم ، وأسد وبعض نجد ، وبكر بن وائل وبعض قيس . (٤)

أما قبائل الحجاز فكانت تحافظ على حركة الإعراب(٥). ويظهر أن ظاهرة الإسكان بدأت تنازل الحركة الإعرابية ، وتستولى على أمكنتها ، وتزحف على أراضيها ، وتسيطر على بقاعها .

ومما يؤيد ذلك ماقرأ به محمد ابن عبد الرحمن بن محيصن ، وهو من قراء مكة : باسكان لام الفعل فى كل من هذه الأفعال وغيرها نحو « يعلمهم ونحشرهم » وتفسير هذا أن ظاهرة الإسكان زحفت من تميم وقبائلها فى شرق الجزيرة حتى اقتحمت دوائر الحجاز فى غربها .

والحق أن حركة الإعراب ضاعت فى ظواهر كثيرة من اللغة :

ضاعت فى الوقف ، كما ضاعت فى الإدغام طلبا للتيسير والخفة .

فذهاب الحركة الإعرابية لايخالف العربية — لاسيما قد أيدتها قراءات قرآنية موثقة ، والقراء متبعون لامبتدعون . وإذا كان كذلك — أصبحت القراءة حجة على النحاة والطعن على تلك القراءات مردود ، ورمى القراء بالغفلة والوهن وعدم الضبط ظلم وحيف .

---

(١) شرح السيرافى ١ — ٢٦٧ مخطوط — تيمور .

(٢) شرح السيرافى ١ — ٢٦٨ غ الخصائص ٢ — ٣٤٠

(٣) اللهجات العربية لصاحب المقال ٦٣٨ .

(٤) انظر الإتحاف ١٣٦ ، وإبراز المعانى ٢٣١ ، النشر ٢ — ٢١٢ ، البحر ١ — ٢٠٦ .

(٥) المحتسب ١ — ١١٤ مخطوط .

ثم إن الحركة الإعرابية التى عز على النحاة ضياعها فى بعض القـــراءات والشواهد ليست هى القرينة الوحيدة الدلالة على المعنى فهى واحدة من القرائن التى تتظاهر لكشف اللبس عن المعنى ، واطراح إحدى هذه القرائن – والعلامة الإعرابية واحدة منها – غير محظور ولا منكر مادام لن يؤدى إلى ليس أو غموض .[1]

على أن النحاة ليسوا بأوثق أمانة ، وأوفى عهدا ، وأرعى ذمة ، واطيب نفسا من القراء ، فضلا عن أن تخطئة النحاة للقراء فى هذه الظاهرة مظهر من مظاهر المعيارية المرفوضة ، واتجاه بعيد عن الصواب والجادة لأنهم لم يلتزموا بالأصل العام [الذى قرروه لأنفسهم من الاحتجاج بالقرآن وقراءاته

(ز) – روى أبو عبيدة عن يونس ان : أهل مكة يخالفون غيرهم من العرب فيهمزون النبى عليه السلام والبريئة والذرية.[2]

وينقل صاحب اللسان [3] عن سيبويه أنه قال : والهمز فى النبى لغة رديئة ، والنبى قد يكون أصله من النبأ – بمعنى أنه أنبأ عن الله فأصله على هذا الهمز ، وقد يكون أصله من النبوة والنباوة ، وهى الارتفاع عن الأرض فكأنه أشرف على سائر الخلق ، فأصله على هذا غير الهمز .

والمعروف ان بيئة الحجاز تنفر من الهمز فى لهجاتها ، والشذوذ لهجة مكة حين نطقوا بالهمز فيما سبق ، لكن أن يعلل بأن اللهجات ليس من شأنها أن تلتزم حالة واحدة كشأن القوانين الطبيعية فى الكون ، وعلى كل فصنيع أهل مكة فى فى الكلمات التى همزت ، ومخالفتهم للعرب جميعا حيث يسهلون ذلك تدعونا إلى أن منطقة مكة فى هذه الألفاظ أشبه بالجزيرة اللغوية Speech Island لأن خصائصها فى هذا متميزة تخالف مايشيع عند العرب .

ومما هو جدير بالذكر ماروى أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم يانبىء الله – بالهمز فقال له : لاتنبر باسمى . أى لاتهمز[4]. ومثله ماجاء فى الحديث عن أبى ذر الغفارى وهو ماأخرجه الحاكم فى المستدرك : أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يانبىء الله ، فقال لست نبىء ، ولكن نبى الله وسند هذا الحديث ضعيف ، ومما يقوى ضعفه ماجاء فى تفسير القرطبى ١–٤٣١ أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أنشد :

ياخاتم النبئاء . إنك مرسل
بالحق كل هدى السبيل هداكا

بالهمز : "جمع نبىء – ولم يعترض على هذا

---

(١) الخصائص ١ – ٣٣٤ وما بعدها ، وانظر الضرورة الشعرية فى النحو العربى محمد حماسة . مخطوط مكتبة دار العلوم ورقة ٤٠٣ .

(٢) إصلاح المنطق ١٥٩ ، وانظر اللسان : ١ – ٢٢ والنهاية لابن الأثير ٤ – ١٢٠ .

(٣) ١ – ١٥٧ .

(٤) اللسان ٧ – ٤٠ .

وارى انه من المحال أن يكلف النبي صلى الله عليه وسلم رجلا بأن ينتقل من لهجته الى لهجة أخرى لما ذلك من العنف والمشقة — وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم .

وقد يكون الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كره (النبيء) بالهمزة ، لأنه قد قد يتوهم أنه من (نبأ من أرض إلى أرض (أى خرج منها ، فقد يحمله بعض من يضمر السوء — على خروجه من مكة إلى المدينة على غير وجه التكريم .

ويهمنا هنا أن نناقش سيبويه — وهو رائد النحاة المتقدمين فى قوله عن (النبئ) بالهمز — « وذلك قليل ردىء »[1] مع أن ابن سيده فى المخصص[2] ينقل عن سيبويه قوله « وليس أحد من العرب إلا وهو يقول : « تنبأ مسيلمة » وإذا كان سيبويه يرى بأن أصلها الهمز فلم استردأها ؟

ويمكن الدفاع عن سيبويه بأنه استردأها بالهمز ، لشذوذه عن الاستعمال ، وإن كان مطردا فى القياس ، فقلة استعمالها بالهمز هو الذى جعل سيبويه يقول برداءتها.

ولكن على الرغم من هذا الدفاع عن سيبويه ومن جاء بعده من النحاة فما زالت التهمة متمسكة بأثوابه ، لأنه عرّض بقراءة نافع ، ونافع أحد القراء السبعة وقد حقق ذلك فى قراءته ، فقرأ (النبيء) بالهمز فى القرآن ، كما قرأ هو وابن ذكوان « أولئك هم خير البرية » بالهمز.[3]

وما كان لسيبويه أن يحكم عليها بالرداءة لأن أئمة القراء لا تعمل فى شى من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة ، والأقيس فى العربية بل على الأثبت فى الأثر ، والأصح فى النقل والرواية — إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها » .[4]

فاذا أضفنا إلى ذلك أن النبيء بالهمز لهجة عربية مكية ، وأنها قراءة نافع[5] ابن أبى نعيم الذى يصفه ابن الجزرى بأنه : أحد القراء السبعة والأعلام ثقة صالح ، كما قرأ على سبعين من التابعين . وفيه يقول أنس ابن مالك :

قراءة أهل المدينة سنة ، قيل له قراءة نافع ؟ قال : نعم . ويصفه قالون : بأنه

---

(١) الكتاب لسيبويه ٢ — ١٧٠

(٢) سفر ١٤ — ٧٥

(٣) الإتحاف ٤٤٢

(٤) منجد المقرئين ومرشد الطالبين ؛ للإمام شمس الدين محمد بن الجزرى ص ٦٥ نشرة مكتبة القدسى ١٣٥٠ هـ

(٥) غاية النهاية ٢ — ٢٣٠ فما بعدها .

من أطهر الناس خلقا ، ومن أحسن الناس الناس قراءة وكان زاهدا جوادا صلى فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ستين سنة.

وحسبك بعد هذا الثناء العاطر ، والعطاء المتجدد من شيخ القراء أنه لما حضرته الوفاة قال له أبناؤه : أوصنا . قال : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين .

ولهذا كله كانت التهمة محيطة بالنحاة وعلى رأسهم سيبويه حيث استردأ قراءة متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعلماء النحو بعامة مولعون بتخطئة هذا القارئ الثبت : نافع بن أبى نعيم . وما دمنا فى قضية (الهمز) وبطلاها : نافع القارئ وسيبويه النحوى فاليك نموذجاً من أحكامهم ومقاييسهم فى قضايا الهمز — التى إن دلت فانما تدل على مدى صلفهم وغطرستهم .

قال أبو عثمان المازنى : « فأما قراءة من قرأ من أهل المدينة (معائش)[1] بالهمز فهى خطأ ، فلا يلتفت إليها ، وإنما أخذت عن نافع بن أبى نعيم ، ولم يكن يدرى ما العربية ، وله أحرف يقرؤها لحنا نحوا من هذا

وفى كتاب[2] ابن مجاهد أن خارجة ابن مصعب هو الذى روى القراءة السابقة[3] عن نافع ، ويحكم أبو بكر بن مجاهد فى كتابه السابق على القراءة : بالغلط

أما ابن جنى فيسير فى ركاب المازنى فيقول : « وإنما كان همزها خطأ عنده ، لأنها لا تخلو من أن تكون جمع (معاش) أو معيشة أو معيش فقد قال رؤبة :

(إليك أشكو شدة المعيش)

يريد (المعاش) وكل واحد من هذه فعينه متحركة فى الأصل ، فأصل : معاش : مَعْيَش ، وأصل معيشة : مَعْيَشَة أو مَعْيُشه على مذهب الخليل .

وأصل معيش : مَعيِش مكسور العين ليس غير ، ليس فى الآحاد اسم على مفعل بضم العين .

ثم قال : وإذا كان الأمر كذلك فحق : معاش ، معيش ومعيشة ، ألا تهمز فى الجمع ، لأنه قد كانت عينه متحركة فى الأصل ، فإذا احتاج إلى حركتها فى الجمع حركتها ولم يقلبها واحتملت الحركة ، لأنها قوية وهى من الأصل ، وقد كانت متحركة فى الواحد ، وإنما يهمز فى الجمع حروف المد واللين التى لا حظ لها فى الحركة فى الواحد نحو ألف « رسالة » وياء : « صحيفة » وواو : عجوز ، إذا قلت : رسائل ، وصحائف ، وعجائز[4]

---

(١) سورة الأعراف آية ١٠

(٢) المنصف شرح أبى الفتح عثمان بن جنى لكتاب التصريف لأبى عثمان المازنى النحوى البصرى ١ — ٣٠٧ فما بعدها . (٣) السبعة فى القراءات ط دار المعارف لابن مجاهد تحقيق د . شوقى ضيف ٢٧٨ .

(٤) المنصف ١ — ٣٠٨ فما بعدها .

ويسير المبرد مع أستاذه المازنى فيقول « فأما قراءة من قرأ (معائش) فهمز فانه غلط ، وإنما هذه القراءة منسوبة إلى نافع ابن أبي نعيم ولم يكن له علم بالعربية وله فى القرآن حروف قد وقف عليها »(1)

وابن خالويه يقول : من همز هذه الياء فقد لحن ، وقد روى خارجة عن نافع همزه وهو غلط (2)

ويقول عنها الزجاج « جميع نحاة البصرة تزعم أن همزها خطأ ، ولاينبغى التعويل على هذه القراءة » (3)

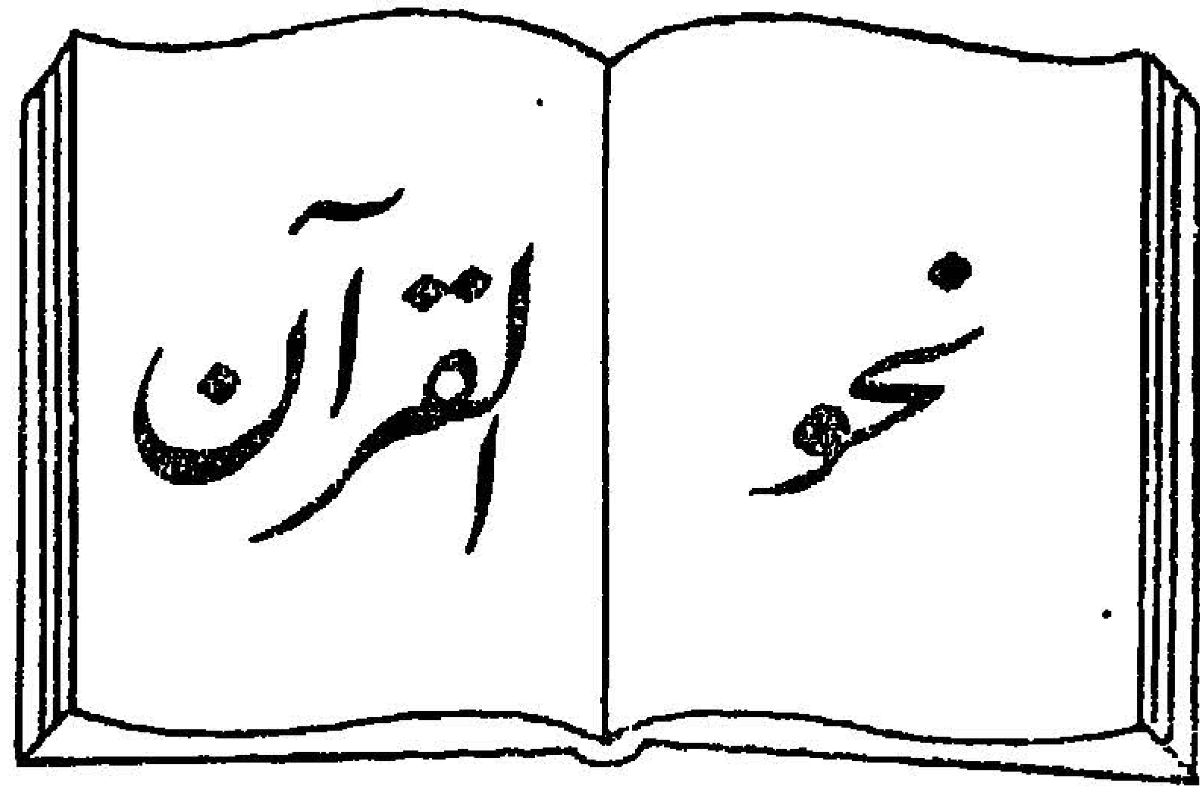
ولم يرو نافع وحده هذه القراءة فقد رويت عن الأعرج ، وزيد بن على ، والأعمش وابن عامر ، وكلهم ثقات : ابن عامر — وهو عربي صراح وقد أخذ القرآن عن عثمان قبل ظهور اللحن ، والأعرج : وهو من كبار قراء التابعين ، وزيد بن على : وهو من الفصاحة والعلم بالمكان الذى قل أن يدانيه فى ذلك أحد ، والأعمش : وهو من الضبط والإتقان والحفظ والثقة بمكان ، ونافع : وهو قد قرأ على سبعين من التابعين وهم من الفصاحة والضبط والثقة بالمحل الذى لايجهل يقول أبوحيان «فوجب(4) قبول مانقلوه إلينا ، ولامبالاة بمخالفة نحاة البصرة فى مثل هذا »

ومن الإنصاف أن نشير إلى موقف نحوى كوفى تحرج من أن يدلى بدلوه مع النحويين فيقول « فربما همزت العرب هذا وشبهه ، يتوهمون أنها فعيلة لشبهها بوزنها فى اللفظ وعدة الحروف . . . . وقد همزت العرب (المصائب) وواحدتها مصيبه ، شبهت بفعيلة لكثرتها فى الكلام »(5). فالقراءة السابقة وإن كانت شاذة إلا أن لها وجها فى العربية ، ونقلت عن طبقة بعد طبقة من القراء الفصحاء — وهم فى الضبط والتحرى والأمانة بالمكان الذى لايجارى :

أحمد علم الدين الجندى

---

(1) المقتضب للمبرد ١ — ١١٢ من المقدمة تحقيق الأستاذ عبد الخالق عضيمة .
(2) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ٢٩ لابن خالويه ط دار الكتب المصرية .
(3) البحر ٤ — ٢٧١
(4) البحر ٤ — ٢٧١
(5) معانى القرآن للفراء ١ — ٣٧٣ .



للدكتور
احمد عبد الستار الجواري

تعريف ونقد الأستاذ على النجدى ناصف

كتاب ألفه الأستاذ الدكتور أحمد عبد الستار الجوارى ، ونشره المجمع العلمى العراقى فيما ينشرمن مطبوعات . وأكبر الظن أن كلمة « نحو » فى عنوان الكتاب معناها جهة ، وأن السيد المؤلف أراد بالاسم المختار أن يدعوإلى الاتجاه نحو القرآن فى دراسة علم النحو.

وبعيد أن يكون مراده أن الكتاب يتعاطى بالدراسة والبحث نحو القرآن ، لأن هذا يعنى أنه قد اتخذ القرآن مصدرا لدراسة جديدة تتبع فيها مسائل النحو كما تتمثل فى القرآن ، وإلا كان اسم الكتاب على شىء من الخلاف مع شكله ومضمونه ،فشكله أصغرحجما وأقل صفحات من أن يحيط بالنحو كله ، ومضمونه مجردنماذج متفرقة من الملاحظات على بعض قضايا النحو ، يعرضها الأستاذ المؤلف على نور من البيان القرآنى الرفيع.

وأيا مايكن معنى المؤلف من عنوان كتابه ، وأيا اما يكن بين العنوان والكتاب من وفاق أو خلاف ، فالذى لاخلاف عليه أن الكتاب يشهد لصاحبه باجتهاد الرأى ، وحرية الفكر ، وحب العربية والغيرة عليها ، والرغبة فى تقويم نحوها ، واستنقاذه مما بداله أنه صناعة بغيضه ، وتكلف مرذول .

والكتاب يمقت التأويل والتقدير ، ويضيق بهما ، ويوشك أن يدير القول كله عليهما . ولاأدرى فيم مقتهما والضيق بهما ، وهما أمران لاغنى عنهما فى كثير من أساليب العربية ؟ فالكلام منه محكم قاطع الدلالة على معناه ، وآخر متشابه يمكن أن يفهم عنه غير وجه من المعانى ، فيحتاج القارئ أو السامع إلى تبيّن المعنى المراد به على التعيين سؤالا عنه ، أو نظرا فيه ،

واستخراجا لمستكنه، وترجيحا لوجه على وجه، استئناسا بالمقام وقرائن الأحوال .

وقد أنزل الله القرآن على هذا السنن، وذكر التأويل فيه وأسنده إليه - جل وعلا - وجعل الراسخين فى العلم أهلا له، وشركاء فيه، على أحد وجهى تفسير قوله تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتابَ مِنْه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الذين فى قُلُوبِهِم زَيْغٌ فيَتَّبِعون ماتَشابَهَ مِنْه ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وابتغاءَ تأْويلِهِ وما يَعْلَم تاويلَه إلا اللهُ والراسخُون فى العِلْم يَقُولون آمَنَّا به كُلٌّ مِن عندِ رَبِّنا)[1]

« وكان التمرس بالتأويل والاقتدار عليه من المطالب العزيزة، والسمات الشريفة، سألها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لابن عباس، فقال : « اللهم فقه فى الدين، وعلمه التأويل »[2] واقتران الفقه فى الدين بعلم التأويل يوحى بأنهما أمران لا يفترقان . . . .

وقد أخذ الرسول - صلوات الله عليه - بالتأويل حين قال : « من حوسب عُذب » ، فقد سألت عائشة حين سمعت الحديث فقالت : : أوليس الله يقول (فأمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابَهُ بيمينِه فسوف يُحاسَب حسابا يسيرا ؟) فقال عليه السلام : ذاك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك »[3] فأول الرسول الحساب فى الآية بالعرض، وفى الحديث بمناقشة الحساب. وإذا أمكن أن يستغنى عن التأويل فى لغة ما فلا غنى عنه فى العربية، لأنها لغة قوم عرفوا بصفاء القريحة وثقوب الذهن، تكفيهم الإشارة الدالة، والإيماءة الموحية فى كثير من المواطن، ولذا أكثر والحذف ونوعوه، وامتدحوا الأخذ به والفهم عنه[4] .

والتأويل فى أصل معناه الإرجاع، ومنه قولهم فى الدعاء لمن فقد شيئا : أول الله عليك ضالتك، أى أرجعها، ومنه كان تأويل الكلام وتأويل الرؤيا

---

(١) سورة آل عمران : ٧

(٢) البداية والنهاية ٨ : ٢٩٦ ، ٢٩٧

(٣) فتح البارى : ١ ١٥٩ ، والآية فى سورة الانشقاق : ٧ ، ٨

(٤) من قضايا اللغة النحو : ٨٥

أى تفسيرهما ، وبيان ماينطويان عليه من غموض ، ليرجع كلاهما إلى أصل المعنى المراد فالتأويل والتقدير إذا ليساتقولا ولاافتعالا ،ولكنهمانظروتوضيح وهدى فيما يحتمل أن يضل الفهم فيه . والنحويون إذ يذكرون المحذوف ، أو يظهرون المضمر إنما يرجعون فيه إلى اللغة ، يستلهمونها ، ويأخذون منها للنظائر والأشباه ، ثم هم حين يقدرونه لايقولون بذكره فى الأسلوب وإدخاله فى تأليفه .

على أن العرب كانت تعرف التقدير وتلحظ معنى المحذوف فى فهم المراد ، وهذا سيبويه يقول بعدأن أورد ضروبا من الحذف فى الكلام : « وهذه حجج سُمعت من العرب وممن يوثق به ، يزعم أنه سمعها من العرب . من ذلك قول العرب فى مثل من أمثالهم: اللهم : ضبعا وذئبا إذا كان يدعون بذلك على غنم رجل ، وإذاسألتهم مايعنون ؟ قالوا : اللهم اجمع أو اجعل فيها ضبعا وذئبا ، وكلهم يفسر ماينوى ، وإنما سهل تفسيره عندهم ، لأن المضمر قداستعمل فى هذا الموضوع عندهم بإظهار »[1]

ولاأدرى لماذا يحرم على النحاة أن يتنالوا أساليب الكلام عند الحاجة بالبحث والتحليل ، والاستعانة بالمذكور على فهم المحذوف ، ثم يباح للناقد الأدبى أن يقول عن النص مالم يقل ، ويعزو إليه ضروبا من الدلالات ، يسميها حينا الطائف وإشارات ، وحينا رموزا وإيحاءات ، لاتعدو أن تكون روًى له ، وخواطر من عنده ؟

وفى القرآن الكريم آيات شتى لايفهمها القارئ أو السامع على وجهها إذا هو قنع منها بالنظر فى ظاهرها ، ولم يحاول النفاذ إلى غورها ، ليطالع ماهناك من حذف فيأتى به ، ويقدره فى التفسير والتأويل

من ذلك قول الله تعالى : (وآتينا ثمود الناقة مُبْصِرةً)[2] فظاهر الاية ، والمذكور من كلماتها يشيران إلى أن

(١) الكتاب ١ : ١٢٩

(٢) سورة الإسراء : ٥٩

« مبصرة » وصف للناقة لفظا ومعنى ، وإذا يكون المراد أن الناقة التى آتاها الله ثمود لم تكن عمياء ، وهى على هذه الصفة لاتعد آية من آيات الله للأنبياء ، فما هى معها إلا ناقة من عموم النوق التى برئت من العمى. وقد قال الله تعالى فى موطن آخر :(هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لكم آيةً)[1] وقال فى موطن ثالث :(وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتيَنْ ، فمحَوْنا آيةَ الليل وجعلْنا آية النهار مُبْصِرةً)[2] إذا لاتفهم الآية حق الفهم إلا بتقدير كلمة آية قبل مبصرة ، ليكون تأويل الآية : وآتينا ثمود الناقة آية مبصرة .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :(السماء مُنفَطِرٌ به)[3] ، وظاهر الآية يجعل السماء خلقا مذكرا ، وهى فى سائر الآيات التى ذكرت فيها وفى العربية عامة خلق مؤنث . فهل نقف عند ظاهر الآية لانعدوه بحثا وتنقيبا ، ونحكم بأن السماء خلق يأتى مؤنثا كثيرا ، وأتى مذكرا مرة فى القرآن ، أو أن نرجع إلى الآيات الأُخر التى ذكرت السماء فيها لعلنا واجدون هنالك نورا يهدى إلى الحق ، ويكشف عن سر من أسرار البيان القرآنى الرفيع ؟

إن المقرر تجربة وأثرا أن القرآن كل متماسك : يفسر بعضه بعضا ، ويكمل بعضه بعضا ؛ فالخير إذا أن نجشم أنفسنا طلب الآيات الأُخر التى للسماء فيها أو صاف مميزة وصفها الله بها شاهدا على القدرة وإحكام التكوين. قال تعالى : (أَأَنتم أَشَدُّ خَلْقًا أم السماء ،بَنَاها)[4] ،وقال:(والسماءِ وما بناها)[5] وقال : (أَفَلَمْ يَنْظرُوا إلى السماء فوقهم كيف بَنَيناها)[6] وقال : (وَبَنَيْنَا فوقكم سبْعاً شِدَاداً)[7] ، فالله – جلت قدرته يجعل السماء مفردة والسموات جملة بناء محكما لافطور فيه ، متماسكا ينجذب بعضه إلى بعض ، تبارك الله أحسن الخالقين .

---

(١) سورة الأعراف : ٧٣
(٢) سورة الإسراء : ١٢
(٣) سورة المزمل : ١٨
(٤) سورة النازعات : ٢٧
(٥) سورة الشمس : ٥
(٦) سورة ق : ٦
(٧) سورة النبأ : ١٢

وآية (السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ) تصف حدثا من أحداث يوم القيامة ، فهو يوم تشيب فيه الولدان ، وينفطر بناء السماء المحكم الوثيق . وكأن المعنى حينئذ - والله أعلم - : وبناء السماء منفطر فى هذا اليوم ، وإذا لاتخالف بين الموصوف والصفة أو الخبر والمبتدأ ، كما لايخفى .

وآيات أخرى على شبه من هاتين الآيتين ، أذكرها ولا أعلق عليها آية فآية ، فمفتاحها كلها واحد ، وهو ملاحظة فعل متبادر يلائم معناها ويجليه .

قال تعالى : (كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (١)) وقال : (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا (٢)) . وقال : « لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (٣) .

(فملّة) فى الآية الأولى ينصبها فعل محذوف ، هو الذى يوجه إعرابها ، ويدل على معنى الآية ، وتقديره (نتبع) وكأن معنى (كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى) : اتبعوا ملة موسى أو عيسى ، والجواب الذى تجاب به هذه الدعوة يجب أن يكون : بل نتبع . . .

ونخلص من هنا للنظر فى القضايا التى أثارها « نحو القرآن » ، والأمثلة التى أقامها شواهد لتلك القضايا :

يرى الكتاب أن من العبث التأويل الذى أول به قوله تعالى : (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا) (٤) ، وقوله : (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ) (٥) ، ولكنه لم يبين لنا هذا العبث : ماهو ؟ ، ولا لماذا عدّه عبثا لا حكمة له ؟ .

والمعروف من صنيع النحاة للآية الأولى أنهم نظروا فيها كما نظروا فى غيرها من الآيات التى عرضوا لها بالبحث لكن سبيل الفهم تفرقت بهم : فمنهم من فهمها على معنى : مالنا لانتوكل على

---

(١) سورة البقرة : ١٣٥
(٢) سورة الأنعام : ١٦١
(٣) سورة الحجر : ٨٨
(٤) سورة إبراهيم : ١٢
(٥) سورة النساء : ٨٨

الله ؟ ، إنكارا لعدولهم عن الأخذ بالتوكل ، ووجد أن العبارة مفهومة المعنى بغير (أن) ، فقضى بأنها زائدة ، وأنها مع ذلك عاملة للنصب فى الفعل بعدها .

وفهمها آخرون على معنى : أىّ نفع ، أو داع لنا إلى أن نترك التوكل على الله ، نفيا لعدم التوكل أن يكون فيه نفع أوله داع ، فقضوا بأن (أن) ليست زائدة ، وأنها لذلك ناصبة للفعل . فهل هذا البحث واختلاف الفهم فى معنى الآية هما هذا العبث؟ وإذاماذا كان عليهم أن يعملوا غير ما عملوا ؟ وما حيلتهم فى اتقاء الخلاف فى الرأى إذا كان أمارة من آمارات الرأى الحر ، والتفكير المستقل ؟

أما الآية الثانية فقد عاد الكتاب إليها فى ص : ٩٤ ، وهناك نعى على النحاة تأويلها ، ونقل قول الفراء فيها ، وقول محقق كتابه « معانى القرآن » لتوضيح المراد . وتأويل الآية على ما يقوله الفراء ومحققا كتابه هو : ماذا حدث لكم فى الحكم على المنافقين الذين تعنيهم الآية ، فاختلفتم فيهم فئتين ؟

وهو كلام قويم لاعوج فيه ، يؤدى المعنى أداء بينا ، وإن كان لايدانى الآية فى براعة النظم ، ومثله كمثل نثر الشعر إذ يلتزم صاحبه الأصل ، ويتحرى الدقة فى التعبير عنه ، فهو حينئذ باسترساله ، وتجرده من إيقاع النغم لا يبلغ مبلغ الشعر من البلاغة والتأثير ، ولاسيا أن القارئ يقرؤه ، وهو مازال مأخوذا بحلاوة الموسيقا : وتساوق الأنغام .

وينكر الكتاب فى فصل المبتدإ والخبر تقدير مبتدإ فى آيات : منها : (وإنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ [1] » . وهذه الآية تدعو مع آيات قبلها إلى كتابة الدين عند المداينة ؛ لضمان أدائه فى موعده ، فإن لم يوجد ثمة كاتب فالضامن رهن يقدمه المدين . والقارئ أو السامع إذ يصل إلى (فرهان) لايملك أن يرد ذهنه عن إدراك المحذوف ، وأنه الضمان الذى يحل محل الكتاب

(١) سورة البقرة : ٢٨٣

ويغنى عنه ، لأنه المحور الذى يدور عليه معنى الآيات .

ثم هو قد عهد ذكر المبتدأ فى آيات أخر تشبه هذه الآية فى نظم الأسلوب ، مثل : (وإنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُم) [1] ، ومثل : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا متعمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ) [2] . ومن شأن الشبيه أن يذكّر بشبيهه ، فذكر المحذوف لايعدو أن يكون إظهارا لما فى ذهن القارئ أو السامع .

ومنها آية : (وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ) [3] ، وهى آية تصف حال قوم كانوا إذا أمرهم الرسول يقولون : (طاعة) فإذا انصرفوا بيّت طائفة منهم غير الذى تقول . فالمبتدأ مفهوم من المقام ، وحذفه لايذهب به من الذهن أو يلبسه عليه. والنحويون إذ يقولون : إن التقدير : أمرك طاعة لايقولونه من هواء ، وهم لا يستوحون فيه المقام وكفى ، ولكنهم أيضا يرددون ما تقوله العرب حين تصرح به ، كما فى قول عمر بن أبى ربيعة :

فقالت : على اسم الله أمرك طاعة
وإن كنت قد كُلفت ما لم أعود [4]

ومنها آية : (فَآمنوُا بِاللّهِ ورسلهِ وَلاتقُولُوا ثَلاَثَةٌ) [5] . والآية تنهى أهل الكتاب أن يغلوا فى دينهم ، ويقولوا على الله غير الحق ، فيشركوا به غيره ، ويجعلوا الآلهة ثلاثة . فالمبتدأ – وهو الآلهة – مفهوم من المقام ، أيضا لا يعزب علمه عن السامع أو القارئ .

ثم إن العرب تعمل القول فى الجمل وما فى معناها ، ولاتعمله فى غير ذلك . فإذا لم يقدر مبتدأ فى الآية فهل يكون لفظ (ثلاثة) هو وحده مقول القول ؟ ولماذا لم ينصب حينئذ ؟ ويمضى الكتاب فيذكر ماشاء من الآيات التى تشبه تلك التى تحدثنا عنها .

---

(١) سورة البقرة : ٢٧١
(٢) سورة النساء : ٩٣
(٣) سورة النساء : ٧
(٤) ديوان الشاعر : ١٥٤
(٥) سورة النساء : ١٧١

ثم يقول الكتاب عن الأخذ فى التقدير بقاعدة أن الكلام لابد أن يتألف من ركنين : « قاعدة تقوم على المنطق ، ولا تعبأ بالأصل العلمى الذى لايجوّز له أن يفترض فى مادة البحث مهما كانت ما ليس موجودا » .

ويعنينا مما تنطوى عليه هذه العبارة أن نقرر أن النحويين – كما يعلم الناس– لايفترضون التقديرات افتراضا ، ولكنهم يأتون بها نقلا عن أساليب مشابهة لاتقدير فيها ، أو يستنبطونها استنباطا من فحوى الكلام ، معاونة على الفهم ، وإرشادا إلى الصواب كما سبق .

ويذكر فى فصل الفعل آية : (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيد)[1] ، ثم ينقل قول الزمخشرى فى إعرابها : « بربك فى موضع الرفع على أنه فاعل كفى ، وأنه على كل شئ شهيد بدل منه ، تقديره : أو لم يكفهم أن ربك على كل شىء شهيد » . ثم يعقب على ذلك ، فيقول : « وأنت ترى البون البعيد بين هذه العبارة والنص القرآنى ، حيث يتجه الإسناد إلى (بربك) فيه ، ويتجه فى عبارة الزمخشرى إلى مايتعلق به »

وظاهر أن إعراب الزمخشرى مطابق لقول نص القرآن : « إن الإسناد فى الآية يتجه إلى (ربك) » ، وأما قوله تقديره « أو لم يكفهم الخ » . فليس عدولا عن توجيه الإسناد وجهته ، ولكنه بيان لما يدل البدل عليه فى الأساليب العربية ، وتوضيح لموقع (أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) من الآية ، ولصلتها بما قبلها ، فالمقرر أن البدل يذكر على نية تكرار العامل ، بدليل قوله تعالى : (تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا)[2]

ويذكر أن الفعل قد وقع موقع الفاعل فى آية : (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ)[3] وهو بموقع الفاعل حقا ، ولكنه ليس به كما يفهم من كلام الكتاب ، ولوقلنا : إنه يمكن أن يستعمل الفعل كما

(١) سورة فصلت : ٥٣
(٢) سورة المائدة : ١١٤
(٣) سورة يوسف : ٣٥

يستعمل الاسم ، لا يمنعه من ذلك دلالته على الزمن لكان لفظ (ليسجُنُنَّه) فاعل (بدا) ، وهذا غير الواقع . ولو أن الذين بدالهم أن يسجنوا يوسف سئلوا عن هذا الذى بدالهم فيه لقالوا : السجن ، ولم يقولوا : ليسجنن .

والسجن هو الذى جعله الزمخشرى فى إعراب الآية مفسرا للفاعل الذى قدره : ببداء ، وليس ثمة خلاف بين المفسر والمفسر ، كما يقول الكتاب ، فالعرب تقول : بد لى فى هذا الأمر بَدَاء : أى ظهر لى فيه رأى ، فالبداء الملحوظ فى الآية معناه الرأى ، وهو كلمة ذات عموم ، لكن يخصصها السجن المفهوم من (ليسجننه) . فوضح أنه لاخلاف بين المفسر والمفسر كما يقول الكتاب ، ولكن الذى بينهما أن فى الأول عموما وفى الآخر خصوصا يحد من هذا العموم .

ويرى الكتاب أن الفعل يذكر فاعلا للأفعال الناسخة حين لايذكر فى الكلام خبر لها ، فالفعل (يزيغ) فى قوله تعالى : (مِن بَعدِ ماكادَ يَزيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ منهم [1]) فاعل (كاد) ، ومثله بقية الأفعال التى ذكرها الكتاب فى آيات أُخرى .

ومعلوم أن كاد معناها قرب ، وإذا يكون معنى الآية : قرب يزيغ قلوب فريق منهم . فالفعل (يزيغ) هو الذى فعل القرب ، ولا أدرى كيف يفعل الفعل الفعل ، وأين هذا من جعل اسم كاد ضمير الشأن . وجملة (يَزِيغُ قُلُوب فَرِيق منهم خبرا لها ؟) أليس ضمير الشأن حقيقة لغوية ، وليس له مرجع فى الكلام ، و لكن يفسره مابعده كما فى قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ [2]) ؟

ويعد الكتاب من قبيل حكاية القول دون ذكره عبارة : (أن يَامُوسَى) فى آية : (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِى مِنْ شَاطِئِ الْوَادِى الْأَيْمَنِ فى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ) [3] . والواقع أن الفعل (نودى) من قبيل القول ، فالنداء ضرب منه

(١) سورة التوبة : ١١٧
(٢) سورة الإخلاص : ١
(٣) سورة القصص : ٣٠

ولا يكون إلا به . وإذا لا يكون القول فى الآية محذوفا .

وشيوع حذف القول فى القرآن لاينقض الحكاية ومقول القول كما يقرر الكتاب ، وهو يذكر هنا فيما يذكر من الآيات : (وإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) ويقول النحويون : إن التقدير فيها : يقولان : ربنا . وقد أظهره عبد الله ابن مسعود فى قراءته[1] ، وأخذ النحويون [فى تقريرهم له بهذه القراءة .

ويقول الكتاب : « إن فيما يسبق القول المحكى من الكلام مايوحى به » ، وهو قول لا خلاف فيه ، ولهذا جاز حذفه حينئذ . وهو إذ يقدر لايكون تقديره من فراغ ، وليس يعدو تقديره أن يكون تعبيرا عما فى الذهن تلقيا من فحوى الكلام .

ويذكر أن فى القرآن إيجازا لا تحيط به قواعد النحو ، ويضرب مثالين لذلك ، الأول : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها)[2] والآخر : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى ، وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ . فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا)[3] . والذى تقوله قواعد النحو أن ماقبل المحذوف يدل عليه حين يكون الحذف جائزا كما فى المثالين .

والكلام فى المثال الأول عن الإحسان وعاقبته ، والإساءة وعاقبتها ، غير أن الأسلوب إذ يذكر الإحسان يجعل فعلى الشرط والجواب من لفظه ، وإذ يذكر الإساءة يجعل الشرط وحده من مادتها ، ويحل محلها فى الجواب بيان من تقع عليه عاقبتها . وإذا يكون التأويل : وإن أسأتم فإساءتكم ، بدلا من أسأتم لأنفسكم . ويكون التأويل فى الآية الأخرى : فإن خفتم فصلوا رجالا أو ركبانا ، لأن الحديث عن الصلاة . وإذا لم يمتنع على قواعد النحو أن تحيط بإيجاز الآيتين كما يقول الكتاب

وينكر الكتاب فى فصل الاستثناء أن يكون سوى بمعنى غير ، ويقول :

(١) الكشاف : ١ : ٧٤

(٢) سورة الإسراء : ٧

(٣) سورة البقرة : ٢٣٨ ، ٢٣٩

« فمادتها اللغوية تدل على أن معناها ! نقيض معنى غير » ، لكنه لم يبين كيف ؟

والذى فى اللسان : « سوى بالقصر يكون بمعنيين: يكون بمعنى نفس الشىء ، ويكون بمعنى غير ... وفى الحديث : سألت ربى ألا يسلط على أمتى عدوا من سواء أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، أى من غير أهل دينهم . وقال الفِنْد الزِّمَّانى :

ولم يبق سوى العدوا
ن دِنَّاهم كما دانوا »

وروى الكتاب هذا البيت ، ثم تركه لا يعقب عليه بشىء ، وإن كان لصريحا فى دلالة سوى على معنى غير . ثم نقل كلام الفراء عن قوله تعالى : « غير المغضوب عليهم ولا الضالين[1] » حيث يقول : « وأما قوله تعالى : « ولا الضالين » فإن معنى « غير » معنى « لا » ، فلذلك ردت عليها . هذا كما تقول : فلان غير محسن ولا مجمل فإذا كانت « غير » بمعنى « سوى » لم يجز أن تكر عليها « لا ... » ثم يقول الكتاب :

« وواضح أن الفراء يلحظ الفرق بين « غير » وسوى ، وينكر مايذهبون إليه من استعما لهما بمعنى واحد » .

والواضح حقا أنهم إذ يذكرون « سوى » مع « غير » فى باب الاستثناء ، ويتحدثون عنهما بما يدل على اتفاقهما معنى — إنما يريدون أن « سوى » تجىء بمعنى غير حين تكون للاستثناء . وليس يمنع من ذلك أن يكون فى « غير » من معنى النفى فى بعض الأساليب ، لاشتقاقها من المغايرة . وقول الفراء نفسه : « فإذا كانت « غير » « بمعنى « سوى » لم يجز أن تكر عليها « لا » ... — يدل على أن « سوى » عنده تكون بمعنى « غير » ، كما أن « غير » تكون بمعنى « سوى » . ثم ما الرأى فى الحديث الشريف وبيت الفند الزمانى اللذين ذكرناهما آنفا ، وكلاهما شاهد على أن « سوى » معناها معنى « غير » ؟

ويصنع الكتاب بقولتين للزمخشرى مثل ما صنع بقولة الفراء الآنفة ، قال

(١) سورة الفاتحة ٧

الزمخشرى فى قوله تعالى : (إنما أنت مُنْذِرُ من يخشاها[1]) : وقرى (منذرٌ) بالتنوين ، وهو الأصل ، والإضافة تخفيف وكلاهما يصلح للحال والاستقبال فإذا أريد المضى فليس الإضافة ، كقولك : هو منذر زيد أمس .

وهو كلام صريح الدلالة يمنع تنوين اسم الفاعل الماضى إذا خلص لزمنه . وقال الزمخشرى فى قوله تعالى : (ولا أنتم عابدون ماأعبد ، ولا أنا عابدٌ ماعبدتم[2]) : « أى وما كنت قط عابدا فيما سلف ماعبدتم فيه ، يعنى لم تعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية فكيف ترجى منى فى الإسلام » ؟

وهذا أيضا كلام صريح الدلالة كالذى قبله ، ينفى عن الرسول عبادة الأصنام فى الماضى ، وينفيها عنه نفيا أشد فى الحاضر. فاسم الفاعل (عابد) منفى المعنى مضيا وحضورا ، أى أنه ليس خالص الدلالة على الزمن الماضى كالمثال الذى ذكره الزمخشرى: هومنذرزيدأمس. ولكن الكتاب برغم ذلك يقول : « وهذا يدل على أن اسم الفاعل المنون يرد لمعنى المضى خلافا لما يدعون » . على أن هذا القول ليس بالجديد . فالكسائى وجماعة معه يجيزون إعمال اسم الفاعل الماضى الزمن ، أخذا بظاهر قوله تعالى: (وكَلْبُهم باسطٌ ذراعيه بالوَصِيد)[3] .

ولايرى الكتاب أن إضافة اسم الفاعل من قبيل الإضافة اللفظية ، فيقول : « ولا عبرة بدعواهم أنها إضافة لفظية ، لا يكتسب بها الاسم المضاف تعريفا ولا تخصيصاً » .

ولاندرى ماذا يرى الكتاب إذا فى وصف النكرة به وهو مضاف إلى معرفة فى قوله تعالى : (يَحكُم به ذوا عدل منكم هَدْيا بالغَ الكعبةِ)[4] ، ووقوعه حالا فى قوله أيضا : (ومِن الناسِ مَن يجادلُ فى اللهِ بغيرِ عِلْم

(١) سورة النازعات : ٤٥
(٢) سورة الكافرون : ٣ ، ٤
(٤) سورة المائدة : ٩٥
(٣) سورة الكهف : ١٨

ولا هُدى ولا كتابٍ مُنِيرٍ، ثانى عطْفِهِ[1]) . وهو بعد يعزو إلى النحويين أن إضافة الصفة المشبهة عندهم من الإضافة المحضة، والحق أنها عندهم لفظية ، وهم يحتجون لذلك بقول أبي ذؤيب يصف تأبط شرا :

فأتت به حُوشَ الفؤاد مبطَّنا
سُهُدا إذا ما نام ليل الهوْجل

فقد وقعت فيه « حوشى » حالا ، مع إضافتها إلى « الفؤاد » .

ويورد الكتاب فى فصل جملة النفى طائفة من الآيات الكريمة ، زيدت « من » فى بعضها ، و « الباء » فى بعضها الآخر ، ثم هو لا يرى أنهما زائدتان . ولا ندرى ماذا يرى فى قوله تعالى : « هلْ مِن خالقٍ غيرُ اللهِ يَرزقكم[2]) ، فقد ذكرت فيه (خالق) مجرورة بمن الزائدة ، وذكرت (غير) مرفوعة وفاقا لمحله ، لا مجرورة وفاقا للفظه . وهل يعنى هذا إلا أن « من » زائدة ، وأن (خالق) بعدها معرب فى واقع الأمر بما كان يعرب به حين لا تذكر « من » قبله ؟

وينكر الكتاب أن يكون للزمن مدخل فى جملة الحال حين تكون فعلية فعلها ماض مثبت ، ويرتب على ذلك ألا تقدر قبلها « قد » ، إذا لم تكن مذكورة . فأما ألا تقدر « قد » قبلها حينئذ فرأى يراه الأخفش ، وهو إذا ليس بالجديد . وأما ألا يكون للزمن فيها مدخل فلا ، لأن الحال أياما كانت وصف لصاحبها مقارن لزمن العامل فيها . ولنأخذ مثلا لبيان ذلك الآية التى استشهد بها ، وهى : (أو جاءوكم حَصِرَت صدورُهم[3]) ، فضيق الصدور الذى تدل عليه جملة (حَصِرت صدورُهم) كان صفة قائمة بالقوم حين جاءوا الرسول عليه السلام ، لا له ولا عليه

(١) سورة الحج : ٩
(٢) سورة فاطر : ٣
(٣) سورة النساء : ٩

وإذ يدنوا الكتاب من نهايته يذكر أن فى القرآن صورا للتعجب لاتعرفها كتب النحو ، ولا قواعد النحاة ، ويورد مثالين متشابهين : أولهما قول الله تعالى : (إنه فكّر وقدّر ، فقتل كيف قدّر[1])

والحق أن النحاة لم يعرضوا لأساليب التعجب بالاستقراء والحصر ومن قولهم فى ذلك : « التعجب له عبارات كثيرة واردة فى الكتاب والسنة وكلام العرب . . . والمبوب له فى النحو صيغتان : إحداهما ما أفعله ، والأُخرى أفعل به ، لأنهما الصيغتان اللتان وضعتا له ، واللتان يمكن أن ترسم لهما حدود ، وتوضع قواعد . أما غيرهما فضروب من الأساليب لها معان أصيلة تؤديها ، وإنما التعجب طارئ عليها ، ومفهوم منها عرضا .

ويرى الكتاب أن التعجب فى الآية التى نقلناها عنه . وفى الآية الأُخرى التى تركناها إنما هو فى كلمة (قُتل) ، وينقل لتعزيز رأيه قول الزمخشرى : « تعجيب من تقديره . وإصابته فيه المحز . . . ، ومعنى قول القائل : قتله الله ما أشجعه ! ، وأخزاه الله ماأشعره ! – الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد عليه ، ويدعو عليه حاسده بذلك » .

وكلام الزمخشرى غنى عن التفسير ، فقوله فيه أولا : « تعجيب من تقديره » ، وقوله بعد : « حقيق بأن يدعو عليه حاسده » – يدلان فى غير لبس على أن التعجب إنما يكمن فى الاستفهام بكيف ، لأنها التى ذكر بعدها التقدير الذى يستحق التعجيب ؛ ولأن دعاء الحاسد على صاحب هذا التقدير العجيب إنما هو بكل من : « قتله الله ، وأخزاه » ، فكلاهما فعل يراد به الدعاء لا الإخبار .

والكتاب بعد هذا يتناول النحاة حين ينقدهم بما يمكن أن يعد انتقاصا لهم وزراية عليهم ، لا يفرق بينهم ؛

(١) سورة المدثر : ١٨ ، ١٩

ولا يستثنى منهم . وإلا فماذا نقول عن وصفهم جميعا بالشطط ، والتخليط وهزال الرواية ، وخيانة الحس والذوق اللغوى ، ثم وصف كثير ممن أسسوا قواعد النحو ، وأحكموا مغاليقها بقصور الفهم وضيق الأفق » .

والسابقون الأولون من النحاة ، خاصة هم أئمة العربية ، وحفظة تراثها ، أخذوها سماعا من أهلها ، إما تلقيا عن الوافدين منهم إلى الحاضرة ، وإما نفورا إلى البادية ، يعيشون بينهم ، ويشافهونهم ، ويروون عنهم ، ويدركون معناهم بما يقولون فى التصريح والتلميح ، وحين الإفراد والتأليف . ومنهم بعد ذلك من ذكر بين أئمة القراء . فإذا لم تؤخذ العربية عنهم ، ولم يكونوا هم أصحاب الرأى فيها فمن يكون ؟

وما أريد بذلك أن أسمو بهم عن النقد والملاحظة ، ولكن الذى أريده أن يعرف فضلهم ، وأن يدور القول معهم على الحقائق ، يوردها من يشاء ، معززة بشواهدها وحججها ، ويدع لها هى الفصل وإصدار الأحكام .

وينكر الكتاب فيما ينكر من أمر النحاة أنهم «اعتمدوا فى وضع قواعد النحو على مابلغهم من كلام العرب : شعره ورجزه ومثله ، أو آثروا جانب المنطق ، فتصوروا القاعدة قبل استقراء المادة اللغوية » .

والشطر الأول من هذه الفقرة يمكن أن يعد من المدح بما يشبه الذم فماذا كان يراد منهم أن يعتمدوا عليه فى وضع النحو أكثر مما جاءهم من نصوص الكلام العربى على اختلافها ؟ أكان يراد منهم مثلا أن يحددوا إقامة القبائل ، كل فى ديارها لاتبرحها حتى يمروا بها قبيلة قبيلة ، فيستوعبوا كل ما قال أهلها فردا فردا ، لا يفلت منهم قائل ولايند عنهم لفظ ؟ أم المراد أنهم أكثروا الاعتماد على كلام العرب مالم يكثروا مثله على القرآن الكريم ؟

إن يكن ذلك هو المراد فذلك مالم يكن لهم منه بد ، لأنه الأمر الذى يقضى

به الواقع ، فالقرآن من العربية ، وليست العربية من القرآن ، هى أكثر مادة ، وأساليبها أشد تنوعا وتعقيدا ، لأنه القرآن وكفى ، ولأن للنثر سعته وسماحته ، وللشعر مآزقه وتشدده .

والمهم أنهم لم يقصروا فى الرجوع إلى القرآن والتعويل عليه مادعت داعية ، وقد فعلوا . فعدة شواهد سيبويه من القرآن الكريم ٣٧٣ ، ومن الشعر والرجز ١٠٦١ [1] ثم هم لم يقصروا فى تفسيره ودراسته على نور من النحو ومسائله ، فتصدى كثير منهم لإعرابه والاحتجاج لقراءاته ، حتى القراءات الشاذة .

أما تصورهم « القاعدة قبل استقراء المادة » فقول مرسل ، لايصحبه مثال ولا بينة . وإن يكن من ذلك شىء فلا نكران له إلا إذا أسفر الاستقراء اللغوى عن قصور القاعدة بما يجعلها غير مستوعبة لجمهرة ما تنطبق عليه من النصوص . فالمعول عليه أن تكون القاعدة صحيحة وصالحة ، وليكن مأتاها ما يكون .

هذا ، ولم أتبين للكتاب رسالة يؤمن بها ، ويدعو إليها . على أنى رأيته يكرر القول فى التأويل والتقدير ، ويكثر التنديد بهما . فهل يمكن أن نفهم أنه يدعو إلى الوصفية فى النحو وينهى عن المعيارية فيه كما يفعل بعض الباحثين من المعاصرين ؟

فإن تكن تلك رسالته فهل يريدها وصفية فى القرآن خاصة ، أو فيه وفى غيره من نصوص العربية ؟ فإن تكن الأولى فماله سكت عن بقية أبواب النحو لم يدرسها فى القرآن كما صنع بالأبواب التى ذكرها ؟ وإن تكن الأخرى فما باله لزم القرآن فى دراسته لايعدوه ؟

وبعد ، فقد مررت بهنوات لغوية ونحوية فى عبارة الكتاب ، لعلها تسللت إليها على حين غفلة لشيوع تداولها فى لغة العصر ، وهى :

(١) ذكر متعلق الجار والمجرور مع أنه كون عام فى قوله ص ٢١ : « وليس موجودا فيها » ، ولا يخفى أن حذفه هنا واجب ، وقد ذكر الكتاب وجوب حذفه فى : ص ٣٤ ، ٤٨

(١) سيبويه إمام النحاة : ٢٣٥

(٢) قلب ياء « افتيات » همزة في قوله ص ٢٩ : « وذلك لعمرى افتئات » : ولا وجه لهذا القلب ، فالافتيات مصدر افتات : والمادة اللغوية للكلمة هي « الفوت » ، فأصلها : افتوات ، قلبت الواو ياء لا همزة .

(٣) زيادة الباء في مفعول « قَبِل » في قوله ص ٣٦ : « وأنى لهم أن يقبلوا به ؟ » ، والمراد أنه بعيد أن يقبلوه . والفعل بهذا المعنى ينصب مفعوله بنفسه وإنما يصل إليه بالباء إذا كان بمعنى كفل وضمن ، فيقال حينئذ : قبل به .

(٤) استعمال « بينما » في أثناء الكلام في قوله ص ٨٢ : « يغلب فيها شبه الفعل ، بينما الإضافة امتزاج » ، فبينما في العبارة تتعلق بيغلب قبلها . وتذكر كتب اللغة أن « بينما » مما له الابتداء ، فلها صدر الكلام ، كأشباهها من أسماء الشرط والاستفهام .

على الجندى ناصف

عضو المجمع



لجمال الدين بن نباتة المصري

تحقيق الدكتور عمر موسى باشا
تعريف ونقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن

إذا ذكرنا اسم « ابن نباتة » خطر على البال أسماء أربعة من الأدباء والعلماء اشتهروا بهذا الاسم سواء أكانوا من أسرة واحدة أم من أسر مختلفة.

وأول هؤلاء : ابن نباتة الفارقي خطيب حلب والمتوفى بها سنة ٣٧٤ هـ وثانيهم ابن نباتة السعدي الشاعر الذي اشتهر بصلته بسيف الدولة بن حمدان ، واسمه عبدالعزيز ابن نباتة وقد توفي ببغداد سنة ٤٠٥ هـ وثالثهم : شمس الدين بن نباتة المحدث والمتوفى بدمشق سنة ٧٥٠ هـ .

ورابعهم : جمال الدين بن نباتة المصري . الذي شرح الرسالة الهزلية لابن زيدون الأندلسي ، وقد حققها أخيرا الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . وهو صاحب كتاب « مطلع الفوائد » الذي نقوم هنا بالتعليق عليه ، وهو ينشر لأول مرة عن نسخ خطية اعتمدها المحقق . ومن العجيب أن يتأخر نشر هذا الكتاب إلى زماننا هذا مع ماله من أهمية أو مع كونه من أجود كتب ابن نباتة إن لم يكن أجودها على الإطلاق!

وصاحبنا جمال الدين بن نباتة هذا هو حفيد ابن نباتة الفارقي الخطيب ، وولد شمس الدين المحدث . وبهذا النسب النباتي الزاكي افتخر شاعرنا جمال الدين بقوله :

ورثت اللفظ عن سلفي وأكرم
بآل نباتة الغر السراة

فلا عجب للفظي حين يحلو
فهذا القطر من ذاك النبات

ولم تصف الحياة لابن نباتة أول الأمر في أرض مولده : مصر ، فقد لقي في معاشه نصبا ورهقا ، ورزق كثرة من الأولاد ضاق به رزقهم ، وأصبحت مطالب أفواههم وبطونهم تقتضيه السعي بلا جدوى ومن هنا بدأنا نسمع في شعره نغمات الشكوى من مثل قوله :

لقد أصبحت ذا عمر عجيب
أقضي فيه بالأنكاد وقتي

من الأولاد خمس حول أم
فواحرباه من خمس وست

ونلاحظ فى هذين البيتين أن النورية الحلوة لا تفوت شاعرنا حتى فى ساعات يأسه ، فقد ورى فى لفظة « ست » بين ست الدالة على العدد المقابل لخمس ، وبين ست ، بمعنى : سيدة ، وقد شاع استعمالها فى الأدب المكتوب أو فى لغة الخطاب منذ زمن بعيد

ولما كان المقام على الضيق والهوان مما لا يليق بالكرام افقد آثر ابن نباتة أن يهجر مصر ويجرب حظه فى أرض أخرى فسافر إلى دمشق سنة ٧١٦ هـ وقد أوفت سنه على الثلاثين فأقام بها بعض الوقت فى رعاية والده المحدث شمس الدين الذى كان يتولى تدريس الحديث فى دار الحديث النورية بالعاصمة السورية ، ثم بداله أن يترك دمشق إلى مدينة حماة حيث كان ملكا عليها الملك المؤيد أبو الفداء أحد البقية الكريمة من ملوك بنى أيوب . وكان فى الملك المؤيد ميل إلى الأدباء والشعراء والعلماء ورعاية لهم وعطف عليهم . وقد سبق ابن نباتة أليه الشاعران الأديبان صفى الدين الحلى ، والشهاب محمود الحلبى وغيرهما .

وهنا حظى ابن نباتة بتقدير الملك المؤيد وحسن رعايته ، حتى كاد ينسى مصر ونيلها ، مما يفصح عنه قوله :

ألم تر أنا قد سلونا بأرضه
مرادا لنا فى أرض مصر ومربعا
إذا ابن تقى الدين جاد نباته
علينا فلا مدت يد النيل أصبعا

وهنا فى « حماة » بدل عسر شاعرنا يسرا ، وانجابت عنه الضائقة التى من أجلها هجر وطنه مصرا وأصبح يتقلب فى أعطاف النعمة عند ذلك الملك الأديب الكريم .

وإذا كانت اللها تفتح اللها كما يقول المثل العربى افإن أعطيات الملك المؤيد لابن نباتة قد فتحت لهاته بشعر المديح الجيد يقوله فى هذا الملك المعطاء ، حتى لقد بلغت مدائحه فيه قدرا من الشعر والقصائد سميت « المؤيديات » يقول فى إحداها :

ملك باهر المكارم يروى
وجه لقياه عن عطاء وبشر
زرت أبوابه فقرب شخصى
ومحا عسرتى ، ونوه ذكرى
ونحا لى من المكارم نحوا
صاننى عن لقاء زيد وعمرو

ويقول فى أخرى :

يأيها الملك الذى
رد الحقائب شاكره
وسما بهمته على
غرر النجوم الزاهره
حتى انتقى من زهرها
هذى الخلال الباهره
سقيا لدهرك إنه
دهر الأيادى الوافرة

ويقول فى ثالثة :

يامليكا أحيا الثنا والعطايا
فجلبنا لسوقه الأشعارا
أسأل الله أن يزيدك فضلا
وسموا على الورى وفخارا

صنتنى عن أذى الزمان وقدحا
ول حربى واستكبر استكبارا
وانبرى غيثك الهتون بجدوى
علمتنى مدائحا لاتبارى

ولما مات الملك المؤيد سنة ٧٣٢ ﻫ طوى بساط أخضر كان يمشى عليه ابن نباتة فى رحابه ، وإن كان قد اتصل بالملك الأفضل ابن المؤيد — بعد أن سار إليه مهنئا ومعزيا بقصيدته المشهورة التى يقول فيها :

هناء محا ذاك العزاء المقدما
فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع
شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما

وهى من القصائد الجيدة التى جمعت بين مواقف التهنئة والتعزية ، وهو موقف قد يزل فيه الفحول ، ولا يقوى عليه إلا القادرون . . .

ولما مات الملك الأفضل سنة ٧٤٢ ﻫ انتهت بموته حياة الأسرة الأيوبية فى حماة ، وانقطعت صلة ابن نباتة بمن يفرج كربته ، ويصله بالعطاء .وهنا عاد العسر إلى حياة صاحبنا من جديد ، وترك حماة إلى دمشق ، وانعزل عن الناس . وهنا ابتلاه الله بفقدان الولد . ويروى الصفدى فى كتابه أنه دفن قريبا من ستة عشر ولدا (كلهم إذا ترعرع وبلغ خمسا أو ستا أو سبعا يتوفاه الله ، فيجد لذلك الآلام المبرحة ، ويرثيهم بالأشعار الرائقة الرقيقة) .

ولم تكفه وظيفة ناظر القيامة بالقدس الشريف التى قررها له الصاحب أمين الدين فى موسم كل عام من زيارة النصارى لها . ولم تسله وظيفة أخرى فى ديوان التوقيع بدمشق . وكان خلال ذلك الوقت دائم الشوق والحنين إلى مصر ومعالمها وآثارها ونيلها وهرمها ؛ فأطال فى ذلك الباب شعره الذى يقول فى بعضه :

ياسارى البرق فى آفاق مصر لقد
أذكرتنى من زمان النيل ما عذبا
حدث عن البحر أو دمعى ، ولا حرج
وانقل عن النار أو قلبى ولا كذبا
واندب على الهرم الغربى لى عمرا
فحبذا هرم فارقته وصبا

ويقول فى بعضه الآخر :

آها لمصر ، وأين مصر ؟ وكيف لى
بديار مصر مراتعا وملاعبا ؟ !
حيث الشبيبة ، والحبيبة ، والوفا
فى الأعربين مشاريا وأصاحبا
والطرف يركع فى مشاهد أوجه
عقدت بها أطرر الشعور محاربا
والدهر سلم كيفما حاولته
لا مثل دهرى فى دمشق محاربا

وفى سنة ٧٦١ ﻫ كان بمصر السلطان الناصر حسن بن قلاوون ؛ فبدأ ابن نباتة يرسل إليه المدائح حتى أمر السلطان باستدعائه وجهزه إلى مصر وأجزل له العطاء، وجعل له

راتبا معلوما يصرف إليه كل شهر ؛ وإن كان هذا الراتب لم يصل إليه بصورة منتظمة تبعا لأهواء المتصرفين . .

وظل كذلك إلى أن توفى سنة ٧٦٨ هـ عن عمر يناهز اثنين وثمانين عاما ..

هذا هو ابن نباتة الأديب الشاعر الذى كان يعد أمير الشعر فى عصره فى القرن الثامن الهجرى . وصاحب كتاب « مطلع الفوائد ومجمع الفرائد » الذى أحسن مجمع اللغة العربية فى دمشق بنشره بعد أن ظل مطويا فى غبار السنين ، بضعة من القرون .

وإذا كانت رسالة ابن زيدون الجدية قد تولى « الصفدى » شرحها والتعليق عليها ، وأسماها « تمام المتون » فأن ابن نباتة قد تولى شرح الرسالة الهزلية لابن زيدون المسماة « سرح العيون » . وقد كشف هذا الشرح الجميل عن أدب ابن نباتة ، وكثرة معارفه ، واتساع دائرة أخباره الأدبية ، وإحاطته بأشعار العرب وأمثالهم ومحاضراتهم ومسامراتهم ، وإشاراتهم التاريخية التى تشتمل عليها تلك الرسالة .

وقد تحملنا الرغبة فى توضيح المقاصد على الاستطراد إلى ذكر الباعث لابن زيدون على إنشاء تلك الرسالة الهزلية المملوءة هزوا وسخرية . فقد كان كلفا بولادة بنت المستكفى — وهى امرأة من بنات الخلفاء الأمويين بالأندلس فيها ظرف وأدب ولها نوادر ونظم رقيق — وسمع الوزير الأندلسى « ابن عبدوس » بولادة ، فأرسل إليها امرأة من جهته تستميلها إليه ، وتذكر لها محاسنه ومناقبه ، وترغبها فى التفرد بمواصلته. وبلغ ذلك ابن زيدون وهو من هو غراما بها وتدلها فيها ، فثار غضبه ، وأنشأ يكتب رسالة جوابا له عن لسانها تتضمن غرائب من سب ابن عبدوس ، والتهكم به ، والسخرية منه ، وجعل الرسالة جوابا له على لسان ولادة ... وأرسلها إليه ، فبلغت منه كل مبلغ ، وذاعت فى الآفاق ، وحفظها الناس ، وتندروا بها ، مما جعل ابن عبدوس يتضاءل ، وتصغر نفسه ، ويمسك عن التعرض لولادة .

ولم يدع ابن نباتة فى خلال شرحه لرسالة ابن زيدون مثلا إلا ذكر مضربه ، ولا خبرا إلا فصل القول فيه ، ولا علما من الأعلام إلا ترجم له ، وذكر من أخباره ما لا نجده فى كتاب آخر . ومن الأعلام الذين ترجم لهم : الأحنف بن قيس ، وأبو الأسود الدؤلى ، وأكثم بن صيفى ، وامرؤ القيس ، وبشار بن برد ، وأبو تمام ، والجاحظ ، وحاتم الطائى ، والحجاج بن يوسف ، ودريد بن الصمة ، والزباء ، وزيد الخيل ، وطويس المغنى ، وعبد الحميد الكاتب ، وعبد الله بن معاوية الهاشمى ، وعبد الحميد الكاتب ، وأبو العتاهية ، وعمر بن أبى ربيعة ، وعمرو بن هند ، والفرزدق ، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ومجنون ليلى ، والمهلب بن أبى صفرة ، والنعمان بن المنذر ، والنظام وغيرهم .

وكتاب «مطلع الفوائد ومجمع الفرائد» قسمه مؤلفه ابن نباتة إلى ثلاثة أقسام كبار . فالقسم الأول يشتمل على ثلاثة فصول : أولها فى بعض قضايا من غرائب الحديث النبوى ، وثانيها فى ذكر غرائب الأساليب العربية ، وثالثها فى بعض أبيات المعانى المشكلة القديمة والمحدثة .

وقد بلغ مجموع أبيات هذه المعانى فى هذا الفصل اثنين وأربعين بيتا ، موزعة بين المدح والوصف والغزل والمراثى والهجاء ، والاستعطاف .

والقسم الثانى من الكتاب تناول فيه ابن نباتة مبتدعات الشعراء ومخترعاتهم ، بدءا من الشاعر مسلم بن الوليد ، وانتهاء بابن نباتة نفسه ، الذى رأى أن لاينسى نفسه وهو فى موقف الاختيار من مبتدعات الشعراء ، وقد بلغ عدد الشعراء الذين اختار لهم روائع ، وعثر عندهم على بدائع ، خمسة عشر شاعرا هم على الترتيب الزمنى : مسلم بن الوليد ، أبو نواس ، أبو تمام ، البحترى ، ابن الرومى ، ابن المعتز ، المتنبى ، ابن نباتة السعدى ، الشريف الرضى ، التهامى ، أبو العلاء المعرى ، ابن سنان الخفاجى ، ابن قلاقس الأسكندرى ، ابن سناء الملك ، ابن نباتة المصرى .

ولم يرجع ابن نباتة باختياره لمخترعات الأشعار إلى ماقبل الشاعر مسلم بن الوليد ، ولم يسقط على العصر الجاهلى وصدر الإسلام وبنى أمية . وهو يرى أن مسلم بن الوليد هو (الأول الذى أرق معانى الشعر و الكبير الذى علم أهل هذه الصناعة السحر . . .)

وقد حصر المؤلف الأبواب التى أجاد فيها هؤلاء الشعراء الخمسة عشر فى المدح ، والوصف ، والنسيب ، والرثاء و الأغراض المختلفة . ففى باب المديح يأتى بمخترعات كل شاعر على حسب ترتيبهم الزمنى ، مبتدئا بمسلم ابن الوليد ، ومنتهيا بنفسه . وكذلك يفعل فى بقية فنون الشعر التى اختارها . ومعنى هذا أن الشاعر المختار له يتكرر ورود اسمه خمس مرات ، فى خمسة أبواب من الشعر .

ويذكر لنا ابن نباتة فى خطبة كتابه ماالذى يعنيه بالاختراع والمعانى المخترعة فى الشعر فيقول : (وعنيت بالاختراع من ولد معنى جليلا وجلاه ، وكمله واستوفاه ، فصار من سواه أحق به ، وأولى بانتمائه ونسبه ، ولم أذكر من أين خطفه وقطفه ، لأن ذلك مما يقتضى ملل الفكر الطامح ، ويوقع فيما عبته من اختلاط السانح بالبارح . وأغنيت به عن تفتيش الكتب المسهبة ، والأسفار المنصبة ، والدواوين ومناقشة حسابها ، والمؤلفات والوقوف على أبوابها) .

والقسم الثالث من الكتاب يتناول معانى الكتاب المخترعة . وقد حصر عدد الكتاب المختار لهم فى ثمانية أولهم بديع الزمان الهمذانى ، وآخرهم ابن نباتة نفسه . وقد رأى المؤلف فى هذا القسم المنثور أن لاينسى نفسه ، فاختار لشخصه فيما اختار من مخترعات المنثور ، ورأى أن يسلك نفسه فى عقد ثمانية من الكتاب اعتقد أن كتاباتهم تمثل نماذج رائعة فى فن

الكتابة العربية . وهؤلاء الكتاب هم : بديع الزمان الهمذانى ، وأبو القاسم الحسين بن على المعروف بالمغربى ، وأبو الحسن بن بسام ، والقاضى الفاضل ، وهبة الله بن سناء الملك ، وضياء الدين بن الأثير الجزرى ، ومحى الدين بن عبد الظاهر ، والمؤلف جمال الدين ابن نباتة المصرى :

وكان ابن نباتة كثير الإعجاب بالقاضى الفاضل وطريقته فى الكتابة ، فجعله معلما من معالم الطريق ، وذكر بدائع المتقدمين عليه ، والمتأخرين عن زمانه .

وإذا كان ابن نباتة فى باب مخترعات الشعراء يجتزئ بالبيت الواحد أو البيتين أو بضعة الأبيات عن أيراد القصيدة كلها لشاعر المختار له فإنه فى باب مخترعات الكتاب يجتزئ بالعبارة الواحدة عن أيراد الرسالة كلها ، لأنه بصدد الوقوع على معان مفردة مخترعة لا بصدد التسجيل لآثار نثرية كاملة . وقد يكون هذا جائزا ومقبولا فى الشعر ، لأن البيت أو البيتين أو حتى بضعة الأبيات قد تكون وحدة قائمة بذاتها ، على أن السطر أو السطرين من الرسالة النثرية قد تبتر أوصالها فلا يعرف القارئ أين هو منها .

ويبدو فى الكتاب استقلال المؤلف بشخصه وظهور شخصيته فى الآراء . فهو ليس مجرد ناقل ، ولكنه ينخل الآراء ويعلق عليها ويبدى رأيه فيها ، كأن يقول : (وهذا أقرب الأقوال إلى الحقيقة) أو يقول : (وهذا معنى بعيد . وما أعتقده أراد بالماءين غير عينى الناقة ، وأنه أغارهما من الكلال وجهد السير ، وهذا القول كثير فى أشعارهم) ، أو يقول : (وهذا قول ساقط لا يخفى على من عنده أدنى فهم بالمعانى ، فأن المراد بالأسود العرب ، والحسن لهم ، وأقبح ما يكون القبح فى البيض ، أو يقول : (وهذا نقل غريب لم أجده فى أكثر الكتب فى اللغة ، فإن صح ، فيكون هذا الوجه أقرب الوجوه ، على أن قول أبي عبيدة أمكنها ....) .

وإذا كان ابن نباتة فى شرحه لرسالة ابن زيدون الهزلية قد وقف عند كثير من الأشارات الأدبية والتاريخية فجلاها ، وفصل الكلام فيها ، فأنه كان كذلك فى كتاب «مطلع الفوائد ومجمع الفرائد» أنه يستطرد وينتقل من غرض إلى غرض ، ويجره الحديث عن شئ إلى الحديث عن شئ آخر . فانه فى خلال حديثه عن العرفج — وهو النبت الذى تسرع النار فيه إذا أوقد — استطرد إلى ذكر نيران العرب ، فقال : (وعلى ذكر النار فأنا أجرى شيئا من ذكر نيران العرب لا تخلو معرفتها من فائدة ، كانت لهم من النيران :

نار الحلف ، وهى النار التى كانوا لا يعقدون حلفهم إلا عندها ، ويذكرون منافعها ويدعون الله بالحرمان من منافعها على من نقض العهد . وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم ، يهولون بذلك على من يخاف غدره .

ونار الحرب ، كانوا يوقدونها إذا أرادوا حربا وتوقعوا جيشا ، ليبلغ الخبر أصحابهم

فيجتمدون. وربما جدوا فى الطلب فأوقدوا نارين . قال الفرزدق :

ضربوا الصنائع بالملوك ، وأوقدوا
نارين أشرفتا على النيران

ونار المسافر ،وهى النار التى كانت توقد خلف المسافر الذى لا يحبون رجوعه، يقولون فى الدعاء : أبعده الله وأسحقه، ثم يوقدون نارا أثره . ومنها قول بعضهم :

وجمة أقوام حملت ، ولم تكن
لتوقد نارا إثرهم للتندم

ونيران كثيرة أضربت عن ذكرها حذرا من الخروج عن المقصود ......)

وإذا كان الاختيار من الشعر أو النثر يدل على ذوق خاص عند الشخص المختار، فان الاختيارات تبعا لهذا تتغير من شخص إلى آخر، ولا ينتظر أن نلتقى عند أبى تمام مثلا فى مختاراته ما نلقاه عند البحترى ، أو عند صاحب الحماسة البصرية، أو عند محمود سامى البارودى فى مختاراته ، أو عند الشاعر جميل صدقى الزهاوى فيما اختاره من عيون الشعر. إن الأذواق تتفاوت . وقد تكون أبيات تشترك هنا وهناك عند واحد من أصحاب المختارات الشعرية . ولكن الغالب أن يستقل كل صاحب اختيار بذوق خاص ، وطعم خاص . ومن هنا نجد فيما اختاره ابن نباتة من مخترعات الشعراء ومبتكراتهم ما لا نجده عند غيره من أصحاب الاختيار . وقد وقع فى الحق عند من اختارلهم على معان جياد لا نرى أن نزحم المكان هنا بإيراد بعضها، ولكنا يجب أن نشير إلى أنه قد أمدنا بأشعار للشعراء الذين اختار لهم، لا نجدها فى دواوينهم التى بين أيدينا . مما يدل على أنه وقعت له نسخ خطية من دواوين هؤلاء الشعراء لم تقع لنا. وأكثر ما يظهر هذا بصورة تلفت النظر فى الأشعار التى اختارها لابن الرومى، مما جعل المحقق الفاضل الدكتور عمر موسى باشا يكرر هذه العبارة فى مواطن كثيرة : (لم أعثر على هذا البيت ، أو هذين البيتين ، أو هذه الأبيات فى الديوان ...) .

ومثل هذا ماروواه ابن نباتة من شعر لابن الرومى فى المديح يقول فيه :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم
فى الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ، ومصابح
تجلو الدجى ، والأخريات رجوم

فقد علق المحقق على هذا الشعر بقوله : (لم أعثر عليه فى الديوان) والحق أن هذين البيتين موجودان فى « وفيات الأعيان» لابن خلكان فى خلال الترجمة للشاعر ابن الرومى ج ١ ص ٤٤٢ وقد رواهما ابن خلكان قائلا : (وله أيضا وقال: ماسبقنى أحد إلى هذا المعنى) . ولم يفت الشاعر محمود سامى البارودى فى الجزء الأول من مختارات البارودى ص ٤٠١ أن يسجل هذين البيتين من مدائح ابن الرومى .

ويظهر أن ديوان ابن الرومى لم يصل إلينا كاملا وأن هناك نسخة خطية منه تزيد على ما فى أيدينا من النسخ بألف بيت. ويؤكد هذه الحقيقة ماذكره ابن خلكان وهو يتحدث عن ابن الرومى وعن ديوانه قائلا : (وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ ، وزاد على

كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت)

وكذلك الشأن فى الأبيات النونية التى رواها ابن نباتة لابن الرومى فى مدح إسماعيل بن بلبل المعروف بأبى الصقر ، وهى :

قالوا: أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرا شرف
كما علت برسول الله عدنان
ولم وأقصر بشيبان التى بلغت
بها المبالغ أعراق وأغصان
صانوا النفوس عن الفحشاء وابتذلوا
منهن فى سبل العلياء ماصانوا
المنعمون ، ومامنوا على أحد
يوما بنعمى ، ولو منوا لمامانوا

فقد علق المحقق الفاضل على هذه الأبيات بأنه لم يعثر علها فى ديوان ابن الرومى . وهذا حق . ولكن الأبيات من القصيدة النونية التى تبلغ عدتها مائتى بيت . وقدأورد الحصرى القيروانى فى « زهر الآداب » هذه الأبيات الضائعة صفحة ٢٧٢ ، كما أوردها البارودى فى مختاراته . وليس ابن الرومى هو الشاعر الوحيد الذى لم تدخل بعض أشعاره فى ديوانه ، فهناك الشاعر المتنبى الذى يصرح ابن نباتة فى « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » بأن له أشعارا لم تدخل فى ديوانه . وقد استكمل الأستاذ العلامة عبد العزيز الميمنى الراجكوتى هذه الأشعار الضائعة فى كتاب « زيادات ديوان المتنبى » المطبوع فى المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٦ هـ

وإذا كان ابن نباتة قد قصد من كتابه « مطلع الفوائد ومجمع الفرائد » أن يتقرب به إلى الملك المؤيد صاحب حماة وأن ينال به الحظوة عنده والقربى لديه حينما وجه قصده أليه بعد هجرته من مصر ، فأنه من ناحية أخرى أراد أن يجمع فى كتابه هذا طرائف المعانى وأبكارها عند بضعة عشر شاعرا رأى أنهم أحق بالأخذ منهم ، والنقل عنهم ، وأن يجمع فيه أيضا طائفة من مبتكرات المعانى فى أقوال االبلغاء من الكتاب ، ليجمع فى هذا بين الجيد من قطاف الشعر والنثر . وندعه هنا يعبر بنص عبارته المسجوعة عن هذا القصد بقوله :(وحيث كانت غاية هذا الفن المشهورة وآيته المأثورة النظر فى دقائق المعانى التى هى الأرواح وغيرها الجسوم ، والسكان وماسواها الرسوم ، والاطلاع على أقوال العلماء فى البحث عن فنونها الغامضة ، ومبتدعات الشعراء والكتاب التى هى للأفكار جد رائضة ، ليكون ذلك عونا للمبتدىء على تلقيح ذهنه ، وللمنتهى على تجديد العهد الصالح بفنه ، جعلت هذا الكتاب موضوعا على ذكر ماتناهت أفكار العلماء فى تنقيحه ، وأذهان الشعراء والكتاب فى ترشيحه وترجيحه ، من المعانى الدقيقة أثرا ، الجليلة خطرا ...)

وإذا كان لنا من كلمة فى طريقة اختيار ابن نباتة فى هذا الكتاب ، فأنه فى الحق

على الرغم من ذوقه البالغ وحسه المرهف في الاختيار – قد ضيق على نفسه الباب من ناحيتين : الأولى حيث حصر نفسه في نطاق خمسة عشر شاعرا ، وثمانية كتاب لايتعداهم إلى غيرهم . وبهذا قيد نفسه بقيد لايستطيع الفكاك منه ولا الخروج عنه .
والثانية أنه قيد نفسه في أبواب الشعر ومعانيه بخمسة هي المدح والوصف والنسيب والرثاء والأغراض المختلفة ، وبهذا ضاق لديه مجال الاختيار ، ولم يتسع كما اتسع مثلا لدى أبي هلال العسكري في كتابه «ديوان المعاني» الذي يعد رائدا في هذا الباب .

وبعد : فاني وفق مجمع اللغة العربية بدمشق في جعل هذا الكتاب من سلسلة مطبوعاته الثمينة التي يصدرها والتي يثري بها المكتبة العربية بما تحمله دائما من حسن الاختيار ودقة التحقيق ، وجمال الإخراج . ولاشك أن « مطلع الفوائد ، ومجمع الفرائد » كان من الاختيارات الحسنة للكتب المخطوطة التي يرى نشرها . وقد كان حريا بالنشر من زمن بعيد . ولاندري ماالذي عوق نشره الى وقتنا هذا ؛ ولولا أن اجتمع له عزم المحقق ، وإرادة المجمع ماظفرنا به في هذه الحلة الأنيقة الرقيقة .

والحق أن جهد المحقق الفاضل هنا وفي هذا الكتاب واضح ، ويستحق عليه الشكر ويستوجب التهنئة ، لولا بعض مسائل نود أن نناقشه فيها ليتجلى وجه الصواب .

* في صفحة ٢٩٦ ورد البيت الآتي للشاعر عبد الله بن المعتز في باب النسيب ، هكذا

كيف لايخضر شاربه
ومياه الحسن تشقيه

ولامحل للشقاء هنا ولامعنى له ، وإنما هو : (تسقيه)بالسين المهملة غير المعجمة، وهذا بالطبع من أخطاء الطبع . وقد كان في النية أن لاأذكره ، لولا أن المحقق لم يصححه في فهرس التصويبات والمستدركات بآخر الكتاب ، مما يوهم أنه ليس خطأ مطبعيا ، وأنه مما ند عن المحقق .

* وفي صفحة ٢٤٥ ، ورد البيت الآتي من شعر ابن المعتز في وصف الديك مضبوطا بالشكل على هذه الصورة :

وقام أعلى الجدار مشترف
كمثل طَرف علاه أسوار

بفتح الطاء من كلمة « طرف » ، وهو خطأ صوابه : طِرف بكسر الطاء ، والطرف هو الجواد أو الفرس ، والأسوار هو الفارس الذي يركب الحصان .

* وفي صفحة ٢٢٣ ، جاء البيتان الآتيان من شعر ابن نباتة في المديح هكذا :

الله جارك ماأبر أناملا
تملي بدائع وصفها فتقول

لو أثر التقبيل في يد ماجد
لمحا براجم كفك التقبيل

كأن كلمة « براجم » مكونة من حرف الجر : الباء ، ومن اسم الفاعل : راجم ،

بدليل كسر الميم من لفظة براجم ، كأنه مجرور بالباء . وليس هذا بالذى يريده الشاعر . وإنما يقصد الشاعر بالبراجم أنها جمع « برجمة » وهى مفصل الأصبع من اليد . ومعنى البيت كله على هذا أنه لو كان التقبيل يؤثر فى يد ماجد لبلغ من كثرة مقبلى يدك أن التقبيل الكثير يمحو براجم الأصابع . والمراد هنا براجم الأصابع لا الراجم ...

* وفى صفحة ١٨٥، ورد البيت الآتى من شعر ابن الرومى فى المديح مضبوطا بالشكل هكذا :

أزمانه بنداه الغمرُ أشتية
وإن غدت بجناه الحلوُ أصيافا

بضم الراء من لفظه «الغمر» والواو من لفظة «الحلو» ولا وجه لرفع الكلمتين ، وإنما هما مجرورتان لأن كلا منهما نعت لما قبلها، فالغمر نعت لنداه وهى مجرورة بالباء والحلو نعت لجناه وهى مجرورة بالباء أيضا . وصواب البيت ان يضبط هكذا

أزمانه بنداه الغمرِ أشتية
وإن غدت بجناه الحلوِ أصيافا

* وفى صفحة ٢٢٧، ورد البيت الآتى من شعر ابن نباتة فى المديح هكذا :

يفوح فى الطرس من أمداحهم أرج
كأنما النقس فى طرس دخانِ كبا

ولا معنى لإضافة دخان إلى طرس ، فليس هناك (طرس دخان) حتى يضاف أحدهما إلى صاحبه . والصواب أن يضبط البيت بالشكل هكذا :

يفوح فى الطرس من أمداحهم أرج
كأنما النقس فى طرس دخانٌ كبا

أى كأن النقس — أو المداد — فى الطرس هو دخان عود الكباء . وقد قصر الشاعر لفظة كباء بدلا من مدها . وعلى هذا تكون لفظة : دخان، مرفوعة لأنها خبر كأنما ، وليست مضافه إلى طرس .

* وفى صفحة ٢٨٦ أورد البيت الآتى من شعر أبى نواس هكذا :

كل اللباس عليها منظر حسن
وكلما تتغنى فهو مقترح

بوصل «ما» فى «كل» فى الشطر الثانى ، والصواب

وكل ما تتغنى فهو مقترح

أى كل الذى تتغنى به فهو مقترح . فما هنا اسم موصول بمعنى الذى .

وفى صفحة ٣٣٠ ، ورد البيت الآتى لأبى تمام فى الرثاء على هذه الصورة :

ألم تريا الأيام كيف فجعننا
به ، ثم قد شاركتنا فى المآتم

بإلحاق تاء التأنيث بالفعل : شاركتنا ، والصواب أنهانون النسوة العائدة على الأيام، كنون النسوة فى الفعل الذى قبله : **فجعننا.**

* وفى صفحة ٢٩٠، ضبطت كلمة «يمنع» فى البيت الآتى بالضم هكذا :

ألمت بنا بعد الهدوء فسامحت
بوصل متى تطلبه فى الجد يمنع

والصواب ضبطها بالكسر ، لأن القافية كلها مكسورة ، بدليل البيت الذى بعده وهو :

وولت كأن الليل يخلج شخصها
أوان تولت من حشاى وأضلعى

* وفى صفحة ٤١٤ ، وردت هذه العبارة من نثر القاضى الفاضل هكذا :

(فدعونا من بعلبك الأعسر ، وشتائه العذاب الأكبر) : وهنا مأخذان : الأول لفظة فدعونا كأنها فعل ماض ، والصواب أنها فدعونا ، هى فعل أمر ، أى اتركونا واتركوا ذكر بعلبك : والمأخذ الثانى هو ضبط كلمة العذاب بالفتح ، والصواب كسرها لأنها صفة لكلمة شتاء وهى مجرورة بمن .

وبعد : فهذا هو كتاب «مطلع الفوائد ومجمع الفرائد» للشاعر المصرى جمال الدين ابن نباتة، عرضناه وعرضنا طرفا من سيرة مؤلفه، كما عرضنا جهد المحقق الفاضل فيه . وهو جهد نرجو أن يبلغ التمام فى المقبل من الكتب .

وبالله التوفيق

محمد عبد الغنى حسن



كلمة الأستاذ زكي المهندس نائب الرئيس

فى حفل استقبال الأعضاء الأربعة الجدد الذى اقيم بدار المجمع بالجيزة صباح الأربعاء ١٧ من ابريل ١٩٧٤

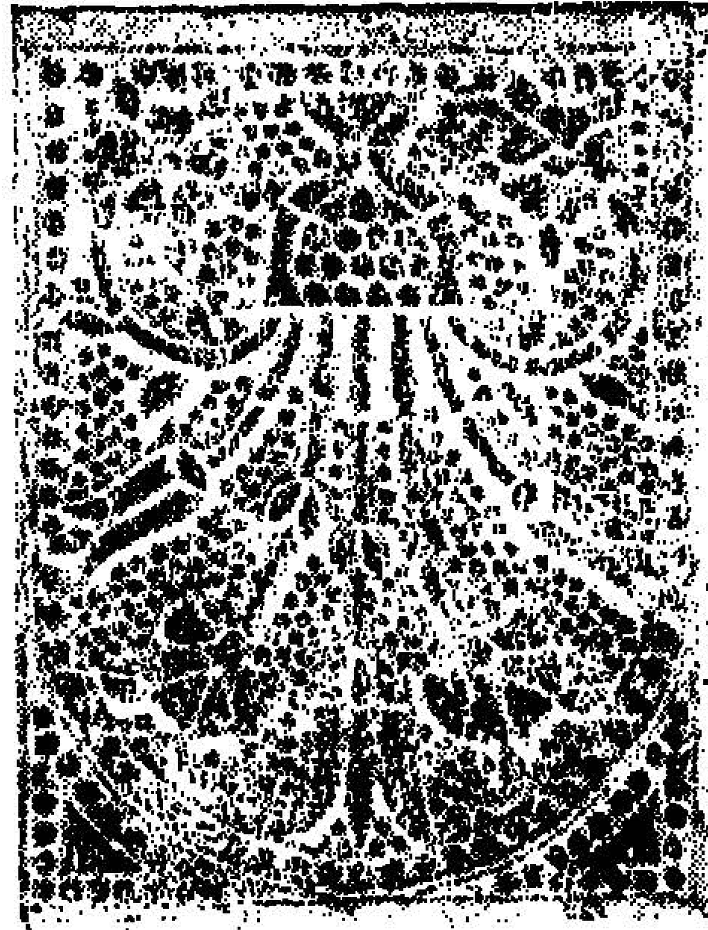
زملائى ، سيداتى ، وسادتى :

إنه ليسر المجمع كل السرور أن يستقبل اليوم أربعة من أعضائه العاملين الجدد ، وهم الأساتذة : الأستاذ على النجدى ناصف والأستاذ محمد شوقى أمين ، والدكتور أحمد عز الدين عبد الله ، والدكتور عثمان أمين .

وقد اختارهم المجمع لعلمهم وكفايتهم وإنتاجهم ، وقد كان المجمع ولا يزال وسيظل دائما مثابة للكفاءات العالية ، وملتقى للثقافات الممتازة ؛ والمجمع إذ يهنئ الزملاء الأربعة بما نالوا من ثقة وتقدير ، ليثق كل الثقة بأنهم سيبذلون كل جهودهم وكل طاقاتهم ، بما آتاهم الله من علم وكفاية : سيبذلون كل هذا فى تحقيق رسالة المجمع ، وإنهم لفاعلون إن شاء الله .

أما الآن أيتها السيدات والسادة فسيتولى استقبال الزملاء الأربعة ، الزميل الدكتور محمد مهدى علام ، وقد كان من المقرر أن يستقبل هؤلاء الزملاء الزميل الأستاذ الجليل عبد الحميد حسن ، ولكنه اعتذر لوعكة أصابته ، فباسم المجمع وباسمكم جميعا نرسل له أخلص تحياتنا ، وأطيب أمانينا له بالشفاء العاجل .

وليتفضل الدكتور محمد مهدى علام مشكوراً بإلقاء كلمة الاستقبال ، وسيحدثكم بعده كل من الزملاء الأربعة بكلمة يتحدث فيها عن سلفه . . .



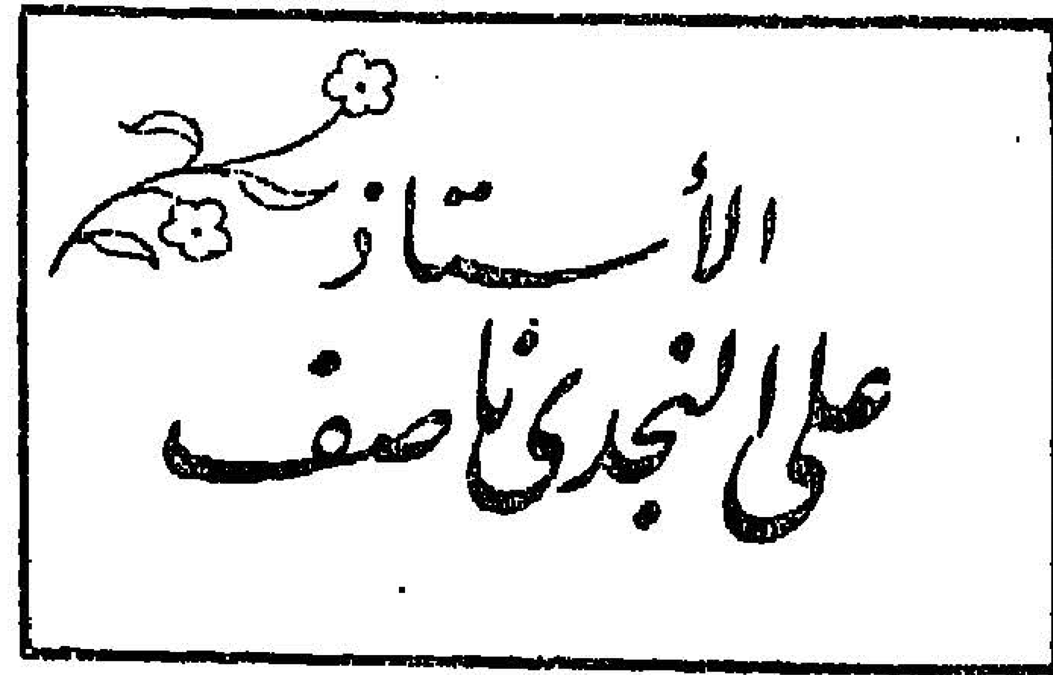
كلمة الأستاذ عبد الحميد حسن فى استقبال الأعضاء الأربعة

(ألقاها الدكتور محمد مهدى علام عضو المجمع)

* سيدى الرئيس : باسم المجمع وعن لسان الأستاذ عبد الحميد حسن ، أتشرف باستقبال الزملاء الأربعة : الأساتذة : على النجدى ناصف ، ومحمد شوقى أمين ، وأحمد عز الدين عبد الله ، وعثمان أمين ، وأرحب بهم بيننا فى هذا المجمع الموقر .

* سيدى الرئيس : سادتى أعضاء المجمع ، سيداتى ، سادتى

يسعدنى أن أنوب عن المجمع فى استقبال الأعضاء الأربعة الذين حظى بهم هذا المجمع فى الانتخابات الأخيرة وهم جميعا ممن يستحقون الإكبار والإعظام لما لهم من مكانة مرموقة وآثار لها جليل الشأن .



تخرج فى دار العلوم سنة ١٩٢١م واشتغل بالتدريس ثم بالتفتيش فى وزارة المعارف، ثم اختير مدرسا فى دار العلوم سنة ١٩٤٣ م ، ثم رقى أستاذا مساعدا ثم أستاذا للنحو والصرف والعروض وفى أثناء ذلك أختير وكيلا لكلية دار العلوم . وحين بلغ السن القانونية عين أستاذا غير متفرغ بالكلية ، ولا يزال كذلك إلى الآن .

وأول لقائى بالزميل الكريم كان فى إحدى مدارس المعلمين الأولية ، وكانت هذه المدارس معقد الآمال وموطن الرجاء لتخريج المعلمين الذين يتولون إعداد الجيل الراشد العامل فى ميادين النشاط الحيوى وكان عددها خمسا وعشرين مدرسة منتشرة فى أنحاء القطر المصرى من أسوان إلى شواطئ البحر المتوسط وكان من حظى أول عهدى بالتفتيش ، أو التوجيه كما يسمى الآن ، زيارة هذه المدارس جميعا ، وكان القائمون على أمر التعليم الأولى يختارون لها الأفذاذ من معلمى اللغة العربية وغيرها من المواد .

وفى مدرسة دسوق للمعلمين حظيت بزيارة الأستاذ على النجدى وكان يلقى درسا يعد من أدق الدروس وأدلها على مقدرة العلم ومهارته فى مادته وطريقته وهو درس التعبير أو الإنشاء الشفهى ،

وكان موضوع الدرس من مشاهدات البيئة المحلية، وهو «سوق يوم السوق» .

وكان فى أدائه وإلقائه وحواره نموذجا للمعلم القدير والمربى الماهر الذى يتخذ من درسه وما يعالج من حقائق وسيلة لبناء العقول وإنشاء الانفس ، وكان بذلك محققا لقول شاعرنا شوقى :

أرأيت أعظم أو أجل من الذى
يبنى وينشئ أنفساً وعقولا

رأيت كل هذا من الزميل الكريم فامتلأ قلبى وسمعى وبصرى إجلالا له وتقديرا .

ثم مرت الأيام وإذا به يصل إلى الذروة التى كانت مطمح أنظار معلمى اللغة العربية وهى «دار العلوم» ذلك المعهد الذى كانت تحيا فيه اللغة العربية بفروعها الأدبية واللغوية وما يتصل بذلك من الوان الثقافة الإسلامية .

وقد سار الأستاذ النجدى فى دار العلوم يصحبه التوفيق حتى وصل إلى درجة الأستاذية ، ولم تنحسر عنه هذه الصفة حتى بعد بلوغ سن التقاعد فهو مازال أستاذا غير متفرغ يقوم برسالته على أكمل الوجوه وأتمها .

وكان فى جميع أدوار حياته مثالا للجد والنشاط عاكفا على الدرس والبحث ، ومن آثاره الأدبية واللغوية كتب مؤلفة وأخرى محققة وطائفة من المقالات والبحوث

(الكتب المؤلفة)

١ — سيبوية إمام النحاة : ويتضمن مقدمة فى تطور النحو ثم دراسة تحليلية ونقدية لكتابه العظيم .

٢ — من قضايا اللغة والنحو : دراسة لجوانب ومشكلات ذات بال ، مثل قوالب التعبير ، والإعراب وعلاقته بالمعنى ، والتأويل والتقدير فى اللغة ، والفصحى والعامية .

٣ — أبو الأسود الدؤلى : وصف لعصره ولحياته ، وبيان لآثاره العلمية والأدبية ، وعرض لأولية النحو بالمناقشة والتحليل .

٤ — الدين والأخلاق فى شعر شوقى دراسة مستفيضه قوامها العرض والتحليل والموازنة والنقد .

٥ — دراسة فى حماسة أبى تمام : تستهل بمقدمة مسهبة عن الاختيار فى الشعر وتطوره مع دراسة نماذج من الحماسيات تقوم على التحليل والموازنة والنقد .

٦ — ابن قيس الرقيات شاعر السياسة والغزل :

ترجمة ودراسه لفنون شعره .

(الكتب المحققه) .

١ — الجزء العشرون من كتاب الأغانى

٢ — الجزء الثالث من لسان العرب

٣ — الحجة فى القراءات السبع للفارسى

٤ — مراجعة تحقيق الجزء الثالث من معانى القرآن للفراء

(المقالات والبحوث) .

وتبلغ نحو خمسين مقالا وبحثا فى اللغة والأدب والنقد ، نشرت فى مجلة مجمع اللغة العربية وفى مجلات وصحف أخرى .

هذا هو الزميل الجديد الأستاذ على النجدى ناصف نرحب به فى مجمعنا الموقر .

الأستاذ محمد شوقي أمين

إن الحديث عن الزميل الكريم محمد شوقى أمين وعن ثقافته وعن معلوماته الشاملة الوافية ، حديث طريف ممتع .فشعاره الذى كان يسعى إلى تحقيقه فى جميع أدوار حياته هو « أن الحكمة ضالة الباحث يلتقطها أنى وجدها » ، وقد عكف على التحصيل يطرق إليه كل باب ، ويتتبع كل مورد عذب فينهل منه مايروى ظمأه واستمر ينقب ويبحث ويختزن فى ذاكرته اللامعة وذهنه الخصب وقريحته الوقادة حتى صار بحراً تتلاطم أمواجه ويحتفظ فى قراره المكين بدرر من طرائف اللغة والأدب وشوارد الحقائق، التى تتطلب بحثا عميقا وتوفرا على الاطلاع .

وقد التحق السيد شوقى أمين فى مبدأ حياته بالقسم الابتدائى بالأزهر ثم انتقل إلى القسم الثانوى بهوكان هذا القسم قدبدأ يسير على النظام الحديث وأدخل فى منهجه العلوم الحديثة مثل الحساب والجبر والهندسة والرسم والطبيعة وغير ذلك من العلوم التى كانت تدرس فى المدارس التابعة لوزارة المعارف . ولكن شوقى أمين كان الميل الذى يتغلغل فى نفسه ويملك عليه حواسه ومشاعره هو دراسة الأدب واللغة فانصرف عن متابعة دروس القسم الثانوى بالأزهر وتابع الخطا للتوفر على ما يميل إليه فكان يذهب إلى دار الكتب المصرية يستعير منها أمهات الكتب ويعكف على دراستها ، وبذلك صقل فكره وأرهف قلمه وبدأ يكتب فى الصحف اليومية فنشرت له صحيفة الأهرام سنة ١٩٣٢ قبل إنشاء مجمع اللغة العربية مقالات متوالية فى التوطئة لإنشاء المجمع ، منها منها مقالات بعنوان « المجمع اللغوى لماذا يراد » وعنوان « المجمع اللغوى كيف يراد» ومنها مقالات « اللغويون قديما وحديثاً » .

ونشرت له المجلات والصحف — كالرسالة والثقافة والأهرام والبلاغ وكوكب الشرق — عشرات المقالات فى اللغة والأدب والنقد وخصصت له مجلة الهلال باباشهريا حرره خلال السنوات العشر من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٦١ اشتمل على توجيهات لغوية ونظرات نقدية وتصويبات للألفاظ والتراكيب.

واشترك أيضا فى تحقيق مخطوطة من ديوان «بشار بن برد» خرجت فى ثلاثة أجزاء وبعدها فى جزء رابع فى مستدرك شعر بشار .

هذه إلمامة عن نشأته قبل أن ينضم إلى مجمع اللغة العربية .

أما نشاطه فى مجمع اللغة العربية فقد كان حافلا بالإنتاج الغزير ولا يزال كذلك إلى الآن .

وفى خلال عمله بالمجمع قامت فى سبيله عقبة إزاء وضعه فى المرتب الذى منحه

والدرجة المالية التى توائم ثقافته وتحصيله ذلك أن القوانين المالية كانت تشترط للتعيين فى أولى الدرجات المالية ثم متابعة الترقى أن يكون الموظف حاصلا على الشهادات الرسمية لكى يتسنى له التمتع بالرقى المالى المتتابع ، وعلاجا لهذا الوضع كتب رئيس مجلس الوزراء إذ ذاك مذكرة عرضها على مجلس الوزراء فى هذا الشأن سنة ١٩٤٦ جاء فيها «إنه على جانب كبير من الثقافة الأدبية واللغوية وله من سعة الاطلاع ما يقوم مقام الشهادات العلمية وقد استطاع أن يقوم بأعمال فنية بكفاية وإخلاص وجدارة وامتياز» .

ولهذه المذكرة قصة طريفة وقد سمعتها من الأستاذ شوقى يرويها من ذاكرته الجيدة الواعية اللامعة ، وهى تنطوى على اهتمام ولاة الأمور المختصين من الوزراء وكبار شيوخ الأزهر وأعضاء هذا المجمع بالزميل شوقى أمين وبإعطائه ما يستحقه .

وللزميل شوقى إلى جانب ذلك نشاط آخر فى جهات ثلاث وهى :

مجمع اللغة العربية ، ولجنة الدراسات الأدبية بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ولجنة نشر المؤلفات التيمورية .

١ ــ أما نشاطه فى المجمع فيتجلى فى ناحيتين :

الأولى : لجنة الأصول ، ومهمتها ، كما جاء فى قانون المجمع ، هى «النظر فى قواعد اللغة وضوابطها لتوسيع أقيستها وتيسير نحوها وصرفها وإملائها ، ودراسة ما ينبغى استعماله أو تجنبه من ألفاظها وتراكيبها» . وللزميل شوقى فى هذه اللجنة نشاط شامل فى جميع ما أصدرته من آراء : وقد كتب مذكرات كثيرة فى مختلف المسائل اللغوية تشهد له بعمق البحث وسعة الاطلاع وهى مدونة فى محاضر هذه اللجنة .

والثانية : اشتراكه مع الزميل الكريم والعالم الجليل والباحث المدقق الأستاذ محمد خلف الله أحمد عضو المجمع فى إعداد الكتابين اللذين أصدرهما المجمع محتويين على القرارات المجمعية من دورته الأولى حتى الدورة الرابعة والثلاثين بعنوان (مجموعة القرارات العلمية) وبعنوان (فى أصول اللغة) وهما سجلان فى المنزلة الأولى دقة وعرضا .

٢ ــ لجنة الدراسات الأدبية وقد أختير الزميل شوقى عضوا فيها واشترك فى العمل العظيم الذى وضعت اللجنة خطة لإصداره وهو (سجل الأدباء) الذى يحوى تعريفا بالأدباء والمفكرين فى القرن العشرين بمصر .

ولقد كان الزميل شوقى بذاكرته القوية عونا فى إبداء الرأى فى معظم الأدباء الذين تعرض اللجنة أسماءهم فيذكر المعلومات الدقيقة الوافية التى تدل على اطلاعه الشامل على أدباء الجيل الحديث .

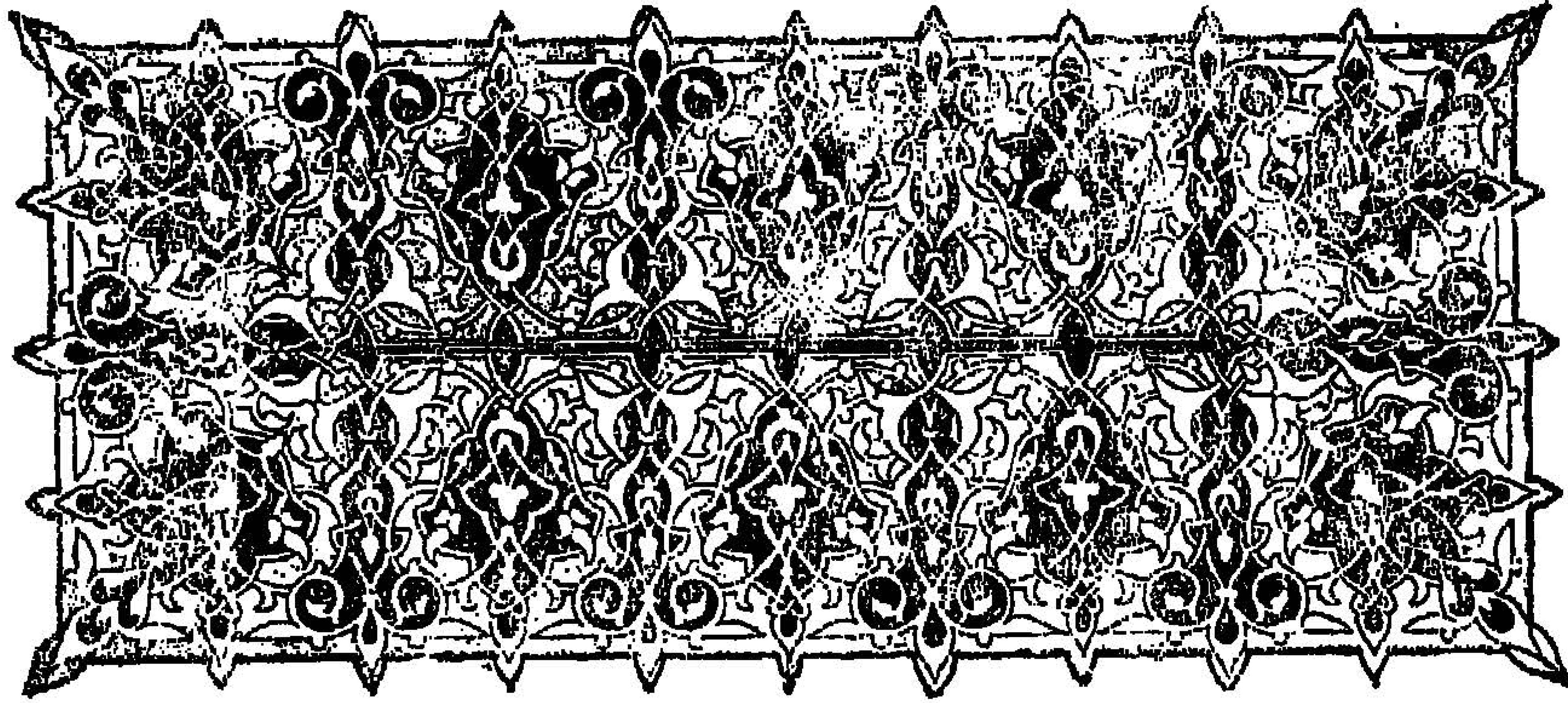
٣ ــ حقق جملة مما أخرجته لجنة نشر المؤلفات التيمورية من مؤلفات العالم الجليل (أحمد تيمور) ومنها : التذكرة التيمورية والسماع

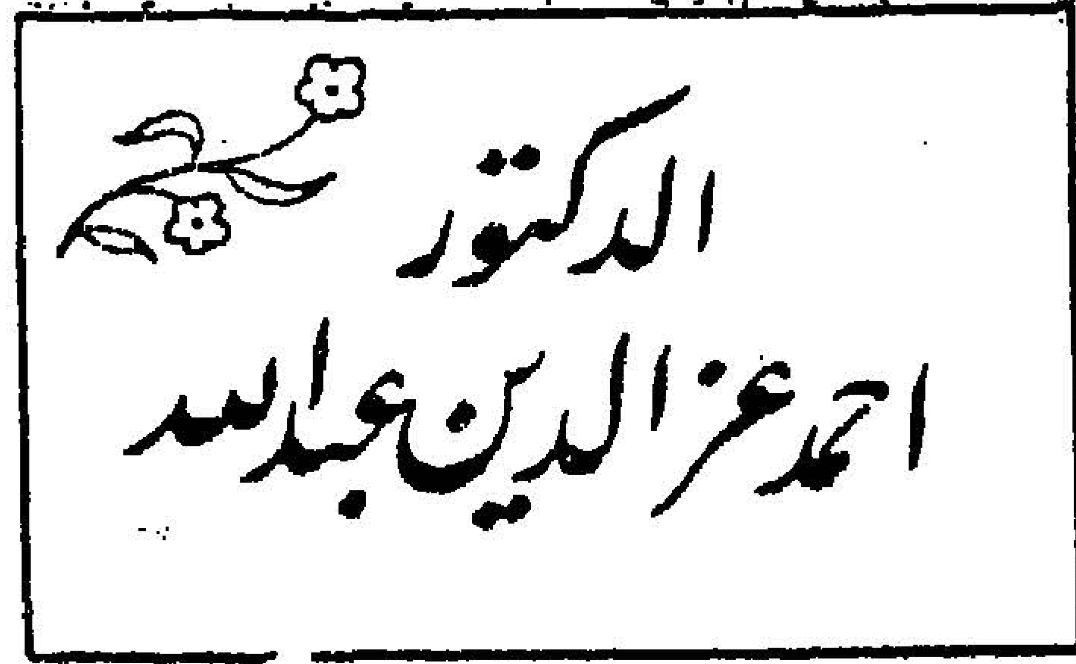
والقياس ، وأسرار العربية ، وأعلام الفكر الإسلامى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم .

وإلى جانب هذا النشاط فى هذه النواحى الثلاث قد اختاره معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية للاشتراك فى حلقة البحث بقسم الدراسات اللغوية والأدبية واختاره معهد الخدمه الاجتماعية للفتيات لإلقاء محاضرات فى الشريعة الإسلامية وتنسيقها للمجتمع .

واختاره كذلك معهد الإدارة والسكرتارية للفتيات لإلقاء محاضرات فى اللغة العربية .

هذه لمحة عابرة عن الزميل الكريم شوقى وعن نشاطه فى مختلف النواحى ، وإنه لنشاط يدل على علم غزير وأفق واسع واطلاع شامل فى شتى النواحى الأدبية واللغوية والإسلامية وإن انضمامه إلى عضوية مجمع اللغة العربية كسب عظيم ، ونحن نكرر تهنئته ونرحب به ونرجو له تمام التوفيق .





هذا علم من أعلام القانون وأستاذ من أساتذة الفقه التشريعي ، وإن انضمامه إلى عضوية مجمع اللغة العربية ومشاركته للأعضاء الذين حظى بهم المجمع من قبل ، سيكون قوة لها شأنها فى مجال الدراسات اللغوية القانونية التى يعنى بها المجمع ،وسيكون ذلك عونا على تعريب التعليم القانونى بالجامعات وعلى تأليف المراجع المختلفة فى هذا الميدان باللغة العربية السليمة ،وسينشر كل ذلك فى سائر الدول العربية ويتجه الجميع وجهة موحدة تزيد الوحدة السياسية والاجتماعية قوة وازدهار ونشاطا .

ولد الزميل الكريم الدكتور أحمد عز الدين عبد الله فى الأول من أكتوبر سنة ١٩١٣ م بقرية الرَّيْدمُون من أعمال مركز ملوى بمحافظة المنيا والتحق بكتّاب القرية فى السادسة من عمره حيث تعلم مبادىء القراءة والكتابة والحساب وحفظ بعض أجزاء من القرآن الكريم ، ثم وفد إلى القاهرة حيث تلقى التعليم الابتدائى والثانوى وحصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة الآن) سنة ١٩٢٩ والتحق بجامعة القاهرة وحصل منها على شهادات مختلفة ، وصلت قمتها لدرجة الدكتوراه ، وإنه لجدير بالتقدير والإعجاب لما له من شأن فى شتى النواحى القانونية وللمكان المرموق الذى سما إليه عن جدارة واستحقاق .

ويرجع ذلك إلى عوامل خمسة وهى :

١ — الدرجات العلمية التى نالها .

٢ — الوظائف التى شغلها .

٣ — النقابات والهيئات العلمية التى هو عضو فيها .

٤ — التدريس بالجامعات العربية والأجنبية .

٥ — المؤلفات والبحوث العلمية التى كتبها .

١ — أما الدرجات العلمية التى نالها من جامعة القاهرة فأولها الليسانس فى الحقوق سنة ١٩٣٣ ثم دبلوم الدراسة العليا فى القانون الخاص ثم دبلوم الدراسة العليا فى القانون العام ثم يتوج كل ذلك بدرجة الدكتوراه فى القانون وقد كتب المرحوم القانونى الكبير الدكتور عبد الرزاق السنهورى مقدمة لهذه الرسالة أشاد فيها بمقدرة الدكتور عز الدين عبد الله وأثنى عليه الثناء المستطاب ، ومما قاله « إنى أرى الرسالة قد غاصت فى أعماق المسائل التى تعرض لها الكاتب ثم انبسطت على جميع تفصيلاتها فلم تترك شاردة ولا واردة إلا كانت لها سجلا محفوظا . وقد أدهشنى المؤلف بقدرته على تفتيح الآفاق الواسعة للموضوع » ثم قال « إن المؤلف عالج المسائل فى وضعها العملى الصحيح ولم ينفذ إليها عن طريق النظريات

العلمية ، بل من الطريق الذى تبرز فيه أمام القضاء ، ولا أشك فى أن للمؤلف شخصية بارزة فى كتابته تجعل القارىء يشعر بها من أول صفحة فى الرسالة إلى آخر صفحة . . .»

٢ — وأما الوظائف التى شغلها فهو الآن أستاذ كرسى القانون الدولى الخاص ورئيس هذا القسم بكلية الحقوق بجامعة عين شمس ، وقد اختير عميدا لكلية الحقوق بجامعة عين شمس سنة ١٩٥٦ وظل عشر سنوات حتى أكتوبر سنة ١٩٦٦ .

وقد اختير أستاذ كرسى القانون الدولى الخاص بكلية الحقوق بجامعة القاهرة حتى سنة ١٩٥٢ ، وكان من قبل مدرسا لقانون المرافعات بكلية الحقوق بجامعة القاهرة حتى سنة ١٩٤٨ ، واختير أيضا محاميا بقسم قضايا البنك العقارى الزراعى المصرى من ديسمبر سنة ١٩٣٣ حتى ديسمبر سنة ١٩٣٨ ، وهو البنك الذى أنشأته الحكومة سنة ١٩٣٢ لتمصير الائتمان العقارى .

وكل هذه وظائف تدل على الكفاية والمقدرة وعرفان ما للزميل الكريم الدكتور عز الدين عبد الله من مكانة مرموقة ومقدرة قانونية شاملة تستحق التقدير . وقد بلغ عدد الخريجين من طلابه مايزيد على عشرين ألفا من رجال القانون الذين يتبوأون مختلف المناصب القانونية والقضائية حتى الدرجات العليا منها . كما جاوز عدد الخريجين خمسة آلاف من طلابه ضباط الشرطة .

٣ — وأما النقابات والهيئات العلمية التى هو عضو فيها فله فى هذا المجال نشاط موفور فهو : عضو بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية من سنة ١٩٦٤

ومقرر لجنة القانون بهذا المجلس منذ ذلك التاريخ .

وعضو بمجلس إدارة الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع منذ سنة ١٩٦٨ وقد نشر عددا من البحوث بمجلتها العلمية .

وعضو مجلس إدارة الجمعية المصرية للقانون الدولى ونائب رئيس المجلس حتى سنة ١٩٧١ ، وقد نشر عددا من البحوث بمجلتها العلمية .

وعضو جمعية التشريع المقارن بباريس منذ سنة ١٩٦٧

وعضو بنقابة المحامين ، ومحام لدى محكمة النقض من سنة ١٩٥٢

وشارك فى حضور عدد من المؤتمرات والندوات الدولية ، وأخصها مؤتمرات اللجنة القانونية الاستشارية لدول آسيا وأفريقيا التى انعقدت فى القاهرة وكولومبو ورانجون وطوكيو ، حيث كان نائب رئيس وفد مصر فيها من سنة ١٩٥٨ حتى سنة ١٩٦٤ ، وقدم عددا من البحوث العلمية فى مادة القانون الدولى الخاص .

وآخر الهيئات التى اشترك فيها هو مجمعنا هذا الذى اختير فيه خبيرا منذ

سنة ١٩٦٤ حتى اختير عضواً به . والمجمع يفخر بخبرته ، ويتمنى له دوام التوفيق .

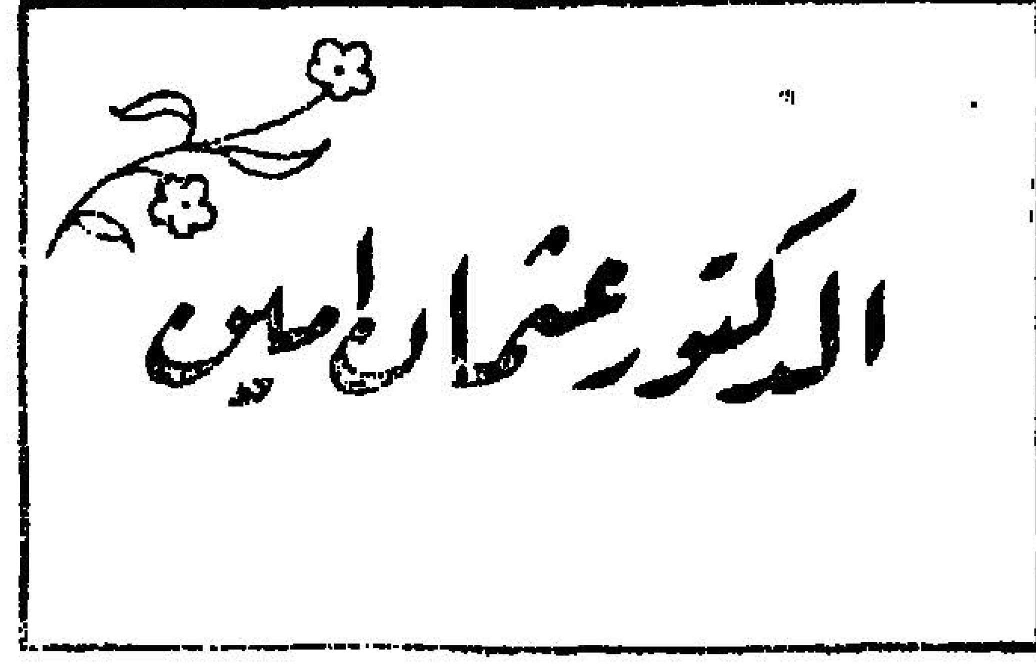
٤ – وأما التدريس فى المعاهد العربية والأجنبية فقد جاوزت شهرته العلمية فيه حدود الوطن ، فدعته أكاديمية القانون الدولى الملحقة بمحكمة العدل الدولية بلاهاى لإلقاء محاضرات بها فى القانون الدولى الخاص ، على دارسين من المعيدين والمدرسين بجامعات مختلفى دول العالم ومن رجال السلك الدبلوماسى بها .

كذلك استجاب لدعوة من جامعة الكويت للعمل بها أستاذا زائرا بكلية الحقوق والشريعة للدراسات العليا ، وكان ذلك فى يناير سنة ١٩٧٣ وفى فبراير ومارس سنة ١٩٧٤ .

٥ – وأما المؤلفات والبحوث العلمية فهى إنتاج ضخم حافل يزيد على الأربعين عداً ، ويتسم بالابتكار والتجديد .

ويشمل القانون المدنى وقانون المرافعات والقانون الدولى الخاص ، وهو الفرع من فروع القانون الذى استقر به المطاف على التخصص فيه ، فجاء أكثر بحوثه فى مختلف موضوعاته ، بالإضافة إلى مؤلفه الجامع لكل هذه الموضوعات ، وهو كتاب القانون الدولى الخاص المكون من جزأين يقعان فى نحو ألفى صفحة .

هذه صفحة ناصعة مجيدة من صفحات الجهاد العلمى القانونى ، وهو جهاد يرفع من قدر مصر ورجالها الأفذاذ فى القانون بين أمم العالم ، ويسعد مجمع اللغة العربية أن يسير الزميل الكريم فى مجال الإنتاج والابتكار والتجديد مع زملاء أعزاء ضمهم هذا المجمع من قبل إلى عضويته . فإلى رحاب مجمعنا الموقر نقدمه مرحبين مهنئين .



هو العالم الجليل والباحث المتعمق الذى ذاع إنتاجه ، فشمل كثيرا من الأقطار شرقا وغربا ، وارتوى منه المتعطشون إلى المناهل الغزيرة الصافية للبحوث الفلسفية.

وقد استطاع الدكتور عثمان أمين الذى يناهز السبعين من عمره المبارك فى خلال أربعين عاما متواصلة ، أن يتدرج من محاضر فمدرس فأستاذ فرئيس لقسم الفلسفة بجامعة القاهرة ، مسهماً فى تخريج أجيال من الفلاسفه والمفكرين الذين يتولون اليوم مراكز قيادية وعلمية مرموقة فى مصر والعالم العربى ، واستطاع بإنتاجه العلمى الغزير والمبتكر ، ما بين تأليف وترجمة وتحقيق ، أن يجتذب انتباه علماء الغرب والشرق على السواء فاعتبر مؤلفه عن « محمد عبده » واحداً من الكتب الخمسة التى ظهرت فى العالم العربى خلال نصف القرن الماضى ، فيترجم إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية والأردية والسواحلية ، كما حصل على الجائزة الأولى فى الأدب الفرنسى من جمعية مصر — فرنسا عام ١٩٥٢ كما أسهم فى تحرير أربعة فصول من دائرة المعارف الإسلامية المطبوعة باللغة الأردية فى لاهور عام ١٩٦٠ ، وأسهم فى كتاب « تاريخ الفكر فى الإسلام » المنشور بالإنجليزية فى هولندا عام ١٩٥٨ وكتاب « الشرق الأوسط المعاصر » المنشور بالإنجليزية فى نيويورك عام ١٩٦٥ :

وقد خصص كتاب « قطوف من الأدب العربى المعاصر » المنشور بالفرنسية بإشراف الأستاذ جاك بيرك بباريس عام ١٩٧٠ فصلا كاملا عن الأستاذ الدكتور عثمان أمين ، وخصص له الدليل الدولى للشخصيات البارزة فى العالم المنشور بلندن عام ١٩٥٥ والمعروف باسم :

(International Who's Who)

مكانا للتعريف بأعمال العلمية .

والدكتور عثمان أمين الذى عمل أستاذاً زائراً بالجامعات العربية فى ليبيا والسودان والجامعات الأمريكية والباكستانية وحاضر فى كل من الجامعات المصرية فى القاهرة والإسكندرية وعين شمس ، ومعهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية ، وفى جامعة الأزهر ، ومعهد الدراسات الإسلامية وغيرها ، قد وسع من دائرة تلاميذه ومريديه وهيأ لفلسفته بالانتشار والذيوع فى أوسع نطاق فى مصر والعالم العربى ، بل فى أمريكا وفرنسا وهولاندا وألمانيا وإنجلترا ، وفى إندونيسيا والهند وباكستان .

وبهذا تخرج على يديه مئات من الحاصلين على درجة الدكتوراه والماجستير وأسهم

فى فحص الإنتاج العلمى وترقية عشرات من الأساتذه السابقين والحاليين فى الفلسفة وعلم الاجتماع .

ومما يجدر التنويه به أن يكتب العلماء والمستشرقون فى أوربا وأمريكا وفى الهند وباكستان وفى سوريا والجزائر عن الأعمال العلمية التى نهض بها الدكتور عثمان أمين .

والإضافات التى حققها للمعرفة وللفكر الفلسفى بصورة تضعه فى المكانة اللائقة به فنرى على سبيل المثال المفكر الفرنسى لوى جارديه يقول فى معرض حديثه عن فيلسوفنا المصرى ما ترجمه عن الفرنسية :

« ومن أكثر المؤلفات الفلسفية اشتهارا ذلك الكتاب الذى نشره الدكتور عثمان أمين باللغة العربية فى القاهرة ١٩٤٤ عن مبادئ فلسفة زينون ، وكذلك الكتاب الآخر عن الفلسفة عند العرب الذى نشر ١٩٤٥ . وهو إلى جانب ذلك واحد من أحسن المتخصصين العرب فى الفلسفة الغربية الحديثة » .

ويذهب ريتشارد فراى الأستاذ بجامعة هارفارد إلى تخصيص جانب كبير من الكتاب الذى نشره ١٩٥٧ لمعرفة البحوث التى ألقيت فى المؤتمر الإسلامى فى هارفارد ١٩٥٥ تحت عنوان الإسلام والغرب ويقول إنه لبحث مبتكر ورائد فى موضوع التجديد فى مصر بقلم الأستاذ الدكتور عثمان أمين حسب قول ريتشارد فراى فى تعليقه .

واستطاع صوت الدكتور عثمان أمين وفكره المبتكر أن يرفع رأس العلماء المصريين فى عدد كبير من المؤتمرات والندوات ، وحلقات البحث العلمى فى الخارج .

فمنذ حضوره المؤتمر العالمى للمستشرقين المنعقد فى كمبردج بإنجلترا ١٩٥٤ حتى مؤتمر الفكر الإسلامى فى قسنطينة ووهران بالجزائر عامى ١٩٧٠ ، ١٩٧١ شارك الدكتور عثمان أمين فى اثنى عشر مؤتمراً وحلقة علمية فى كل من هارفارد ١٩٥٥ — جاكارتا ١٩٥٦ ولاهور ١٩٥٧ — فينسيا ١٩٥٨ — دمشق ١٩٦١ — تكساس ١٩٦٥ — وأخيرا قسنطينة ووهران بالجزائر ١٩٧٠ — ١٩٧١ .

وفى جاكارتا بأندونيسيا نشرت أبحاث الأستاذ الدكتور عثمان أمين وترجمت من العربية إلى اللغة الإندونيسية فى أوسع المجلات المتخصصة وفى فينيسيا نشرت أعمال المؤتمر العالمى للفلسفة ١٩٥٨ أبحاث الدكتور عثمان أمين فى مجلد خاص تقديرا له .

وفى مسقط رأس الفيلسوف ديكارت انتخب الأستاذ الدكتور عثمان أمين عضو شرف بالجمعية الديكارتية الفرنسية وخصص جناح فى مكتبة المؤلفات والبحوث العالمية عن ديكارت لإنتاج الأستاذ الدكتور عثمان أمين تحت اسم «مصر» .

وبهذا استطاع فيلسوفنا المصرى أن يتيح للغرب والشرق فرصة لتذوق الفكر المصرى وأن يدفعها إلى ترجمة إنتاجه من العربية إلى اللغات الأجنبية ، وأن يبتكر مذهباً فكريا وفلسفيا وجماليا فى كتاب «الجوانية» :

أصول عقيدة وفلسفة ثورة »، أظهر فيه أجمل ما فى الفكر الإسلامى وأنقى ما فى الروح العربية وأسمى ما فى الوعى المصرى .

وبعد ، فهذه صفحة ناصعة مشرقة عن أعمال الزميل الكريم الدكتور عثمان أمين وإنا لنرجو له المزيد من التوفيق فى جميع أعماله .

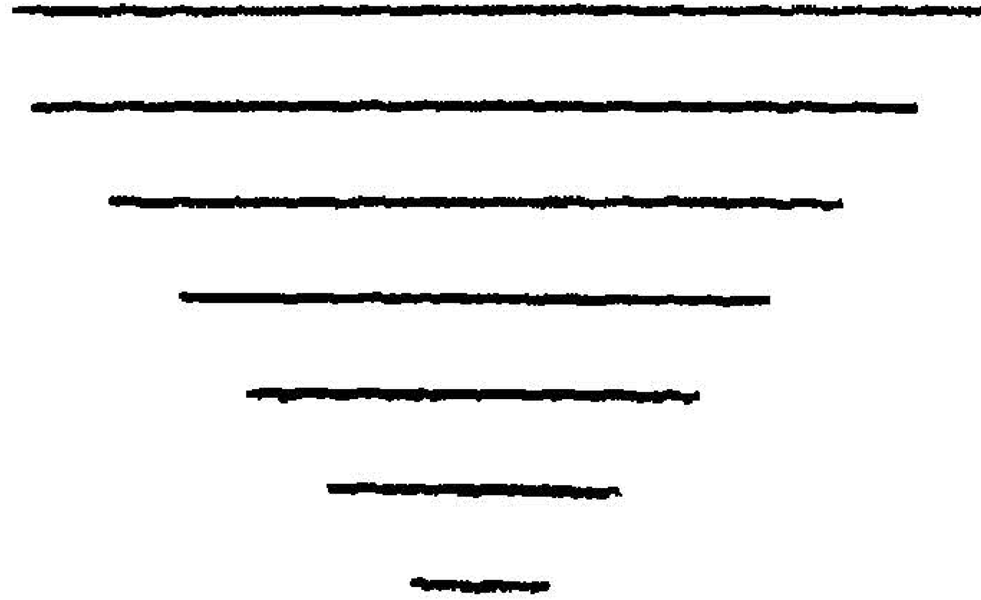
هؤلاء هم الأعضاء الأربعة الذين حظى بهم مجمع اللغة العربية وسيعملون مع باقى الأعضاء على تحقيق رسالة المجمع وهى : المحافظة على سلامة اللغة العربية ، والحرص على وفائها بمطالب العلوم والفنون ،وكذلك توحيد المصطلحات فى اللغة العربية حتى يكون ذلك عونا على وحدة العرب وازدهار حياتهم والنهوض بأمجادهم .

والله نسأل أن يرعانا ويسدد خطانا ويبارك مسعانا ويهدينا سبيل الرشاد .

سيدى الرئيس :

باسم المجمع ، وعن لسان الأستاذ عبد الحميد حسن ، أتشرف باستقبال الزملاء الأربعة: الأساتذة: على النجدى ناصف ، ومحمد شوقى أمين ، وأحمد عز الدين عبد الله ، وعثمان أمين ، وأرحب بهم بيننا فى هذا المجمع الموقر .

والسلام عليكم ورحمة الله



كلمة الأستاذ على النجدى ناصف
فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

سيادة الرئيس ، أيها السادة والسيدات :

لم يستهونى الطموح ، ولا استخفنى الطمع أن أتبوء مقعدا فى مجمع اللغة العربية ، لا زهادة فيه فهو أمنية لمتمنين كثير ، ولا غفلة عنه فهو ملء السمع والقلب ، ولكن إعظاما له ، وقصورا دونه .

فمكان بين المجمعيين أمنية عزيزة ، مطلبها شديد ، ومنالها بعيد ، لا يُلقّاها إلا كاف فيها ، وصالح لها من أصحاب المزية الفائقة ، والشهرة العاملة ، لا تزال ترفع ذكره ، وتردد اسمه فى عالم الآداب أو العلوم ، حتى تشخص إليه الأبصار ، وتشغل به الخواطر ، وتدور من حوله أحاديث .

وما أعلم أنى من المزية الفائقة ، ولا الشهرة العاملة ، ولا أنهما منى فى شيء ، لا أقولها رياء خادعا ، ولا تواضعا كاذبا ، فما بى من حاجة إليهما فى هذا المقام ، ولكنها الحقيقة لا اهتضام لها ، ولا مواربة فيها ، وبين جسامة المطلب ، وقصور الوسيلة يذهب الجهد ضياعا ، والرجاء جفاء .

ومن الحكمة أن يعرف المرء قدره ، ولا يعتدى حده ، إلا مستهترا لا يبالى قالة السوء ، أو خليا يتخذ من المحاولة ملهاة من ملاهيه ، يملأ بها فراغه ، وينفى ملاله ، وليس منها — على كا حال — مضرة تخشى ، ولا فيها محذور يتقى . ومن يدرى لعل الله يحدث من الأمر مالا يقع فى وهم ، ولا يتطاول إليه خيال . وقديما قالت العرب : مع الخواطئ سهم صائب .

وقد خار الله لى — والخير فيما اختار — ألا أكون أحد الرجلين ، بل ألا أكون منهما على شبه قريب أو بعيد .

غير أن لى فيكم أيها السادة المجمعيون صفوة من الخلصاء ، وقدامى الزملاء ، وشيوخ الأساتيذ — يحسنون بى الظن ، ويرون فى مالا أرى ، أبت عليهم أريحيتهم ، وصدق مودتهم أن يخلوا بينى وبين نفسى ، أعكف عليها ، وأفرغ لخاصة أمرها ، فتقدموا بى إليكم ، يؤذنونكم بى ، ويستفتحون لى عليكم .

وإن امرا إلا تسعده أداته ، وترفده روافده لحقيق أن يشقى به أعوانه ، وأن تشق عليهم المسعاة له ، لذلك طال على أصحابى الاستفتاح ، ولج بهم الإيذان ،

فما أمسكوا عن المحاولة، ولا أحدثوا برأيهم في رأيا .

وعهد الناس بصاحب الرأي أن يستريب برأيه ، ويراجع فيه نفسه ، إذا تعدد مخالفوه فيه ، وطال خلافهم له ، ولو كان رأيا عقباه له ، ومآله إليه ، وأكبر الظن أنه إن يفعل فسيبدو له فيه بداء ، فكيف برأي هو فيه صاحب فضل ، وصانع معروف ، وكل ما له من مضائه آخر الأمر هو المشاركة في نشوة الظفر ، وبلوغ الأرب ؛ فصنع الله لهم ، وبارك عليهم ، وتولى عني جزاءهم .

ثم يشاء الله أن يبلغ الكتاب أجله بعد لأي وطول ريث ، فتنجح المحاولة ، وتتحقق الأمنية . ولست أدري أكان ذلك عن رضا واقتناع ، أم عن ضيق بالمعاودة والتكرار ؟ فإن لله جنودا منها مواصلة الطلب في غير يأس ولا فتور ، ولكنه جند خير وسلام إن شاء الله .

وأيا ما يكن الأمر أيها السادة المجمعيون فلكم مني جزيل الشكر ، سواء منكم من رآني حقيقا بانتخابه ، ومن رأى غيري أحق به مني ، فقد كان كل فيما رآه إنما يريد إحقاق الحق ، وإقامة الوزن بالقسط على ما يبدو له أنه الرأي الرشيد .

أما أستاذي الجليل عبد الحميد حسن فله أجمل الشكر وأوفاه على كلماته الطيبة التي قدمني بها إليكم ، ووصفني فيها لكم بعديد من الأوصاف الفاضلة ، حتى خيل إلي أنه يتحدث عن رجل ليس أنا ، وهكذا يستهوي الحب الخالص صاحبه ، ويغلبه على أمره ولا يدع له منه إلا المجاملة وإحسان الظن .

والآن ، ماذا أعددت للأمر العظيم الذي حملته منذ اليوم ؟ وهل أراني قادرا على احتماله ، وإحسان الاضطلاع به ؟ سؤالان أسألها وأتولى الجواب عنهما ، وعدا لا أخلفه ، وعهدا لا أخيس به ، إن شاء الله تعالى لئلا يمضي الأمر ، بي أو أمضي أنا به على ما خيلت ، لا ضابط هناك ولا منهاج .

لقد أعددت له كل ما تورث السن العالية من تجربة ، وكل ما تذر لصاحبها من صبابة قوة ، على أن أجمع شتاتها ، وأعتصر عودها ، وأنفخ في رمادها ، ثم أصرف جملة ما يتوافى إلي منها إلى ما عسى أن أشارك به من عمل ، فان أبلغ بذلك مرضاتكم ، وأحسن مشاركتكم ، وإلا فحسبي أني أبليت عذرا ، وقد قال الأول :

وعليّ أن أسعى وليس
على إدراك النجـــــاح

هذه سبيلي التي رسمتها ، وأجمعت على التزامها ، مستهديا الله فيها ، ومستعينا به عليها ، إنه نعم الهادي ، ونعم المعين .

ويزيدني التزاما لها ، واستقامة عليها أني أخلف فيكم المغفور له الأستاذ الكبير

مصطفى القللى ، نضر الله وجهه ، وأجزل فى الآخرين ثوابه، ومن الخير للخلف إذ يكون سلفهأنبهذكرا،وأرجح ميزانا – أن يحاول ما استطاع أن يأخذ إخذه ، ويجهد أن يكون منه غير بعيد .

لقد كان رحمه الله فى شبابه فتى نجيبا ، مرجو الغد ، وكان فى كهولته علما رفيع القدر ، مرموق المنزلة ، لازمه السداد والتوفيق حياته كلهامن لدن شبابهإلى لقاءربه

فكان ثانى الناجحين فى امتحان الشهادة الثانوية ، وثانى الناجحين من زملائه خريجى مدرسة الحقوق . وكانت له وهو طالب مشاركة مذكورة فى إذكاء الثورة المصرية التى قادها سعد زغلول ، بما قال فيها من شعر ، وما دعا إليه من جهاد .

ولم يلبث بعد تخرجه أن اختير مبعوثا إلى فرنسا ، يطلب الدكتوراه فى العلوم الجنائية ، فظفر بها ، وعاد راشداً محموداً ، ليتولى التدريس فى كلية الحقوق ، وليمضى صعدا فى مراتب الدراسة الجامعية فى كليته، حتى انتخب عميدا لها ، فخرج أجيالا من رجال القانون ، انبثوا فى أقطار الحياة العاملة ، يعلون كلمة الحق ، ويحتمون حمى القانون .

ثم بدا له أن يفرغ لحياة أرحب مجالا ، فتخلى عن العمادة ، وتبدل برداء الجامعة رداء المحاماة ، فكان من أبرع المحامين ، وأشدهم عارضة ، وأفقههم للقانون ، وأخبرهم بأسراره واكتناه المصادر منه والموارد .

واختير مع ذلك لبعض المؤسسات الاقتصادية والمالية ذوات الشأن ، ولهيئات أخرى جايلة القدر ، لبعضها إشراف على التعليم الجامعى ، ولبعضها الآخر نشاط فى عالم الاقتصاد والتشريع فشارك فى كل أولئك بالرأى الحصيف ، والتجربة الصادقة والألمعية المأثورة .

ولم يصرفه العمل فى هذه الجوانب المتعددة من الحياة عن البحث والتأليف ، فأخرج قدرا كبيرا من البحوث والمؤلفات التى تعد بحق من الذخائر العلمية النفيسة التى يرجع إليها ، ويهتدى بها فى شئون الجناية والاقتصاد ، حتى إذا انتخب فى مجمع اللغة العربية أقبل على العمل فى لجنة القانون والاقتصاد ، وشارك فى أعمالها ودراساتها مشاركة تذكر له بالحمد والتقدير ، غير باخل بوقت ولا ضنين بجهد

ولم يزل – رحمه الله – مكبا على العمل باذلا فيه من ذات نفسه حتى لقى ربه راضيا مرضيا .

هذه أيها السادة والسيدات وقفة قصيرة على حياة سلفى العظيم ، وهى – كما رأيتم – حياة خصيبة مباركة ، تزخر بالعمل المثمر والجهد المشكور ، لم يتسع المقام للوفاء بحقها ، وتفصيل القول فيها ، فلم يكن إلا أن آخذ فى الحديث عنها مأخذ السرد والإجمال .

رحم الله الأستاذ القللى ، وأسبغ عليه من رضوانه كفاء ما أسدى إلى وطنه ولغته من صنيع .

كلمة الأستاذ محمد شوقى أمين
فى حفل استقباله عضواً بالمجمع

حول المجمع وما اليه

سيدى الرئيس النائب، ياشيخ المجمع وفتاه.

سيدى الرئيس المنتخب المزكى.

أيها المجمعيون الأجلاء

مستمعى الفضلاء :

لاعجب فى أن يسترهبنى الكرسى الذى انتخبت له منذ قليل ، ولا عجب فى أن أشعر بالتهيب والتخشع للمنصة التى دعيت إليها الساعة ، وإن كنت قد اختلفت إلى كراسى المجمع ومنصاته عشرات السنين ، أبلوها وتبلونى ، ولا أقول أبليها وتبلينى . لاعجب فى هذا أو ذلك ، فشتان مايومى وأمسى ، كنت بالأمس أكتب ما يقال ، أو أتلوما يكتب ، وربما هممت بما يعن لى ، أو شاركت فى نقاش ، أو عرضت ما أعددت من بحث . ولكنى إذا كتبت ما قيل أو تلوته فلصاحبه نسبته ، وليس على تبعته . وإذا أبديت ما يلوح لى من وجهة نظر فلغير مقطع الرأى فيه . أما اليوم وقد أصبحت بحمد الله عضوا ، بعد إذ أمسيت نضوا ، فإن المقام حرى أن يشعرنى بالرهبة غاية الرهبة ، وبالهيبة كل الهيبة . . وما ذلك إلا فرط تقدير منى لمهمات المجمع وتبعاته ، وإنها لمهمات دقاق ، وتبعات جسام .

أيها السادة :

يقول التاريخ : إن « ابن جنى » فقيه العربية صحب « أبا على الفارسى » إمامها أربعين سنة وقد صحبت المجمع لذا العدد من السنين وإذا كان فى المجمع علويون فارسيون فلا أنا جنى ولا ابن جنى . ولكنى أستطيع أن أجهر — ولا أغلو فى أن أجهر — بأن المجمع الموقر برز على رأس عشرة قرون من عمر العربية أو أكثر ، ليكون ثالثة المدرستين : مدرستى البصرة والكوفة ، وجامعة المذهبين مذهبى السماع والقياس . بل إن هذا المجمع البصرفى أو ، مجمع البصرفيين أو البصارفة بعد بحق أول منظمة علمية فى تاريخ العربية كله تكتسب صفة التحكيم والإفتاء ، ويتجلى عليها طابع التشريع والقضاء .

دخل المجمع فوجه الأول ، وعلى أكتاف أعضائه العشرين هموم اللغة العصرية وأعباؤها ومشكلاتها ، فمنهم من كان يستشعرها ،

ومنهم من كان يحتقب الحلول لها ، ولذلك ولد المجمع عملاقا يعرف ماله وماعليه ، فرفع راية الاجتهاد ، وأعلى سلطان الرأى ، لا يقف عند المقولات ، ولا يجمد إزاء القبليات . ثم تعاقبت على المجمع أعضاؤه زرافات وفرادى ، وكلهم شركاء فى إدراك قضايا اللغة وأدوائها ، مسهمون فيما يقترح لها من حلول وعلاجات .

هنا أذكر من الفرسان الراحلين الأعزاء : السكندرى ووالى ، الجارم والمغربى ، الكرملى ونلينو ، عبد العزيز فهمى ولطفى السيد ، منصور فهمى والرازقيين ، الخولى والنجار ، طه حسين ومحمود تيمور :

أين الذين أذاقونى مودتهم
حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا

أذكر هؤلاء ، ولا يتسع المجال لذكر الجميع ، وهم زيد على مائة ، وإن كنت لا أنسى منهم أحدا ، فأصواتهم تملأ مسمعى ، وذكراهم تعمر وجدانى :

وقال تذكر هذا بعد فرقتنا
فقلت ما كنت أنساه لأذكره

لم يبدأ المجمعيون الأصلاء من فراغ ، بل سبقت مجمعيتهم منذ بواكير النهضة العربية بحوث ودراسات ، وتقدمتهم هتافات ونداءات ، ولكن الجهود التى كانت تبذل إنما كانت أشبه شىء بالبروق المتناثرة ، فكان المجمع هو البلورة التى جمعت الشتات ، وانتظمت الإشعاعات ، وجعلت منها طاقة فعالة تبعث الحياة فى الموات .

ومن سنة الحياة الاجتماعية ، إذا أريد لمقومات الإصلاح نصيب من النجاح ، أن يكون الإرهاص قبل الإيجاب ، والنزوع قبل التشريع :

إنما تنجع المقالة فى المرء
إذا صادفت هوى فى الفؤاد

فلا غرو أن يرحب أهل العربية بما شرع فيه المجمع من تطويع اللغة لحاجات الحياة ، وتطويرها للوفاء بمطالب الحضارة ، إذ صادف ذلك منهم نزوعا عميقا حقا إلى هذا التطويع الحتمى ، والتطوير الرشيد .

آمن المجمعيون الأصلاء بأن اللغة لأهلها ملك مطلق ، فهى أداة تعبر عن أغراضهم العلمية والأدبيـــة والمعيشية ، وعليهم أن يحتكموا إلى أذواق الفاقهين لأوضاعها ، والمتمرسين بها ، لمواجهة أهداف التعبير الحضارى فى إبانة وإفصاح .

على أن المجمع كان حكيما إزاء ما استقرت عليه قواعد العربية التى أرساها النحاة واللغويون ، فلم يتمرد على أصل ينعقد ، وقياس يعتمد ، وحكم يتردد . ولكنه رأى أن الذين قعدوا القواعد وضبطوا الأقيسة ، إنما أرادوا تسجيل المأثور وتحليله ، واستخلاص الواقع وتعليله ، فمن الصيغ ما جاء على مثاله الكثير أو القليل ، ومنها ما لم يسمع منه إلا

النادر أو الشاذ . وما أحسب النحاة واللغويين قصدوا إعقام اللغة والحجر عليها ، لايكثر قليلها ، ولا ينمو النادر أو الشاذ فيها ، فما ذلك من شأن لغوى ولا نحوى . ذلك إلى أهل اللغة يتصرفون فى صيغها وأوضاعها على هدى أذواق الصفوة من علمائها وأدبائها وكتابها ، يبيحون أو يترخصون ، بحسب مقتضيات التعبير عن أسباب الحياة التى يعيشون ، ولو تصورنا أن العربية مضت على صفائها وخلوصها بين أهليها الفصحاء . تساير الزمن فى تقدمه وتطور حضاراته ، لجاز لنا أن نتصور ما عسى أن يحدث من تطور فى القواعد والأحكام ، ولساغ لنا أن نتمثل اللغة وقد جل فيها ماقل ، وغزر ما ندر ، وبذ ما شذ. ولقد سعدنا فى حاضرنا بعصر للعربية مزدهر ، تألق فيه أدباء أبيناء ، وكتاب بلغاء ، وتوفر على درس العربية أساتذة جهابذة ، وبصارفة صيارفة ، اختمرت فيهم خبرة ودربة ، ورهف منهم حس وذوق . فمن حق هؤلاء الصفوة أن يعالجوا قضايا التعبير بما يستخلصون من دراساتهم ، وما تطمئن به أذواقهم ، وما تنادى به مقاصد الحياة فى عصرهم . ومن حقهم أن يبحثوا بين آراء الأئمة البصريين أو الكوفيين عما يطاوع حاجة التيسير ، فإن لم يجدوا فى هذه الآراء البصرية أو الكوفية ما يسد الحاجة ، رجعوا إلى نصوص اللغة نفسها ، يستعينونها ، قائلين للبصرة والكوفة معا :

أيا جبلى نعمان بالله خليا
نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

وفى معتقدى أن فى الأقضية النحوية والصرفية المعتمدة ما يمكن تعديله باستئناف البحث فى السنّة اللغوية الخالصة ، بمنأى عن المذاهب النحوية المتعددة ، فنعمد إلى نصوص الأدب نتقراها ، وإلى بطون المعجمات نتقصاها .

لقد استطاع المجمع فى تؤدة وأناة أن ينتهى إلى عشرات القرارات الميسرة لمقاييس اللغة وأوضاعها ، وإذا كان صنيعه فيما يتعلق بالمصطلحات عرضة للتغيير والتبديل ، بين لفظ يبيد، ولفظ يزيد، فإن قراراته الميسرة للمقاييس والأوضاع مما ينتظر له اطراد النمو والاتساع ، دون رجوع إلى وراء . فلا مجال بعد اليوم لقائل أن يلزم برد الجمع إلى مفرده عند النسب ، ليقال حركة عاملية ، بدل عمالية ، أو يقال : العيد الخمسى ، بدل العيد الخمسينى ، ولا أن يلزم بأن نقول فى النسب إلى غريزة : غرزى ، بدل غريزى ، ولا أن يحكم بالتخطئة على من يقول : سندات فى جمع سند، وبويضة فى تصغير بيضة، أوحمراوات فى جمع حمراء، أو مصر فخورة بأبطالها، وكان العبور مجداً من أمجادها ، ملزما بأن يقال : أسناد ، وبييضة ، وحمر ، وفخور ، ومجود، خضوعا لما يريده القاعديون المتزمتون .

ولئن طاب لى أن أشيد بجهود المجمع فى تيسير قواعد العربية ، إنى لحريص على أن أصارح بما أشعر به من أسف ، مبعثه

أن اللغة بأقيستها التقليدية مازالت هى مادة التعليم فى البيئات المدرسية ، وهى مادة البحث فى البيئات الجامعية على السواء . فى كتب التعليم لهذا العام ما برح جمع التكسير سماعيا فى أكثر صوره ، وكذلك صيغ المبالغة ، واسم الآلة لا يصاغ إلا من الثلاثى المتعـــدى ، والنسب بالألف والنون من الشذوذ ، واسم التفضيل له شروطه الثقال ، وتعريف العدد المضاف يمتنع معه أن يقال مثلا : الألف كتاب. وليس ما أسلفت إلا أمثلة دون حصر . وأما الدراسات الجامعية فلا علم لى بأن مناهج المجمع التجديدية فى قضايا اللغة وأوضاعها محل نظر خاص . وفى الجامعات من يتخرجون من بعد ليعلموا العربية فى المدارس ، فإذا لم يكن لهم عهد بما صنع المجمع فستبقى الأوضاع والأحكام التقليدية ضربة لازب على المعلمين والمتعلمين إلى ما شاء الله . ومن حق المجمع أن يكون له فى كليات الدراسات العربية فى الجامعات كرسى ، فإن للأعلام الجامعيين فى المجمع كراسى ، ومن الغبن ألا يكون لجهودهم المجمعية صدى فى جامعاتهم المتعددة . ولقد أذكر أن الدولة العثمانية فى القرن الماضى عمدت إلى تقنين الشريعة ، وسمت ما عملته « المجلة » ، فكانت المجلة تدرس فى عدد من البلاد العربية بمعاهد الحقوق ، والمجمع اليوم يقنن اللغة تقنينا جديدا ، فلزام أن تدرس فى كليات الدراسات العربية جميعا قراراته ونتائج أعماله التى تناظر تلك المجلة على عهد خلافة آل عثمان .

أيها السادة :

ما أكثر الذين يخطبون ود العربية بحثا ودرسا ، وما أقل الذين تواتيهم العربية بمكنونها ذوقا وحسا . ولقد كان من حسنات « الأزهر » فى المجمع رجل من أولئكم الأقلين الذين حلت العربية من قلوبهم فى الشغاف ، فباحت لهم بأسرارها ، وألقت إليهم قيادها ، ونفخت فيهم من روحها ، ذلكم هو الشيخ « محيي الدين » ، محيي العلم واللغة والأدب. أول ما بدا من أمر الشيخ ميله الأدبى . فقد جرى قلمه فى سن الصبا والصبوة بكتاب سماه « ثورة العواطف » وتلاه كتابه فى شرح مقامات البديع . ثم استغرقته الدراسات المتنوعة فى علوم العربية بعامة ، وفى النحو بخاصة ولكنه مع ذلك عنى بإخراج العدد الجم من الذخائر الأدبية مضبوطة محققة ، فهو إذن أديب نحا ، أو هو نحوى أدُب ، والأزهرى لا مخلص له من جاذبية الأدب وسحر البيان ، فهو يدامج مؤلفات القدامى من فحول البلاغة. ونبغاء الكلام ، وهو فى درسه للنحو يقف على الشاهد بعد الشاهد من القريض ، ووراء البيت المستشهد به قصيدته ، ووراء القصيدة قصة الشاعر وحياته ، فإذا صادف ذلك عند الدارس تهيؤ نفس ، وتوقد قريحة ، ورقة عاطفة ، فليس ثمة إلا افتتانه بالأدب وولعه بالمنظوم والمنثور ، وما هى إلا أن

ينبض فى يده القلم ، وتختلج شفتاه من الشعر بالنغم .

جمع الشيخ «محيي الدين» بين الحسنيين : الدراية والرواية ، وأوتى الموهبتين : التحصيل والاستخلاص ، ومازج بين نزعتين : الاتباع والإبداع . وكان إبداعه ثمرة اتباعه ، فهو وليد موازنة ومقابلة ، ومظهر اجتهاد وترجيح . وكان إذا عرض لمسألة قررها فى شمول وعمق، وسعة أفق ، يلم شواردها ، ويتكلم عليها من مختلف جهاتها ، مستعينا بتنوع معارفه فى فقه أو أصول ، وفى بلاغة أو أدب ، ملائما بين تحقيق من سلف وتعليق من خلف ، واضح الشخصية ، مستقلا بالرأى ، نزيها فيما يعرض من قول معارض أو مناقض . ولقد أفاده اطلاعه على كنوز الأدب رحابة النظر فيما قرره علماء العربية من ضوابط وشرائط ، ومن ثم كان فى إفتائه النحوى واللغوى صاحب مرونة وطواعية وليان . ويحسبى أن أشير إلى ما جمع من شواهد على جواز تثنية الفعل وجمعه فى بحث مجمعى .

لم يكن الشيخ من « أقماع القول » على حد تعبير الحديث النبوى ، وهم الذين تشبه آذانهم الأقماع تفرغ فيها الأقاويل إفراغ المائعات ، فهم يتلقون المقولات بآذانهم ، ثم يلفظونها بألسنتهم ، لا يعملون فيها فكرا ولا نظرا ، إذا قرأت له بحثا فى مسألة راعك منه قلم ناشط ، يحرر فى شجاعة علم ، وحرية ذهن ، لايكاد يستند إلى نقل إلا عند الاستئناس بمن وافق ، أو النص على من خالف . فإن رابك من أمره ريب ، وراجعت المصادر تحاكمه إليها، ألفيت الشيخ قد جمع فأوعى، استوعب الأصول والفروع : ينفى منها ما ينفى ، ويثبت ما يثبت : فى إنعام نظر ، وتوهج ذكاء ، وسلامة حكم .

وذانكم مثلان : كتابه فى تصريف الأفعال، وبحثه المجمعى فى أفعل التفضيل .

ولست آسى على شيء قدر ماآسى على أن الشيخ قد شغله التحقيق عن الإنشاء: فإنه فيما طبع عله من خلال البر بطلابه ، وفيما آمن به من حقهم عليه ، آثر فى الأغلب أن يصرف همته إلى كتب الأقدمين المفروضة على الطلاب ، نقرب مناهلها ، ويحل طلاسمها .

ولو أنه تجرد ليكتب النحو بقلمه إنشاء، لأمتعنا بعرض جامع مانع ، لايغوص منه الدارس فى دوامة من فنقلات ومحاورات، بين محترزات ومعترضات ، . .ولأظفرنا ذلك منه بالنحو الصافى أو الشافى أو الكافى ، كما أظفرنا الأستاذ «عباس حسن» بنحوه الوافى .

أيها السادة :

عرفت شيخى « محيي الدين » سنة ١٩٢٩ أستاذا لى ، وأنا فى مقتبل تعليمى الثانوى منذ خمس وأربعين سنة . دخل حجرة الدرس ، وعمره يومئذ جديد ، وعليه أغصان الشباب

ثميد ، فإذا هو يتضوأ باسم المحيا متخطرا بين مقاعد الطلاب ، وإذا هو يلقى درس النحو لاينظر فى كتاب ، ولا يتلجلج فى جواب . وكنت قرأت له كتابيه « ثورة العواطف » « وشرح المقامات » ، فقلت لصاحبى : ظننت الشيخ أديبا أعمق منه نحويا ، فإذا هو هو ، أو فإذا هو إياه . فقال لى صاحبى : مارأيت نحويا أوضح فى عباراته النحو منه فى عبارة الشيخ . على أن الدهر مالبث أن ضرب بينى وبين « الأزهر » ، فلم ألق شيخى إلا فى المجمع يوم دخله عضوا منذ سنوات قلال ، وكأننا لم نفترق يوما ، فبادرت إليه أنشده بيت « شوقى » :

قد يهون العمر إلا ساعة
وتهون الأرض إلا موضعا

وقلت له : قد ينسى المرء أساتذته إلا أستاذا ، وكنته ! فأجابنى على سبيل المجاملة والمقابلة : وقد ينسى الأستاذ تلاميذه إلا تلميذا ، وأنته ! . . وظللنا نتلاقى فى المجمع ، ونتطارح الرأى والبحث فى أعمال لجنة الأصول ولجنة الألفاظ والأساليب ، أتنسم منه حياطة أستاذ ، ورعاية والد ، ومودة صديق ، وهو على التعهد به : عطر النفس ، شفاف الروح ، لاينفك عن ظرف ومعسول دعابة ، يأنس بى منازعا أنسه بى متابعا ، وماعتم أن عجل به قضاء الله ، فعزت فجيعتى فيه على العزاء ، ولم يكن يدور لى فى خلد ماهيأه القدر من بعد ، إذ حللت منه فى المجمع المحل ، وما يكون لمثلى أن يسد مسده أو يكاد ، فهيهات أن أبلغ شأوه أو أقارب ، رضى الله عنه ، بما أفاد بعلمه ، وبما زكى عن علمه بخلقه :

إنا إلى الله راجعون لقد
أصبح حزنى عليه ألوانا
حزن اشتياق وحزن مرزئة
إذا انقضى عاد كالذى كانا

ويا سحائب رحمة الله :

أم الضريح الذى أسمى
ثم استهلى على الضريح

أيها السادة :

إن الوقت المقسوم لكلمتى يتطاير منى كما يتطاير العطر من قنينة مفتوحة . وإن كانت فيه بقية ، فنى النفس بقايا . ولا أملك إلا أن أختطف القول اختطافا فى شئون وشجون :

أولا — بودى أن أقول للمجمع إنك وقفت ببابلك موضوع الأعلام ، فلم تجز بعد أن يقال مثلا : محمد على حسن ، موقوفة كلماته ، غير ملحق بها كلمة « ابن » . فحتى متى تظل أسماؤنا لاتكتسب وصف الشرعية اللغوية الفصحى ، وحتى متى نظل بأسمائنا مواليد غير شرعيين فى النسب اللغوى الصريح . وفى اللغة منادح للإجازة ، إما على أن الوقف جائز مطلقا فى لغة تميم ، وإما على أن الوصل هنا بنية الوقف ، أو على إعطائه حكمه ، أو على إجرائه مجراه ، بحسب اختلاف تعبير النحاة . والحق أن الأسماء الآن

ليس من غرضها التنسيب الذى يتوضح بذكر كلمة « ابن » وإنما يسمى المرء باسمه المؤلف من كلمتين أو ثلاث أو أكثر ، ولو نقص الاسم كلمة لما تعرف . وعندى — إن كان لى « عند » — أن الذين ينتظرون الرجوع إلى نسق الأعلام على الوضع المأثور سيبلغون مناهم إذا شاب الغراب ، أو إذا القارظ العنزى آب .

ثانيا — بودى أن أقول للمجمع إنك وقفت ببابك الألف اللينة ، لاتبت فيها برأى يرفع الحرج ، وهو كتابتها ألفا بإطلاق . ولو فعلت لسايرت بذلك رأيا لأئمة فى العربية أثبات ثقات . وأما الاعتراض على ذلك بأن كتابتها ألفا أو ياء ملحوظ فيه مراعاة الأصل النحوى . فمردود عليه بأن الخط لايجيب عن أسئلة تتعلق بأبنية لكلام .

وثالثا — بودى أن أقول للمجمع إنك وقفت ببابك أختنا اللطيفة « حواء » ، يطرق لها الباب طارق بعد طارق ، ومازلت عنها عازبا لم تأذن لها بعد ، وأمام عينى طيف الشيخ « السكندرى » فى الدورة الأولى للمجمع ، قبل أربعين عاما ، يطالب بالنظر فى إشراك النساء فى أعمال المجمع فى كراسى الأعضاء المراسلين ، إذ كانت كراسى الأعضاء العاملين مشغولة جميعا . وقد اشترك فى مناقشة هذه المطالبة عدد من أعضاء المجمع يومئذ .

ولا نزاع فى أن المرأة قد أسهمت فى وجوه النشاط العلمى والأدبى بقدر ملحوظ ، ولاتعيا بأن يكون لها فى النشاط المجمعى أثر محمود .

ورابعا — بودى أن أقول للمجمع إن المعجمات العربية حتى اليوم مقصورة على مأثور اللغة ، يضاف إليه مايتخطف من المحدث ، وأما لغة الحضارة العربية والإسلامية على مدى عشرة قرون أو نحوها فلا وجود لأكثرها فى معجم مستقل ، أو فى المعجمات على تعددها ، ماقدم منها وما حدث . وهى مهمة خطيرة جديرة أن يوليها اتحاد المجامع اللغوية وجامعة الدول العربية مايجب لها من موازرة لإنجازها . وليت الذين يتزاحمون لإخراج معجمات متشابهة متناظرة يدلون بدلوهم فى هذا العمل الإنشائى الضرورى . فلا جديد فى تأليف تلك المعجمات المتنافسة . إلا ظاهرة العدول عن الترتيب الاشتقاقى إلى الترتيب اللفظى . وكنت مع المعاصرين أحسب أن ذلك لم يخطر ببال الأقدمين ، ولعلى الآن أسبق من ينبه إلى أن هذا الترتيب اللفظى حاوله مؤلف مصرى فى القرن الثامن الهجرى ، قبل ستمائة سنة ، ذلك هو المقرى « الفيومى » ، فوضع معجما قسم فيه كل حرف باعتبار اللفظ إلى أسماء وإلى أفعال ، ثم رأى أن ذلك يجر إلى ملل ، ينطوى على خلل ، فلم يرض به ، وعدل عنه .

وخامساً — بودى أن أقول للمجمع إن التراث اللغوى الذى تتجه همم المحققين إلى نشره ، فيه حظر لما هو مباح ، وتقييد لما هو مطلق ، وفيه أحكام مردودة مستدرك عليها. فإذا وقف التحقيق عند تحرير النص كان هذا التراث مثار بلبلة واضطراب فى التخطئة والتصويب ، وكان إثمه أكبر من نفعه . وإذا توخى المحقق أن يستوثق ، فيعقب على النص بما يضع الأمر فى نصابه ، خرج من نطاق النشر إلى نطاق البحث والتأليف ، وألزم نفسه كلفة ليس النهوض بها بالأمر اليسير ، وأوغل فى طريق لا يؤمن فيه العثار. وما أوجب أن يخضع نشر هذا التراث اللغوى لمقاييس ترسم خطين متلازمين : تحقيق الإفادة به ، وتلافى الضرر منه .

وسادسا — بودى أن أقول للمجمع إن الحروف العربية متشاكلة بصورها ونقاطها ، وليس يغنى تيسير حروف الطباعة عن تيسير الكتابة . والواقع أن تشابه الحروف وتداخل النقاط كان محل الشكوى منذ العصور الأوائل. وفيما يقال إن الفيلسوف « ابن رشد » كتب يقول : « رأيت الزرافة عند ملك البرين » فحدث التصحيف فى كلمة « البرين » فصارت « البربر » ، وكان هذا التصحيف سببا فى محاكمة « ابن رشد » ونكبته .

وأذكر أنى منذ قريب كنت أراجع جملة من كتب « أسماء الصحابة » ، فإذا هى متنازعة — أيما تنازع — فى الكثير منهم ، حتى بلغت المنازعات فى اسم أحدهم ثمانية عشر قولا ، وذلك بسبب التباس الحروف واختلاط النقاط . وستظل الكتابة العربية مستهدفة للتصحيف والتحريف ما بقيت مشكلة النقط وتشابه الحروف دون علاج.

أيها السادة :

صح تقديرى ، وأنا أكتب هذه الكلمة ، أن أستاذنا « عبد الحميد حسن » سيستقبلنى باسم المجمع بما هو أهله ، لا بما أنا أهل له . وقد عهدته مجاملا محاسنا بحق وصدق وإخلاص. ولاشك فى أنه فَرِحٌ بى فرح الوالد بأحدث أولاده ، حَفِىٌّ بى حفاوة الأستاذ بأصغر تلاميذه ، وأنه ناسج لى بحسن ظنه وبراعة فنه ثوبا موشيًّا وإن كان فضفاضا أتعثر فيه وأكاد أتعثر . ثم هو ساع بذمة المجمع ، حمل عنه أمانة الدفاع عن اختياره إياى ، ولا يعيا أستاذنا بالاضطلاع بالأمانة ، فى حذق وكياسة. أما السادة الأعضاء الأكارم الذين منحونى أصواتهم ، وعبروا بى — وهم فى أوان العبور — إلى مكانتهم ، فقد أرادوا هذه المرة أن يقيموا معيارا للاختيار ، غير معايير الكفاية والاقتدار ، ذلك هو معيار البريمن قضى فى مجمعهم زهرة عمره ، وفسحة دهره ، فلم يجدوا بأسا فى أن يفسحوا فيما شغر من كراسى المجمع لمن كان بهم ، وكان لهم ، ليكون منهم بينهم . وإنى متجه إليهم من صميم قلبى بتحية عرفان وشكران، جزاهم الله جزاء الإحسان .

كلمة الأستاذ الدكتور أحمد عز الدين عبد الله
فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

السيد الرئيس

السادة الأعضاء

إنه ليشرفنى أن أقف متحدثا أمام هيئتكم الموقرة ، التى تستمد قدرها من الهدف الجلال الذى تبتغياه ، ومن الجسم أعضائها القمم من أهل العلم والفكر الحر ، يشرف بكل منهم ماضيــه ، ويزهو به حاضره ويترقبه مستقبله .

وإنه ليزيدنى شرفا أن تخطبنى هذه الهيئة الكريمة لأكون عضواً بين أعضائها .

ولقد حق على أن أشكر لها هذا الصنيع وإذا كانت كلمة الشكر مجرد تعبير فى صورة سلبية عن العرفان بمـا قدمتموه إلى ، فإن الصورة الإيجابية منه تقتضى العمل الدؤوب والمعاونة الصادقة فى نشاط المجمع مما أعاهدكم عليه فى عزم وإصرار .

كذلك فإن كلمة الشكر تضيق عن إيفاء الأستاذ عبد الحميد حسن حقه لقاء ما تلقانى به فى كلمته ، التى القاها مشكورا الصديق الدكتور مهدى علام ، عارضا ما سلف من حياتى العاملة والعلمية ، ومسبغا على ما شاءه من عبارات التقدير .

وإذا سمح لى أن أعقب على هذه الكلمة لقلت إنى لا أزال طالب معرفة . وإنى لواجد فى مصاحبة هذه الصفوة من العلماء طريقا ، للمنهل العذب فى مختلف فروع المعرفة .

سادتى :

لقد تفضل المجمع باختيارى عضواً به فى المكان الذى خلا بوفاة العالم اللغوى الجليل المرحوم الأستاذ على السيد الجندى .

وإذا كان قرار المجمع قد أحلنى مكانه فإن خلافته فى مكانته أمر يشق على من يخلفه .

ولست أقف اليوم معرفا بسلفى العظيم فقد اتخذ مقامه فى موضع الإشعاع من ميادين العلم والمعرفة . لقد عرفتموه معرفة راسية الأسس قبل أن دعوتموه إلى عضوية المجمع واستعرضتم حياته العاملة والعلمية حينما استقبلتموه ؛ وزادت معرفتكم به وثوقا حين زاملتموه عضوا مفيداً مخلصاً ، أسهم فى عملكم بقدر ما سمحت به البقية من عمره

وإذا كنا الآن فى موقف الذكرى من فقيدنا العزيز ، فإننى أجمل تاريخه فيما يسمح به الوقت من كلمات :

حياة مليئة بالعمل العلمى الجاد المجدد فى مراحلها كافة : فى مرحلة التعليم العام ، وفى مرحلة الأستاذية بكلية دار العلوم . أبكر بالنتاج البكر ، واستمر طوال حياته تتوجا فى علوم البلاغة ، حيث تجلت مواهبه فى أقوى مظاهرها وأجمل صورها .

وبجانب ذلك كان فقيدنا أديبا شاعراً جاوزت قصائد منظوماته الألف ، وأربت عيون أبياتها على عشرة آلاف .

أذكر مما أخرجه من كتب فى البلاغة والأدب والنقد :

(١) فن الاسجاع .

(٢) فن الجناس .

(٣) فن التشبيه .

(٤) البلاغة الغنية .

(٥) سياسة النساء .

(٦) الشعراء وإنشاد الشعر .

(٧) خمسة أيام فى دمشق .

(٨) الشذا المؤنس فى الورد والنرجس

(٩) نفح الأزهار فى مولد المختار .

(١٠) الشاعر المؤمن الصوفى .

(١١) قرة العين ، فى رمضان والعيدين.

(١٢) سيف الله خالد .

(١٣) الجن بين الحقائق والأساطير .

ومن مؤلفاته بالاشتراك :

(١) أطوار الثقافة والفكر .

(٢) سجع الحمام فى حكم الإمام .

* وأذكر من مؤلفاته الشعرية :

(١) ديوان أغاريد السحر . وقد نال الجائزة الأولى من المجمع سنة ١٩٤٨ ، وأبياته نحو ٢٦٠٠ بيت .

(٢) الحان الأصيل ، فى نحو ٤٥٠٠ بيت.

(٣) ترانيم الليل ، فى نحو ٣٥٠٠ بيت.

وهذه الذكرى العاطرة للأستاذ على الجندى العالم الأديب الشاعر ، تصحبها ذكراه الطيبة فى عمادة كلية دار العلوم : فقد اتسم فيها باليقظة والحكمة وحسن التقدير وسلامة التصرف ، فاتفرت محبته وجرى الثناء على عهده .

وكان لفقيدنا ، خارج الجامعة ، نشاط كبير فى المناصب التى اجتذبته إليها : حيث كان عضوا بلجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وعضوا

بلجنة التعريف بالإسلام ومقرراً للجنة القرآن والسنة بالمجلس لأعلى للشئون الإسلامية.

إن رجلا هذه حصيلة حياته لجدير بأن يفخر به جيله ، وأن يكون عمله نوراً وهديا للأجيال اللاحقه .

رحم الله الفقيد واسكنه فسيح جناته .

سادتى :

إن مجمعكم الموقر لهو حصن اللغة العربية وهو حصن مفتوح النوافذ والكوى ، لتدخل منها تيارات الفكر والحضارة ، فى تطورها على الزمان . ولذلك نراه ، وهو الحفيظ على تراث قيم تركه الأسلاف ، يأخذ بيد اللغة العربية حتى تطاوع مقتضيات الجديد فى ميادين العلوم والفنون، دون تفريط فى أصولها التى لاتحمل التغيير أو التبديل .

وإن ما أثمره المجمع ، خلال ما مضى من السنوات على ميلاده ، مما تزخر به مطبوعاته المنشورة ، لخير دليل على العمل الجاد المتزن ، الذى يوفق بين ما ينبغى الحسوء فى الإبقاء عليه ، وبين ما يمكن تجديده أو استحداثه سدا لحاجات تلك الميادين .

وليس ثمة من شك فى أن ما أقره المجمع من مصطلحات فى المتنوع من العلوم لكفيل بأن ييسر على الباحث كتابة المادة العلمية فى أسلوب لغوى علمى . ومن المعروف أن الأسلوب اللغوى العلمى فى أية لغة يتسم بالسلامة لغويا ، وبالبساطة والوضوح والدقة تعبيراً

ويجدر فى هذا المقام توكيد العرفان بجهود الأوائل من المشتغلين بعدد من العلوم منذ أواخر القرن الماضى ، فقد وطأوا السبيل لمن جاء بعدهم بما وضعوه من مصطلحات علمية عربية ، وما كتبوه من مؤلفات وبحوث بأسلوب لغوى علمى يتصف بانتقاء اللفظ وجمال العبارة فوق ما ذكرت من الصفات .

وأرجو أن تسمحوا لى بالتنوية بأمور ثلاثة تبدو واضحه فى أيامنا هذه :

أولها : موجة العامية التى تجتاح بعض الميادين وتجد من المروجين لها من يقتضى حسن الظن بهم القول بأنهم لا يدركون مغبة العامية فى استرخاء وثاق من أقوى روابط الأمة العربية .

وثانيها : ضعف غالبية الجيل المعاصر من الشباب فى اللغة العربية وإن الاطلاع على أوراق اجابة الامتحانات فى التعليم العام وفى الدراسه الجامعية ، ليكشف عن أن هذه اللغة قد أصبحت بين أيديهم ربكا

وثالثها : فقدان الأسلوب اللغوى العلمى بعض ما نوهنا به من خصائص ، فى بعض ما ينشر من الكتب العلمية وإن هذا الأمر ليجرى على نقيض ما توجبه سنة التقدم فقد نشر فى النصف الأول من القرن الذى نعيش فيه الكثير من المؤلفات العلمية التى تتميز بأسلوب لغوى رفيع ؛ كما ظهر فيه من مارس الأدب ونظم الشعر من غير أهل اللغة ؛ فجاء بين الأدباء والشعراء أطباء ومهندسون ورجال قانون وهذه ظاهرة أخذت تخبو ، وكان من الواجب أن تزيد توهجا .

هذه أمور خطيرة ، لا يكفى علاجا لها ما يجرى داخل حصن اللغة العربية من بحوث وأعمال تنشر ؛ وإنما يجب أن يكون له فيها قول يملأ الأسماع ، وينبسط على مختلف الميادين ، فرجاله يتمتعون بصواب الرأى والجرأة فيه ، سعيا إلى المصلحة العامة .

وفق الله المجمع فى أداء رسالته الرفيعة النافعة للوطن والأمة العربية كافة

كلمة الأستاذ الدكتور عثمان أمين فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

أيها السادة الأجلاء .

١ - بابتهاج غامر ، أقف الساعة بينكم ، لأعبر عن عميق شكرى لكم ، لما شرفتمونى به من حسن الظن بى . وإنى لأعتز أيما اعتزاز بهذه الثقة الغالية ، وأرى فيها علامةً على رضاكم عنى رضىً أعاهدكم على أن أعمل حتى أكون أهلاً له ، وأسألُ اللهَ أن يعيننى على الوفاء به .
وهذا العطف منكم هو الذى يَشُدّ الآن من أَزْرى فى أداء تلك المهمة - ويالها من مهمةٍ شاقة علىَّ - أن أتحدث فى دقائق معدودات ، عن مناقب شاعرٍ كان من القِمم الشامخة عندنا ، وأن أجد لذلك كلماتٍ لاتقصرُ عن بلوغ شأْوِه ، ولاتهبط عن مكانة هذا المجمع المرموق ، سواءٌ فى حاضره الزاهر أو فى ماضيهِ المجيد .

٢ - لقد تفضلتم ، أيها السادة ، فأَضْفَيْتم علىَّ شرفين ، حين اخترتمونى واحداً منكم ، ثم حين جعلتمونى خليفةً لعبقرى مِن عباقرتنا ، رأى العارفون فى رحيله عنا حداداً للغة الشاعرة ، لافى مصر وحدها ، بل حيثما كان للعربية مكان ، ويشهد الله أنى كنت أوثر أن لا أخطو اليوم إلى مجلسكم هذا ، وأن يواصل عزيزُ مصر ، بل عزيز العروبة ، عملَه الجليل بيننا ، يُبَلِّغ رسالةَ الشعر الأصيل إلى جيلنا ، وإلى الأجيال الصاعدة بَعدنا . ولكن الأمر الأليم قد وقع ، ولارادَّ لقضاء الله . وها أنذا أجدنى وجهاً لوجهٍ أمامَ تراثٍ فكرى لغوىٍ زاخر ، تراثِ أصالةٍ فنيةٍ بيانية ، أسهمت فى فنون التعبير الجميلِ الرفيعِ بأوفى نصيب .

٣ - أيها السادة الأجلاء : مرةً أُخرى أريد أن أشكر لكم قبولكم إياىَ فى صحبتكم : فقد كنتُ أَحسَب نفسِى حتى اليوم « عابرَ سبيل » ؛ كما يقول الكندى

«فيلسوف العرب » . فلما أذِنتم لى أخيرًا بأن أندرج فى سلك الخالدين ، بدا لى أن الأَخلق بى ، وأنا من العاكفين على الفلسفة ، أن أبحث عن بواعث هذا الاختيار ، حتى أهتدىَ إلى ما لعله كان يخامركم ، حين منحتمونى أصواتكم . فيقينى أنه لم يكن من قبيل المصادفة أنكم جعلتم للشاعر الرائع ، الذى هَمسَ إلى الضمائرِ بأُنّاتِه » ، وهزّ المشاعر بمسرحياته ، خليفةً لايكاد يُسْمع له صوتٌ خارجَ مدرجاتِ الجامعة أو وراءَ تخصصات الفلسفة . ولست أدعى أنى وقفت على جلية الأَمر من مقاصدكم ، ولكنى سعيت إلى أن « أقرأَ ما بين السطور » ، أو أن أُجاوز الظاهر البادى إلى الماورد وراءالمستور ، وفقاً لمنهج فى البحثِ ، فَتحَ الله به علىّ فى الخمسينيات وحاولت الكشفَ عن أبعاده مِن بعدُ ، قانعاً فى ذلك « بالرسم » دون « الحدّ » كما يقول مناطقتنا القدماءُ ، رضىَ الله عنهم أجمعين .

بدا لى بعد التأمل ، أنكم حين اخترتمونى للتحدث بين يديكم عن شاعر مصر العزيز : قد أردتم أنتؤكدوا من جديد حقيقة نوّه بها فلاسفة الإسلام من قبلُ ، وهى أن بين الشعر والفلسفة وشائجَ متينةً ، يستطيعُ الكثيرون منا أن يلمحوها إذا اعتمدوا على « نور الخواطر ، لا على مكتوب الدفاتر » . وإذا صدق حدْسى فلن يخيب تقديركم : لأنى سأُحاول أن أتحدث عن عزيز أباظه باللغة التى تناسب الشعرَ والفلسفة جميعاً ، أقصد لغةَ « الناطقية » التى هى فى الإنسان ماهيتهُ وركيزةُ وعيهِ وضميرهِ وتعبيرهِ . وسأُحاول أن أستشِف تلك « الموسيقى الداخلية » التى صاحبت الشاعر طوال حياته ، وكانت مصدرًا حياً لإلهامه .

يقول شاعر فرنسى معاصر : « إن الشعر زهرة مِن أزهار الشرق لاتحيا فى الصُوبات الزُجاجية . فإذا أردنا أن نهتدى إليها لَزِمنا أن نلتمسها عند منبع الشمس » . وفى هذا القول تمهيدٌ لما أردت أن أستهلّ به كلامى عن عزيز أباظة : فقد نبتت شاعِريتُه من تُربة أرضِنا بعد أن أنضجتها شمسُ بلادنا .

لقد كنتُ أحب أن أتكلم عن ديوانه « أنات حائرة » ، و« إنه لمن مفاخر

مصر الشاعرة » ، كما قال المرحوم على محمود طه . ولكن الوقت المحدد لايشع لذلك ، ولا للكلام عن المعارك القلمية التى خاضها دفاعاً عن العربية الفصحى ، ولاعما أثرى به تلك اللغة المثلى فى المنشور من مسرحياته ودواوينه وملاحمه. ولذلك أكتفى هنا بالإشار إلى بعض قصائد غير منشورة ، كتبها الشاعر فى حينها وطواها . وقد زوّدنى بها صديقى الأستاذ أنور أحمد مشكوراً .

قال رحمه الله ، من قصيدة بعنوان « من وحى النكسة » :

ليس بالمِدْفَع نصرٌ وحدُه
إنما النصر بعزم متحدْ
وقلوب برئت من ضغنها
وتخلّى الخُلفُ عنها واللّدَد
صدقونى ليس شيءٌ نافعاً
أبد الدهرِ إذا الخُلْق فسد

وقال من قصيدة فى رثاء السنهورى :

سادِنُ العدلِ أعْرَضَ العدلُ عنه
ساخراً من يقينه وحَصَاتِه
رأيُه الحرُّ عُدَّ من سيئاته
والإباءُ الوقورُ من سقطاته
ليس حُكماً حكمٌ يَشُقّ من الإرْ
هابِ مهواتَه إلى شهواته

ومن تأملاته فى شئون الناس قوله :

لا تَلُمْ طاغياً بَغى فأذاقَ الناس ظُلماً وذِلةً فاستكانوا .

واصرفْ اللَّوم للألى مَكَّنوه
وبَنَوهُ فاستحصد البنيانُ
كل شعب أُذيقَ عَسفاً فأغفَى
كان عدلاً عليه هذا الهوانُ

أيها السادة

ليت عزيزاً عاش بيننا ، ليشهد ماشهدنا من تفجر طاقات أمتنا . إذن لَظفرنا من شاعريته الفياضة بما يملأ جوانحنا أملاً وعزائمنا إقداماً .

وبعدُ فقد آمَن شاعرنُا الراحلُ بما آمَن به المرحوم عباس محمود العقاد من أن الشعر فى صميمه هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق ، والشاعر يعمق صلتنا بالوجود ، ويفتح أعيننا على مافى

الكون من جمال . ولبث ينادى بأن الشعر هو أسمى مراتب الفنّ الأصيل وفهمَ الشعرَ على أنه لغةٌ نسيجها دمٌ، ونبضٌ وإيمان . وفهِمَه كذلك على أنه أكرمُ أداةٍ تصل بين جمالِ الحياة الإنسانية وجمالِ الله الذى أبدع خلقه.

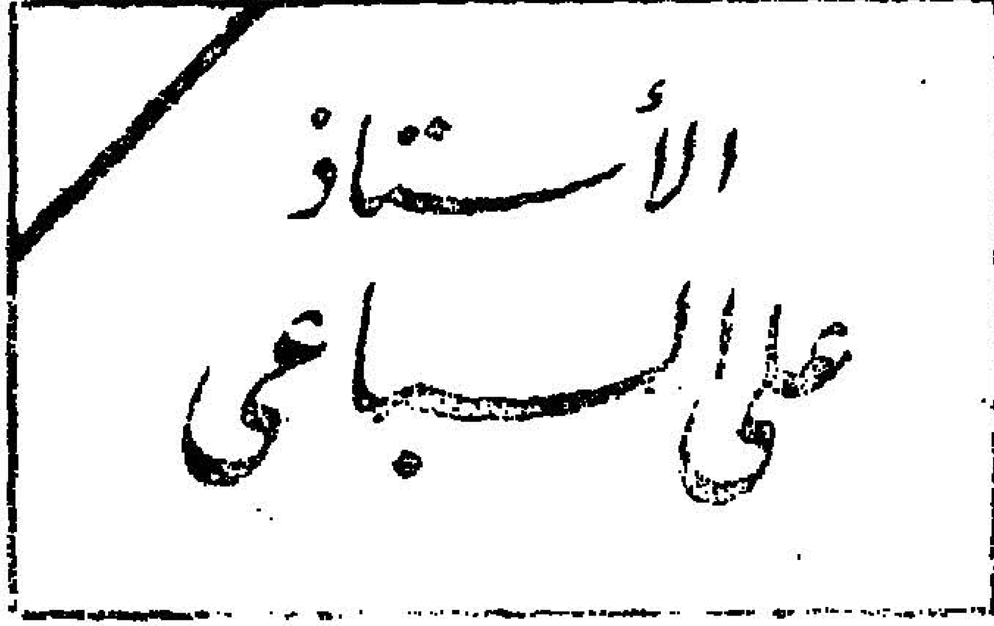
إن قضيةَ الشعرِ، أيها السادة ،قضيةٌ جوهرية . وقيمة الشاعر فى أمته قيمة حضارية : إنه يجعل للحياة معنًى ، وينشر فى الأرض حبّاً ، ويمنح الروح سناءً ، ويذود عن كرامة الإنسان . وقد عبّر الشاعرُ صالح جودت عن هذه المعانى أصدقَ تعبير حين قال فى تأبين الشاعر الراحل:

قيمة الشاعر فى أُمته
أنه يفتح أبواب السماء
أنه يجعل للعمر شذًى
أنه يمنح للروح الضياء
أنه بالشعر يَهدى قومَه للطريق
الحق والرأى السواء

وإذا كان أفلاطون قد نظر إلى الفلسفة بمعناها الأصيل ، أى بمعنى محبة الحكمة، فجعلها « حارسة للمدينة » ، فالشعر بمعناه الواسع ، أى بمعنى أنه حث للإنسان على فتح أبواب وعيه على الكون ، وتزكيةُ ضميره لاستقبال نفحات السماء ، ينبغى أن يكون له مشاركة دائبة فى هذه الحرسة الروحية . ورسالة الشعر — كرسالة الفلسفة — رسالة جُوّانّية على الأصالة : أيكون الإنسان إنساناً على الحقيقة أم لا يكون ؟ تلك هى القضية كما جاءت على لسان « هَمْلت » فى مسرحية شكسبير الخالدة .

والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم* :



سيداتى ، سادتى ،

ماأعجب تصاريف الأيام ، وما أقسى أحكام القدر ؛ فمنذ سنتين اثنتين سعد المجمع كل السعادة باختيار الزميل الكريم والعالم الجليل على السباعى عضوا فى المجمع .

فى هذه القاعة نفسها استقبل المجمع زميلنا الراحل بكل سرور وبهجة ، وها نحن اليوم نودعه فى حسرة وأسى .

لقد شاء القدر أن يكون هؤلاء الذين استقبلوه بالأمس هم الذين يودعونه اليوم ، هكذا شأن الحياة : استقبال فوداع ، وتفرق بعد اجتماع وسرور وهناء ، ثم عزاء وبكاء ، تلك هى طبيعة الحياه ، ولقد كان الفقيد قبل وفاته بيوم واحد يجلس بيننا فى لجنة الأصول سليما معافى ، لا يشكو من شىء سوى ألم بسيط يشعر به فى الصعود والهبوط ، بسبب ساقه ، بل لقد كان الفقيد قبل وفاته بساعة أو بنصف ساعة حاضرا فى لجنة المعجم ، وما كاد يغادر المكان حتى أدركه الموت فى طريقه إلى داره .

إن الوفاة الفجائية التى هزت أعصابنا تذكرنا أيضا بوفيات فجائية أخرى ، ذهبت بكثير من أعضاء هذا المجمع ، وإنى أذكر بهذه المناسبة : منصور فهمى ، وإبراهيم مصطفى ، والشيخ محمد على النجار ، ومحمد عوض محمد ، ومصطفى القللى ، وعلى الجندى ، رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته ، وها نحن نضيف اليوم إلى هذه القائمة الحزينة وفاة على السباعى .

قد يكون فى هذه الوفيات الفجائية بعض الراحة أو الرحمة بالأموات ، ولكن ماأقساها على قلوب الأحياء . إنها تترك فى نفوس من حولهم أشد الحزن ، وأعمق الأسى .

إن فجيعة لجنة الأصول فى على السباعى فجيعة أليمة قاسية ، فقد فقدت فيه اللجنة ثروة لغوية ضخمة ليس من السهل أن تعوض ، لقد كان رحمه الله عالما حجة ولغويا ثقة ؛ فما من مسألة لغوية أو بحث لغوى عرضت له اللجنة إلا وكان للفقيد فيه جولة تنم على سعة الاطلاع ، وأصالة الرأى ، والإحاطة التامة بأمهات المراجع اللغوية ، ولكن ماحيلتنا فى قضاء الله ؟

* أقيم حفل تأبينه بدار المجمع بالجيزة فى صباح الأربعاء ٢٢/٥/١٩٧٤ ، وألقيت فيه الكلمات التالية .

ليس لنا حيال الموت من حيلة سوى الصبر والإيمان . إن الموت هو القانون الطبيعى الذى لايشذ ولا يتخلف ، والحقيقة الكبرى التى لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فكل حى إلى فناء ، وكل نفس ذائقة الموت ، وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت :

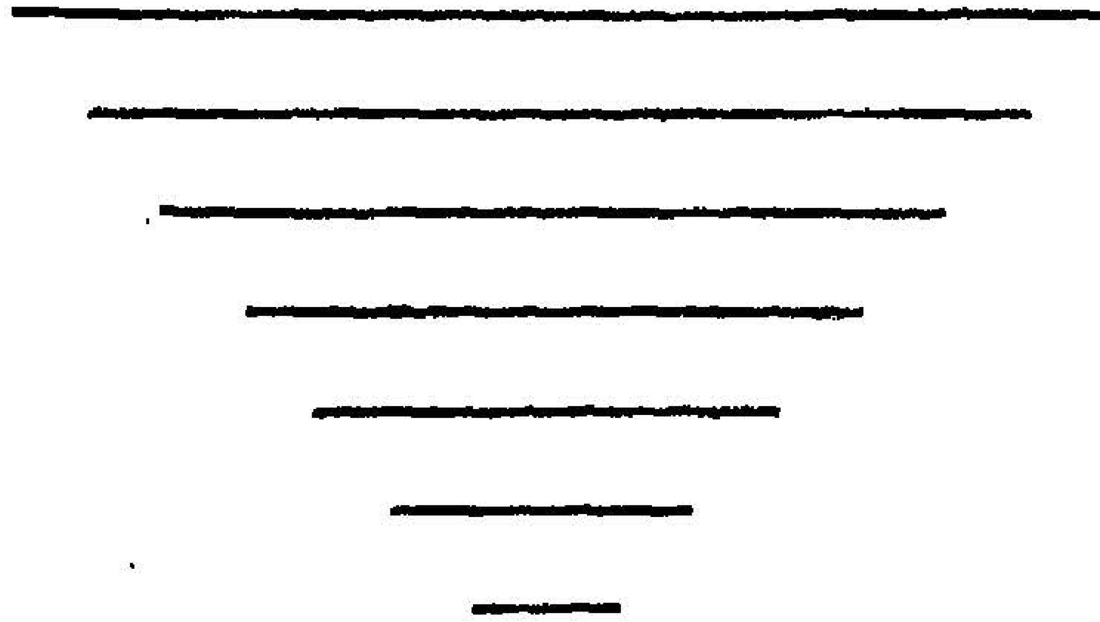
إننا أيها السيدات والسادة نؤمن بهذا كله ، ولكن الذى يحز نفوسنا الموت السريع الذى يتخطف زملاءنا فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى علمهم وكفايتهم ونشاطهم .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وجزاه عما قدم للغة بخير ما يجزى به العاملين المخلصين .

أما الآن أيها السيدات والسادة فسيتولى تأبين الفقيد نيابة عن المجمع صديق الفقيد الزميل الأستاذ عباس حسن .

ثم يليه الدكتور كمال بشر عميد كلية دار العلوم فيلقى كلمة الكلية ثم يليهما السيد اللواء الصاوى عيسى شقيق الفقيد فيلقى كلمة الأسرة .

فليتفضل الزميل عباس حسن وشكرا .



كلمة الأستاذ عباس حسن

باسم الله القاهر فوق عباده ، نؤمن به عن يقين لا يشوبه زيغ ، ونستسلم لقضائه فى رضا لا يزعزعه ريب ، واطمئنان لاتنال منه أحداث الزمان ، ولا نوازل الليالى .

وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، مصابيح الهداية ، ومنائر العرفان . وأذكر بالتجلة والإكبار أعلاما من أئمتنا الأخيار الأبرار ، وهبوا أنفسهم للدين واللغة ، ووقفوا حياتهم على خدمتهما ، والدفاع عنهما ، فى غير ملل ، ولا قصور ، ولاشطط ، ولا جمود .

وأقسموا على هذا وأبروا ، وصدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا .

ومن هؤلاء الأخيار الأبرار المجمعيين الأستاذ : على السباعى الذى نجتمع اليوم لإحياء ذكراه ، بعد أن اجتمعنا منذ شهور قليلة لاستقباله ، والاحتفاء بمقدمه ، وانضمامه إلى زمرة : « الخالدين » . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وما عسى أن أقول عنه فى موقفى هذا من صفات التقدير الحق ، وعبارات الثناء التزيه ونحن فى عصر فقدت فيه ألفاظ الثناء خصائصها ، ودلالاتها ، وحسن بهائها ورواءها ، بالابتذال المهين ، والاتجاه الخاطئ ، والكذب البغيض ، والرياء الطاغى ؛ فما أكثر ما نسمع تلك الألفاظ المرددة عن جهالة ، أو مداهنة ، أو زلفى ، أو سوء اصطناع ، من أمثال وصف فلان بأنه العالم الثبت ، الحجة المحقق ، البحاثة المتفقه ، .... أو : أنه العبقرى الفذ ، وحيد زمانه ، وفريد عصره وأوانه ، وما أكثر ما تصك أسماعنا أوصاف كهذه أو أرذل منها فى عبقرى آخر من طراز ذلك العالم العلامة الحبر البحر الفهامة ، وما أكثر هذه الطرز ، وأوفر الأفذاذ من أمثال أولئك الذين غصت حناجر الجهلاء والمتزلفين بمدحهم ، وشرقت أفواههم بالحديث المعاد المكرر عنهم ؛ حتى صارت المدائح متعاورة متبادلة كثياب الزينة المستعارة أو المستأجرة ؛ يخلعها هذا ليلبسها ذاك ، ويخب فيها اللاحق محاكاة للسابق . بل صارت تلك المدائح لسامعها أو قارئها ضربا من التعذيب ؛ لا يقوى على احتماله إلا من يطيق احتمال الأذى ورؤية جانيه .

فمن عذيرى اليوم إن سلكت فى تأبين فقيدنا مسالك السالفين ، وترسمت خطاهم وسرت على الدرب ؟

شفيعى إليكم أنكم ستسمعون عن فقيدنا الكبير ماتعلمون أنه الحق البعيد عن جنف الهوى، وزيغ النفوس .

لقد كان فقيدنا أحد أعلام أربعة فقدهم المجمع فى شهور قليلة وهو أشد ما يكون حاجة إلى الانتفاع بمواهبهم الفـذة ، وذخائرهم اللغوية النفيسة، فوق ما منحهم الله من خلق قويم، ونبل أسمى، وأعنى بهم الأستاذين الأمجاد : عزيز أباظة ، وعلى الجندى ، وعلى السباعى ، وعبد الحكيم الرفاعى . رضى الله عنهم وأرضاهم ، وأكرم مثواهم ، وتولى عنا حسن الجزاء وجميل المثوبة ؛ فإنا عن بعض هذا لعاجزون وحسبى الساعة أن أرمز إلى بعض فضلهم وفضائلهم، بالحديث عن واحد منهم، وهم معه فى هذا الحديث مقصودون .

عرفت فقيدنا — أول ماعرفت — فى مطلع السنوات الثلاثينية، ولم تكن تلك المعرفة عن تلاق ومقابلة، وإنما كانت عن سماع باسمه وترديد لمزاياه ممن يعرفونه، وقراءة لبحوث ومقالات لغوية وأدبية تنشرها له الصحف والمجلات الرصينة، ولاسيما صحيفة : «دار العلوم» فتشوفت إلى رؤية هذا الباحث ، وتشوقت إلى لقياه ؛ وكنت إذ ذاك فى فجر حياتى التدريسية وحولى من هم أقدم منى بالتدريس ، وأسبق إلى ميدانه بعشر سنوات أو تزيد ، يعرفون من أسرار المهنة ومنازل رجالاتها فى الشئون اللغوية مالاعهدلى به . وكنت أسمعهم فى محاوراتهم وكل مشكلاتهم يرددون اسم مدرس فنى تخرج فى دار العلوم سنة ١٧ اسمه «على السباعى». رأيتهم يرجعون إليه وينقلون عنه كما يرجعون وينقلون عن المعاجم اللغوية ، والمطولات النحوية والصرفية والعروضية ، يأخذون برأيه، ويقفون عند فتواه ، والقول ماقال ؛ فتزول به الحيرة ، وينقطع الحوار .

تردد هذا وتكرر حتى استرعى انتباهى وشدنى إلى رؤية هذا الشاب النابه ، والجلوس إليه . وتحقق لى ماأردت ؛ فإذا فتى فارع الطول ملىء الجسم ، وسيم المحيا ، جميل الوجه ، فاره الرجولة ، فى أدب جم ، وحياء محمود ، وحسن حديث ، وحميد إصغاء . ودار الحديث بيننا شهيا طليا فى موضوعات تتصل بعملنا ، وباللغة وفروعها ، فرأيت وسمعت ماأثار عجبى وإعجابى . ثم تكرر اللقاء والحديث والحوار ، فزاد التقدير والإكبار واستخلصت من كل ذلك ظاهرتين أصيلتين ملازمتين لفقيدنا الكريم ، إحداهما : دينية ، والأخرى لغوية .

فأما الدينية فتجلت فى حرصه على إقامة الشعائر الدينية المختلفة فى صورها الحميدة المصفاة جهد طاقته ، فى غير دعاية ولا تظاهر ، ولا جمود ، ولا استهانة ، فى زمن من قال فيه قولا شعر ، ومن خط فيه حرفا غدا أكتب الكتاب . وما أعلم شهد الله — وقد زاملته طويلا — أنه توانى فى أداء تلك الشعائر أو قصر فى إنجازها على خير ما يرجى من أمثاله الطائعين الصادقين .

وبتمسكه بدينه ، وحرصه عليه فى غير تصنع ولا تقصير ـ طهُرت نفسه ، وارتدت الآفات عن أخلاقه . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وإن كان لى ما أخصه بالذكر فى هذه الناحية فهو استظهاره القرآن الكريم على الوجه الأكمل ، ومدوامةُ قراءته قراءة واعية ، موزّعة نجوما وأجزاء على أيام السنة ، لكل يوم جزء معلوم يستعيده ، ويستلهم فوائده وفرائده الدينية واللغوية والأدبية؛ يختزنها ليوم تشرئب فيه الأعناق بحثا عن مَعِين الفتوى، وفيصل الرأى ويتساءل الباحثون : أين على السباعى ؟

تلك هى ناحيته الدينية فى لمح وإيجاز وأما ناحيته اللغوية فأمرها عجب أى عجب، فلست أعرف فى المعاصرين من أهل الكفايات اللغوية ـ على وفرة عددهم ، وفيض مزاياهم ، وأصالة مواهبهم ـ من هيأ نفسه أو هيئ له أن يقرأ المعجم اللغوى الأدبى الأكبر المسمى : «لسان العرب» كما قرأه على السباعى فى أجزائه العشرين التى تبلغ صفحات الجزء الواحد منها : أربعمائة ، أو تزيد .

هذه دعوى سمعتها منه فى بيته لمناسبة طارئة؛ فألمحت اليه فى سرعة وخفّة بما يفيد أن الدعاوى إن لم يقم أصحابها بينات كانوا أدعياء . فأدرك ما أرمى اليه ، ومد يده إلى نسخته الخاصة من : « لسان العرب » واستعرض فى عشرات الصفحات ما يؤيد دعواه ومددت يدى كذلك اعتباطا فوجدت مئات الصحف لا تخلو من أثر يدل على قراءته قراءة واعية نافعة لايتسع المقام لعرض الكثير منها. وحسبى أن أشير إلى نموذج واحد مما شاهدته وقرأته . ففى الجزء الثالث عشر ، مادة : « جَدَل » يسجل اللسان النص الآتى :

(قد يقال للأجدل أجدلى ، ونظيره أعجم وأعجمى ، أنشد ابن برّى لشاعر : «كأن بنى الدأماء إذ لحقوابنا . . . الخ»)
وهنا كتب على السباعى : هذا الشاع هو القطامى ... وورد البيت فى قصيدة المدونة فى ص كذا .. ( )

وفى نفس المادة قال لسان العرب ما نصه:
(قال الشاعر : قد أركب الآلة بعد الآلة ..
وهنا كتب على السباعى : هذا الشاعر هو أبو قردوده .

وفى مادة : « جزل » قال اللسان : «تقسر» فقال على السباعى « الصحيح : تعتسر كما فى المخطوطة الأصلية فى الصفحة التاسعة .

وفى مادة : « حثل » قال اللسان : « ريشه قد تصوعا » . فكتب على السباعى الصواب : تضوعا كما ورد فى مكان آخر من هذا الجزء .

وفى باب : « حجل »قال اللسان البيت من المخلع ، فقال على السباعى هذا البيت لا يصلح مخلعا .

وأمثال هذا كثير ، ما كنت لأصدقه إلا بسلطان مبين ، هو سلطان العين الباصرة ، والأذن الواعية ، والواقع الذى يعلن عن نفسه فى صمت أبلغ من الكلام ، وأقطع فى الفصل من طويل الجدل .

ولقد غمرنى الدهش من هذا العمل المعجز ، والجهد الجاهد الذى لا يقدر عليه إلا أولو العزم ممن تخيرتهم المقادير لجلائل المهام ، واصطفتهم لعظائم الأمور ؛ حتى لقد كدت أن أنكر ما أرى وأسمع لولا أن منّ الله على بالاطمئنان لما أرى ، وشرح صدرى للإيمان بالواقع الحق والاعتراف لصاحبه بما تفرد به — أو كاد — بين معاصريه .

على أنى لم ألبث أن وقعت فى جديد من الحيرة والاضطراب ، بل فى مزيد من العجب والإعجاب ؛ فقد تدبرت — بعد أن استرجعت نفسى ، وانتزعتها من الدهش الغامر — ما صنع فقيدنا فى تعليقه على مواد : «لسان العرب» ، وما تغيّاه من ذلك التحقيق ، فاذا أمور ثلاثة سعى إلى تحقيقها مجتمعة وعمل على اقتناصها مكتملة ؛ فتمّ له ما أراد وما أشق الأمر الواحد منها على رجالات عصورنا الحديثة ، إلا من تخيره الله لمثل هذه الجلائل ، ومنحه من الصبر والجلد وصادق الرغبة ما منحه الفقيد الجليل . فأما أولها : فتصحيح ما أخطأ اللسان فى نقله عن المراجع القديمة ، أو فى فهمه ؛ فنرى صاحبنا يصحح ويؤيد التصحيح بذكر المراجع الوثيقة التى تؤيده .

وأماثانيها : فتكملة الأبيات الناقصة التى يستشهد بها صاحب اللسان — وما أكثر تلك النواقص — فيتمها فقيدنا نقلا عن مصادرها الصحيحة . وما أجزل النفع بهذا للمشتغلين بفروع العربية المختلفة ؛ متنها ، ونحوها ، وصرفها ، وأدبها . وأماثالثها : فتصويب ما أخطأ اللسان فى نسبته إلى غير قائله ؛ فيرد للنص مكانته ، وينسبه إلى صاحبه . تلك هى الأمور الثلاثة التى سعى فقيدنا إليها ، وأدرك منها ما أمّل ، وحقق ما ابتغى .

والمشتغلون بالعلوم اللغوية المنقطعون لتحصيلها ، يدركون أتم الإدراك ما فى هذا من عناء ، وما له من جليل الفائدة .

ولست بصدد أن أذكر ما للفقيد من من مشاركة نافعة فى الكتب المدرسية المختلفة ، فشتان بين النوعين ؛ نوع «مدرسى ليس فيه بأوحد» ، ونوع آخر لا يقدر عليه إلا من اختارهم الله لإنجازه ، واحتمال مشاقه ، وعرض ثمراته ، وقليل ماهم .

ولقد بلغ من حب الفقيد للغته ، وهيامه بها أن أقام نفسه ، ديدبانا عليها ، يصونها ويرعاها منذ سنواته الأولى بعد التخرج ؛ يدفع الألفاظ الدخيلة ، والأساليب المريضة . وله فى هذا مجالس ومحافل ومقالات يعرفها المترددون على : «نادى دار العلوم» القديم والمرافقون له فى التدريس بالمدارس الثانوية وكليتى ، «الحقوق ، ودار العلوم» ، والقارئون للمجلات العلمية والأدبية ولا سيما صحيفة

دار العلوم : وبحوثه في مصر وغيرها ينقلها عنه قراؤه وتلاميذه ومريدوه في مصر وغيرها ، كالقدس ، والحجاز ، حيث قام بالتدريس في تلك البلاد الشقيقة العزيزة: وما لنا لا نشيد بمواقفه الغراء في سنواته التدريسية الأولى حول سنة ٢٠ وماوليها حين كانت بلادنا ترزح في تلك السنوات تحت أهوال الجهالة الجهلاء والاستعمار الغاشم ، وكلاهما عدو اللغه ، بل أشد أعدائها فتكا وضراوة . فقد شاء الله أن يخرج «على السباعى» من دار العلوم في العشرة الرابعة من سنوات الاستعمار المتغلغل في بلادنا ، الجاثم على صدورنا ، العامل جهده على تحطيم مقدساتنا ، ولاسيما اللغة ؛ أقوى الروابط بين البلاد العربية الشقيقه ، وإن بعدت أنحاؤها وترامت أرجاؤها : وزاده بطشا وتمكينا في تلك الحقبة اشتعال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وما نشرته من أهوال وكوارث ، وما بثه المستعمر في النفوس من إرهاب وفجائع ، وما نجح فيه منذ بدء احتلاله سنة ١٩٨٢ من نشر لغته في المدارس ومعاهد التعليم ، وما نجح فيه بدهائه وسلطانه من إعداد أجيال جديدة تألف لغته وتزدرى لغة الآباء والأجداد ، بل تزدرى كل ما هو مصرى ، وتندفع في محاكاة المستعمر تشبها به وإرضاء له واستجلابا للمنافع الخاصة من وراء ذلك ؛ حتى قويت لغة المستعمر وعز شأنه وشأنها ، وقهرت العربية وضعف شأنها وشأن المشتغلين بها ، وارتفعت الأصوات المخلصة المحذرة من وخيم العواقب المترتبة على هذا الاندفاع الأحمق : والتقليد المدمر وفي هذا يقول الشاعر الكبير «محمد حافظ إبراهيم» ناصحا محذرا كاشفا عن الخطل والخطر .

«لا تحد حذو عصابة مفتونة ....» الخ

وفي هذا الجو الظالم المظلم : وفي تلك الحقبة الحالكة السواد — انتفض على السباعى واقفا في ساحة اللغة : مدافعا عنها بلسانه وقلمه : لايمل : ولايسأم . ولا يدع للضجر سبيلا إلى نفسه . ونجح في الدفاع أيما نجاح وأدرك منه ما يخلد فضله : ويسجل جهاده :

وإن الأمانة التاريخية ، والصدق في تسجيل الأحداث ، ليقتضيان أن نذكر الفضل لأصحابه جميعا : ولا نغمط أحداً حقه : هذا ينتهى بنا إلى أن نذكر بالثناء الجم ، والتقدير الأوفى ، — ونحن في معرض الذكريات الكريمة — أعلاما سباقين إلى ماسبق إليه على السباعى وشاركوه أو أشركوه فيها وهبوا أنفسهم لانجازه وتحقيقه : وكانوا سدنة اللغة والدين الأوفياء ، والرعيل الأول في الحفاظ عليهما ، وصيانتهما مما أريد لهما من شر وفى مقدمة هؤلاء الاساتذة الأجلاء أبو الفتح الفقى — محمود البطراوى — نجيب حتاته — عبد الحميد حسن — محمد على مصطفى — مهدى علام : رحم الله من سبق إلى الدار

الآخرة ، وصبان من بقى منهم فى الدار الأولى ، وأجزل لهؤلاء حسن الثواب وجميل الجزاء؛ ما احتملوا من عناء، واضطهاد، ومكايد وأهوال، ومظالم؛ فلم تَلِنْ لهم قناة، ولم تخفت لهم أصوات ، واجتازوا المحنة — بل المحن المتوالية — بقلب سليم عامر يحب اللهَ والدين ؛ لا تزيده الشدائد إلا ثباتا وإصرارا حتى انجلى بعد الليل الطويل عن صبح مشرق ، صافى الوضاءة والإسعاد، لا طاقة لأحد على دفعه .

أى على: قد كان ما خفت أن يكونَ ، مما ليس لأحد طاقة بدفعه ؛ فلا يسعنى إلا الامتثال والخضوع لقضاء الله وقدره؛ فانعمْ بجوار الله، ويرضاه عنك، ودعائنا لك واهنأ بما قدمت يداك من عمل صالح ضمك إلى زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، وأدخلك مداخل الأوابين الأطهار؛ ينظرون جزاء ما صنعوا يستبشرون برحمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

.. كلمة الأسرة

للواء الصاوى عيسى شقيق الفقيد

أحمد الله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد .

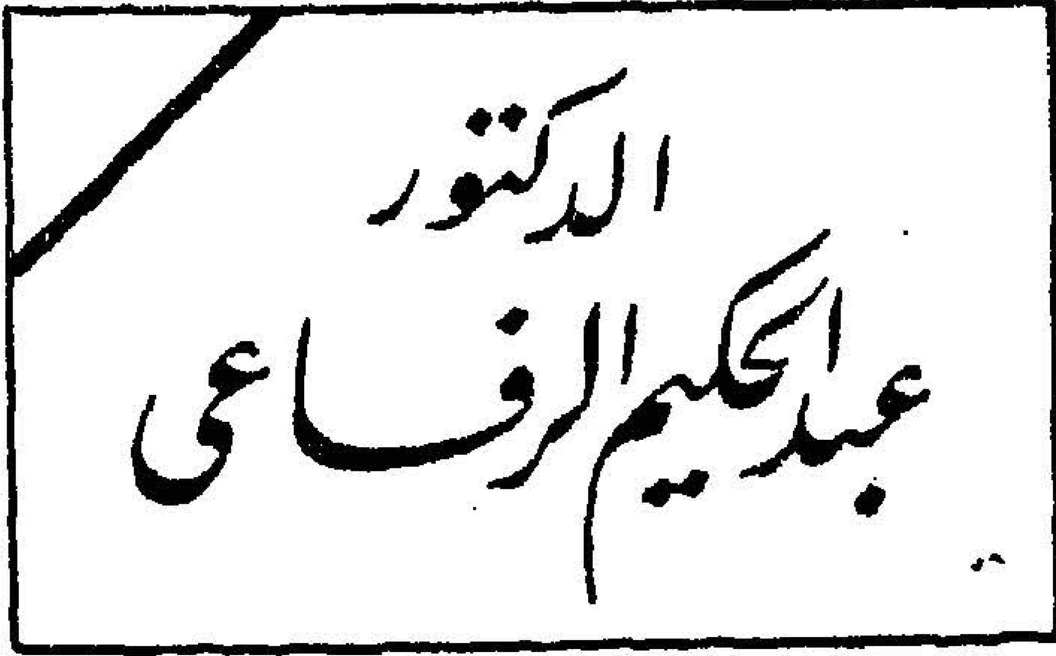
فيتشرف الشقيق الأصغر للراحل الكريم النبيل بأن يتقدم للسادة الأجلاء : رئيس وأعضاء المجمع اللغوى بخالص شكر أسرة الفقيد العزيز بجيل عزائهم وتحطيم أخلاصهم سواء فى تشييع جنازته أو فى العزاء مساء يوم الجنازه ، او بالنعى الكريم الوفى بالصحف أو بالعزاء بالبرقيات أو البريد أو المشاركة فى ذكرى الأربعين أو بالحفل الوفى الأبى : حفل التأبين المقام اليوم ، وندعو لكم جميعا بأتم الصحة وموفور العافيه وطول العمر . وأن يثيبكم الله على جميل وفائكم ، وعلى رقيق مشاعركم بأجمل واكرم الأجر والثواب ، لقد تناول السادة الاساتذه المؤبنين مشكورين بعض الجوانب التى تمس الفقيد سواء من الناحيه الدينيه أو الناحيه العلميه أو الناحيه الخلقيه ، أو مآثره الطيبة فى حياته . ولتأذنوا أن أتناول فى إنجاز بعض مآثر الفقيد بين أهله وأسرته .

لقد كان رضى الله عنه وأرضاه أبر الأبناء بوالديه فى حياتهم وبعد وفاتهم ، ظل بره بهما ذكرى ، ودعاء مستمراً متواصلا ، وكان رحمه الله أخلص الأزواج بالزوجة ، ثم كان أبر الآباء لابنه وبناته أدى رسالته نحوهم على أتم وأحسن ما يكون الاداء وكان رأيه فى تعليم البنت ان يعلمها لا للتوظف وإنما لتكون سكناً أمينا لزوجها — والتكون مربيه لأولادها ، ولكون وافيه فى تصريف شئون مملكتها ، وكان رحمه الله أعطف الإخوه بأخواتهم ، وأنا شخصيا حظيت بهذا العطف : فقد تولانى منذ الصغر علمنى وأدبنى وربانى ، وأنفق على حتى صرت رجلا . وكان رحمه الله فوق ذلك كله أحب الإخوه إلى الأقارب والأصهار . فقد كان دائما أحفظنا جميعا لصلة الرحم ، فلما غاب عنا فقدنا السؤال الدائم عن الصغير وعلى الكبير .

رحمه الله الفقيد رحمه واسعة وأسكنه الفردوس مع الصديقين والأبرار اللهم آمين ، والسلام عليكم ورحمة الله .

الاستاذ زكى المهندس : سيداتى وسادتى باسم المجمع اشكر لحضراتكم كريم مواساتكم على تأبين الفقيد أجمل الله عزائكم وجنبكم كل مكروه ، والسلام عليكم ورحمة الله .

•• كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم *:



بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات الزملاء ، سيداتى وسادتى .

إنه لتعز علينا أن نجتمع اليوم لتأبين زميل كريم وعالم جليل، هو المغفور له الدكتور عبد الحكيم الرفاعى . لقد وافيه المنتة فى السابع عشر من أبريل الماضى بعد مرض طويل مضن ، فتركت وفاته فى نفوسنا أشد الحزن ، وأعمق الأسى .

إن المجمع قد فقد فى عبد الحكيم الرفاعى ثروة علمية اقتصادية ليس من السهل أن تعوض .

لقد كنا نتابع مرضه فى شىء كثير من القلق والخوف والرجاء والأمل .

كان الأمل شفائه يتملكنا أحيانا، كما كان اليأس يستبد بنا أحيانا أخرى .

ولكن بين الأمل واليأس والخوف والرجاء نفذت إرادة الله ، وكان ماخفنا أن يكون هذا قضاء الله ، والذى لاراد لقضائه ولامعقب لحكمه لقد عاصر الفقيد المجمع منذ سنيه الأولى خبيرا فى لجنة القانون والاقتصاد ، ثم اختير منذ بضع سنوات عضوا عاملا فى المجمع وفى هذه المدة الطويلة ساهم الفقيد رحمه الله فى تحقيق رسالة المجمع مساهمة مشكورة ، فاستطاع أن يطوع اللغة العربية لتعبر عن مصطلحات علم الاقتصاد ، بل لانبالغ إذا قلنا إن الفقيد قد استطاع أن يلبس علم الاقتصاد ثوبه العربى المتين الأصل ، ولعل كثيرا من الألفاظ والعبارات العربية الصحيحة التى نسمعها الآن مستعملة فى البنوك والشركات المالية والضرائب والجمارك ، هذه كلها كانت من وضع الفقيد رحمه الله .

وكان الفقيد إلى جانب علمه ونهايته كريما سمحاً التواضع جم عامر القلب بالإخلاص وبالواجب والوفاء لإخوانه وزملائه لقد عرفنا الفقيد أكثر من ربع قرن لم أذكر

* أقيم حفل تابينه بدار المجمع بالجيزة فى صباح الأربعاء ١٩٧٤/٥/٢٩ والقيت فيه الكلمات التالية :

أني وجدته يوما غاضبا غضباً يخرجه عن هدوئه وسماحته وإنما كان محبوبا من الجميع محبا للجميع على أننا إذ نبكى الفقيد اليوم ، لانبكى فيه عضواً مجمعياً نشيطاً منتجاً فحسب ، نبكى فيه عالما من أعلام الاقتصاد بل رائد من أعظم رواده لافى مصر وحدها بل فى البلاد العربية جميعها .

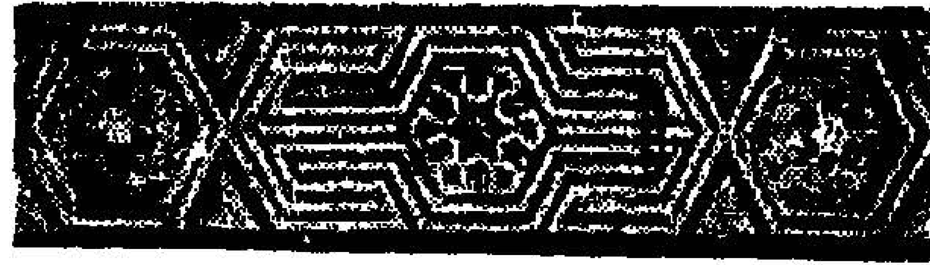
لقد ساهم وهو محافظ للبنك الأهلى ثم للبنك المركزى حل كثير من المشكلات الاقتصادية ، التى كانت تعانى منها البلاد ، كما ساهم أيضا فى تطوير كثيرمن النظم الاقتصادية فى البلاد العربية ، يوم انتدب مديراً للشئون الاقتصادية فى جامعة الدول العربية .

أما المكتبة العربية فقد ترك لها الفقيد تراثا علمياً اقتصاديا يبقى على الزمان . إن ماألفه من كتب ومانشره من بحوث ، وماألقاه من محاضرات كلها تعتبر نورا ساطعا يضىء الطريق أمام جميع المشتغلين بالدراسات الاقتصادية .

أيها السادة ،

فى الواقع إن مجال القول فى عبد الحكيم الرفاعى مجال رحب فسيح لانستطيع فى هذه الجلسة القصيرة أن نبلغ مداه ، فحسبنا تلك الدمعة التى نسكبها اليوم فى تكريم ذكراه رحمة الله وطلب ثراه ، وجعل الجنة مستقره ومثواه .

أما الآن أيها السادة ، فسيتولى تأبين الفقيد نيابة عن المجمع الزميل الدكتور أحمد عز الدين عبد الله ، ثم يليه نجل الفقيد الدكتور محمد عبد الحكيم الرفاعى ، فيلقى كلمة الأسرة . فليتفضل الدكتور عز الدين مشكورا ،



كلمة الأستاذ الدكتور أحمد عز الدين عبد الله

السيد الرئيس

سادتي

من الرجال من يسبق جيله فيكون رائداً في المجتمع الذى يعيش فيه .

ومن الرجال من لا يلهيه عرض الحياة الدنيا ، فيملأ نفسه بما ينفع المجتمع الذى يعيش فيه من علم أو أدب أو فن .

ومن الرجال من يكون مكتمل الشخصية فلا يبهره بريق منصب أو جاه

ومن الرجال من يفهم حقيقة الحياة ، ويفهم قدر الإنسان فيها ، فيكون التواضع طبعه .

ومن الرجال من لاتهزهم أحداث الحياة ، فيكون بين قوله جلداً .

ومن الرجال من يتجرد من الأنانية فيكون بين قومه صمدا .

ومن الرجال من تتجمع لديه كل هذه الصفات ، فيكون بين قومه عزيزاً .

وهكذا كان فقيدنا العزيز العالم الأستاذ الدكتور عبد الحكيم الرفاعى .

بدأت معرفتى بالدكتور الرفاعى فى سنة ١٩٣٠ ، حين كنت أطلب العلم بكلية الحقوق بجامعة القاهرة . وكان قد مضى عام على عودته من باريس ، مع زملائه فى البعثة العلمية ، ليعينوا أعضاء فى هيئة التدريس بهذه الكلية

وسرعان مالمسنا فى هذا الجيل من المدرسين الشبان طابعاً معيناً يتميزون به ، أسبغته عليهم الظروف التى عاشوا فيها .

فهم قد عاصروا فى السنوات الأولى من شبابهم ، أحداث ثورة السنة التاسعة عشرة ، فاعتنقوا مبادئها ، شأنهم فى ذلك شأن جيلهم ، حين كان العمل الوطنى فداء يقدمه المواطن ، و خيراً يترقبه الوطن . لم يكن العمل الوطنى حرفة تدر الغنم ، بل تضحية تزين جيد صاحبها بشرف المساهمة فى خدمة وطنه .

وهم قد عاشوا مدة البعثة فى فرنسا ، حين كان يغمرها فيض من الاعتزاز بالوطن واحترام حريات الإنسان والتشبث بالحياة الديمقراطية ، مما زكاه خروجها من الحرب العالمية الأولى منتصرة على العدوان والبغى

وقد جبلت هذه الظروف ، ذلك الجيل من الأساتذة على الوطنية الصادقة ، والعمل الجاد فى أداء الرسالة التى يحملونها ، من ، خدمة العلم ، وتنشئة شباب جاد مشبع بالعلم وبثقافة العصر وحضارته .

وكان لنا من أستاذنا الدكتور الرفاعى مجموعة مثل نعجب بها ونسعى إليها : غزارة فى العلم ، أمانة فى أداء الواجب ، رقة فى الحس واحترام للنفس وللغير ، يغلفه ويزينه رداء من أدب جم وتواضع جذاب .

ولد فقيدنا فى قرية « شبرا » من أعمال مركز السنطة بمحافظة الغربية . وبعد أن أتم تعليمه الابتدائى والثانوى بمدارس مدينة طنطا ، وفد على القاهرة ، حيث التحق بمدرسة الحقوق (كلية الحقوق بجامعة القاهرة فيما بعد) ، وحصل منها على درجة الليسانس فى الحقوق ، فى سنة ١٩٢٥ ، وكان التفوق لازمة كل امتحان أداه .

ثم أوفد ، خلال ذلك العام ، فى بعثة علمية إلى فرنسا للحصول على درجة الدكتوراه فى العلوم الاقتصادية . وهناك اتسعت أمامه آفاق العلم والمعرفة . وأبى عليه طموحه أن يقف بجهوده فى هذه الآفاق عند حد الدراسة والبحث اللازمين للحصول على هذه الدرجة العلمية : بل إنه كان فيها نهما . فحصل على دبلومات الدراسات العليا كلها ، التى كانت تنظمها قوانين ولوائح جامعة باريس ، فى ذلك الوقت ، فى ميدان القانون والاقتصاد وهى :

- دبلوم الاقتصاد السياسى
- دبلوم القانون العام
- دبلوم القانون الخاص
- دبلوم القانون الرومانى
- دبلوم القانون الجنائى
- دبلوم علم العقاب

وانتهى به المطاف فى ميدان الدراسة والتحصيل والبحث إلى الحصول على درجة الدكتوراه بأعلى مراتبها . وكان ذلك فى سنة ١٩٢٩ .

وعلى هذا النحو جمع الدكتور الرفاعى رصيداً من الدراسات القانونية ، بجانب تخصصه فى العلوم الاقتصادية ، مقدرا فى هذا الجمع الصلة الوثيقة بين الاقتصاد والقانون فى حياة مجتمع أية دولة ، بل وفى حياة المجتمع البشرى كله

وبجانب ذلك كله ، أفاد الدكتور الرفاعى من ثقافة وحضارة المجتمع الأوروبى الذى عاش فيه ، وتعرف على حال المجتمع الدولى فى مختلف جوانبه السياسية والاقتصادية .

وعاد الدكتور الرفاعى إلى أرض الوطن ، مليئاً بهذه الثروة العلمية والثقافية ، فعين مدرساً فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة

وتدرج فى هيئة التدريس بها إلى درجة أستاذ كرسى الاقتصاد السياسى .

وتدفق نتاجه العلمى متواليا على مر السنين ، بحيث يكاد لايمضى عام دون أن يكون له فيه مؤلف يطبع أو بحث ينشر .

وكانت عناصر الصورة التى انطبعت فى نفوس طلابه وزملائه هى : الجد فى العمل ، الحرص على أداء الواجب ، الإخلاص فى خدمة العلم ، العزوف عن الإعلان عن النفس ، تجنب الصغار ، محبته لطلابه ، وتقدير طلابه ومحبتهم له .

وفى سنة ١٩٤٤ ندب الدكتور الرفاعى عميداً لكلية الحقوق بجامعة بغداد ، حيث أحسن أداء الرسالة التى دعى للقيام بها . وعمل على توثيق الصلات العلمية والإنسانية بين أساتذة القانون والاقتصاد فى العراق وزملائهم فى مصر .

وفى سنة١٩٤٧ ندب الدكتور الرفاعى مديراً للشئون الاقتصادية بجامعة الدول العربية ولم يكد يستقر مقامه فيها حتى خطبته وزارة المالية ليكون وكيلا لها لشئون الضرائب وهو المنصب الذى شغله من سنة ١٩٤٧ حتى سنة ١٩٥٢ ، وقد اتسع له به مجال التطبيق لعلم المالية العامة ، ومجال الإصلاح لجهاز من أهم أجهزة الدولة صلة بالمواطنين وتأثيرا فى شئون حياتهم .

ثم انتقل الدكتور الرفاعى إلى ميدان آخر من أوجه النشاط الاقتصادى ، وهو ميدان الائتمان العقارى ، إذ عين فى سنة ١٩٥٢ رئيسا لمجلس إدارة بنك الائتمان العقارى ، الذى أدمج فيما بعد فى البنك العقارى المصرى

وفى سنة ١٩٥٥ عين الدكتور الرفاعى نائباً لمحافظ البنك الأهلى ، ثم عين محافظاً له .

ولما أنشىء البنك المركزى بوظائفه الخطيرة ، اختير الدكتور الرفاعى محافظاً له ، لما يتمتع به من علم وخبرة ونزاهة .

وظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٦٤ ، حين وقعت الواقعة التى ماكان لها من دافع . فقد طلب اليه إتخاذ إجراء معين فى مجال النقد . ولما قدر بعلمه ، وخبرته ما لهذا الإجراء من خطر على المصلحة الاقتصادية للبلاد ، أعد مذكرة برأيه فيه . وعاد إلى منزله مرتاح الضمير مطمئن البال .

وفى صباح غده طالعته الصحف بنبأ تعيين شخص آخر فى مكانه ، فعرف أنه عزل من منصبه . وتلقى هذا الجزاء صابراً مؤمنا . ولكنه عرف أيضا أن الله قد ابتلاه فى إخلاصه لعمله ووطنه ولقى عنده خير الجزاء .

ومنذ هذا الحدث والدكتور الرفاعى قانع بعمله أستاذاً غير متفرغ بكلية الحقوق

بجامعة القاهرة ، يحاضر طلاب الدراسات العليا ويشرف على ما يعدونه من رسائل علمية . وهو العمل الذى ظل يباشره بشغف حتى أقعده المرض عنه .

هذا هو موجز الحياة العلمية والعاملة للدكتور الرفاعى .

وأما عن نتاجه العلمى ، فأول ما يذكر فى شأنه أن الدكتور الرفاعى كان من أوائل الأساتذة المصريين الذين حملوا عبء التأليف فى العلوم الاقتصادية والمالية باللغة العربية بأسلوب علمى رصين ، بما يقتضيه من جهد فى وضع مصطلحات عربية تقابل المصطلحات الأجنبية فى معناها فى وضوح وكفاية ودقة دلالة .

ولقد أخرج الدكتور الرفاعى خلال سنتى ١٩٣٦ و ١٩٣٧ مؤلفه فى الاقتصاد السياسى ، ضاما جزءين كبيرين ، عالج فيه مختلف موضوعات هذه المادة فى شمول وعمق وارتقاء علمى جعله يقف جنباً إلى جنب مع ما نشر فى زمانه من مؤلفات لكبار أساتذة الجامعات الأوروبية .

وفى سنة ١٩٤٢ أخرج الدكتور الرفاعى مؤلفه « الضرائب المباشرة فى مصر » ، شرح فيه نظام الضرائب المباشرة الذى فرضه المشرع بقانون سنة ١٩٣٩ ، وذلك فى ضوء مقارنته بالنظم الضريبية المقابلة له فى قوانين عدد من الدول الأجنبية .

ولما كان فقه الضريبة المصرى ذلك الحين لا يزال فى مهده ، فقد شارك هذا المؤلف فى إرساء قواعده ، كما أعان القضاة والباحثين على فهم هذا النظام الضريبى الجديد .

وعند ما كان الدكتور الرفاعى عميداً لكلية الحقوق ببغداد وأستاذاً للاقتصاد السياسى والمالية العامة بها ، أخرج فى سنة ١٩٤٥ مؤلفه « علم المالية العامة والتشريع المالى العراقى » ، بسط فيه مبادئ علم المالية العامة ودرس التشريع المالى العراقى مقارناً بالتشريع المالى المصرى . وجاء هذا المؤلف ، فى نطاق موضوعه ، مكان لقاء بين الفكر المصرى والفكر العراقى .

وبجانب هذه المؤلفات العامة ، نشر الدكتور الرفاعى الكثير من البحوث المتخصصة فى مختلف موضوعات الاقتصادية السياسى والمالية العامة والتشريع الضريبى . كما اتخذ من بعض مسائلها موضوعات لما ألقاه من محاضرات على طلاب الدراسات العليا .

وإذ كان هذا المقام يضيق بالدراسة التحليلية لهذه البحوث والمحاضرات فإنه ينبغى ذكر ما تتميز به بصفة عامة ، مع إلقاء نظرة عجلى على أهمها :

جرى الدكتور الرفاعى ، فى بحوثه ومحاضراته ، على تعقب الأحداث والمشاكل الاقتصادية الهامة ، داخل مصر وخارجها

وعَرَض كل منها بالشرح والتحليل ، وردّها إلى أصولها ومسبباتها ، ومناقشة وسائل علاجها .

من ذلك أنه عندما اجتاحت العالم أزمة الثلاثينيات ، وتقدمت الحكومات الأوروبية والأمريكية بالمتنوع من الوسائل لحلها ، أدرك الدكتور الرفاعي ما لهذه الحلول من أثر بالغ في اقتصاد بلده . وهو الاقتصاد الذى كان وثيق الارتباط بالاقتصاد الإنجليزى والاقتصاد الأمريكى . لذلك فقد عكف على دراسة أوجه العلاج التى اتبعت فى الخارج حلا للأزمة . وكان ذلك فى سلسلة مقالات ، أذكر منها :

- الأزمة النقدية الإنجليزية
- تأثير الأزمات النقدية الإنجليزية فى النظام النقدى المصرى .
- تثبيت الأثمان بوساطة السياسة النقدية .
- استعمال الأوراق الأجنبية كضمان للإصدار .
- سياسة رفع الأسعار فى الولايات المتحدة الأمريكية .
- تثبيت الدولار المؤقت وتطور السياسة النقدية فى الولايات المتحدة الأمريكية .
- تخفيض قيمة العملة البلجيكية والتطورات النقدية الحديثة .
- التعويضات وتسويتها فى مؤتمر لوزان المنعقد فى يونية - يولية سنة ١٩٣٢ .
- حماية صناعة السكر فى مصر .

ولما تهيأت الظروف فى مصر كى تبدل دينها العام خلال الحرب العالمية الثانية ، مهد الدكتور الرفاعى لذلك بمقالة فى « تخفيف أعباء الدين العام » .

وعندما فكرت الحكومة فى فرض ضريبة على الأرباح الاستثنائية تناول بالنقد والتعليق أنظمة هذه الضريبة فى الخارج والمشروع الخاص بها فى مصر .

كذلك فإنه كتب بحثه فى ضريبة أرباح المهن غير التجارية عندما فكرت الحكومة فى تعديل نظام هذه الضريبة المنصوص عليه فى قانون سنة ١٩٣٩ .

وعندما توالت المشكلات الاقتصادية فى مصر والخارج ، فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، لم يغب عن الدكتور الرفاعى أن يدرس هذه المشكلات .

من ذلك ماكتبه فى مشكلة الأرصدة الاسترلينية المتجمعة لمصر ، مبينا نشأة هذه الأرصدة وتطورها أثناء الحرب ، ومستقبلها ، مع مناقشة حجج انجلترا فى إنكار هذه الديون والاقتراحات التى قدمت لتسويتها واقترح لمنع تراكم الأرصدة مستقبلا أن يكون للحكومة فى مصر السيطرة التامة على نظام البلاد النقدى ، وأن يصبح البنك الأهلى بنكا مملوكا للدولة .

وفى سنة ١٩٦٠ نشر الدكتور الرفاعى بحثا فى « الاتجاهات الاقتصادية فى الخمسين سنة الأخيرة فى ضوء الدراسات

فى مصر والخارج » . وقد تناول فيه تحليل معالم ذلك التطور الأساسى الذى طرأ على الفكر الاقتصادى حول تدخل الدولة فى الميدان الاقتصادى ، خلال تلك الفترة الحافلة بالأحداث من تاريخ العالم . وهذا البحث لايقدر عليه إلا العالم الخبير المتمكن .

وبجانب هذا النتاج العلمى الوفير القيم ، أسهم الدكتور الرفاعى بجهوده فى معالجة كثير من المشكلات الاقتصادية فى المجال الداخلى وفى المجال الدولى .

— من ذلك مساهمته فى وضع الأسس الفنية والتشريعية لاستقلال الجنيه المصرى عن الجنيه الأسترلينى وتخليصه من التبعية التى عقدتها انجلترا بينهما منذ سنة ١٩١٦ ، خدمة لأغراضها الاستعمارية

— واستعانت الحكومة السورية بالدكتور الرفاعى فى تنظيم فصل النقد السورى من الارتباط بالفرنك الفرنسى .

— وكم من نشاط وجهاد بذلها الدكتور الرفاعى فى المؤتمرات الدولية ، فى سبيل الدفاع عن حقوق بلاده وطلباتها ، جرى ذلك أثناء تمثيل بلاده فى مؤتمر التعويضات الألمانية المنعقد فى سنة ١٩٤٥ ، وفى مؤتمر الصلح المنعقد فى باريس فى سنة ١٩٤٦ ، وفى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورات انعقادها فى نيويورك فى سنة ١٩٤٦ ، وفى باريس فى سنة ١٩٤٧ ، وكان مندوب مصر فى عدد من لجانها وهى : لجنة الشئون الاقتصادية والمالية ، ولجنة الشئون الاجتماعية والإنسانية والثقافية ، ولجنة الشئون الإدارية والميزانية

كذلك فقد مثل الحكومة المصرية فى كل من مؤتمر لجنة التجارة الدولية المنعقد فى جنيف فى سنة ١٩٤٨ ، ومؤتمر الحراسات الألمانية المنعقد ببروكسل فى سنة ١٩٥٠ .

وامتد نشاط الدكتور الرفاعى إلى ميدان عمل مجمعكم الموقر ، بوصفه خبيراً له أول الأمر ، ثم بوصفه عضواً فيه ، بقدر ما سمحت به البقية من عمره .

هذه هى حياة فقيدنا العزيز

لقد عاش الدكتور الرفاعى مستور الحال ، لأنه لم يتخذ من جمع المال هدفا . ولكنه مات غنيا. فقد توفى عن تركه كبيرة ، متعددة عناصرها :

— ثروة علمية ضخمة ، أفاد منها جيله ، ولايزال ينتفع بها من أتوا بعده .

— خدمات جليلة لوطنه ، لايزال يفيد منها بنو أمته ..

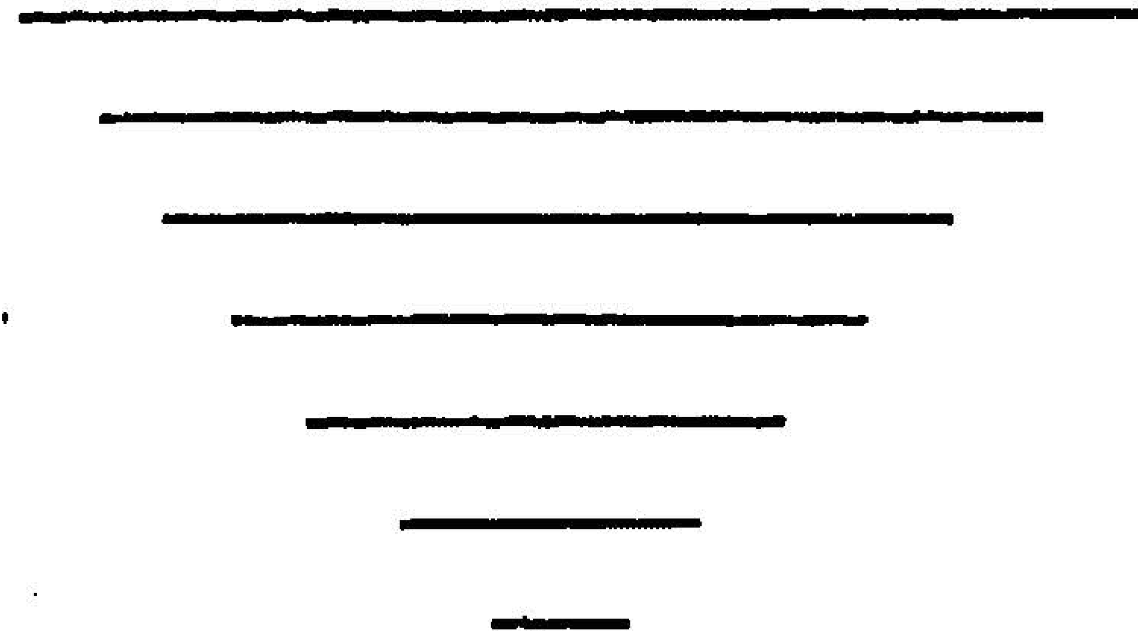
— جيل من الاقتصاديين الذين تلقوا العلم عنه ، يضطلع عدد منهم بأخطر المهام الاقتصادية فى البلاد .

* لقد أرضى الدكتور الرفاعى ضميره وأرضى ربه .

* عاش الدكتور الرفاعى حياته متواضعا ، وشاء أن يكون متواضعا بعد موته . فقد أبى إلا أن تشيع جنازته فى القرية التى ولد فيها وأن يدفن فى صعيدها ، بعيداً عن زخرف العاصمة وزينتها .

وكان الدكتور الرفاعى تقيا ، لم يأت فى حياته شيئاً نكراً .

رحمه الله ، وأجازه ، وجعل الجنة مثواه .



•• كلمة الأسرة للدكتور محمد عبد الحكيم الرفاعى

سيدى الرئيس :

أساتذتى الأجلاء أعضاء مجمع اللغة العربية :

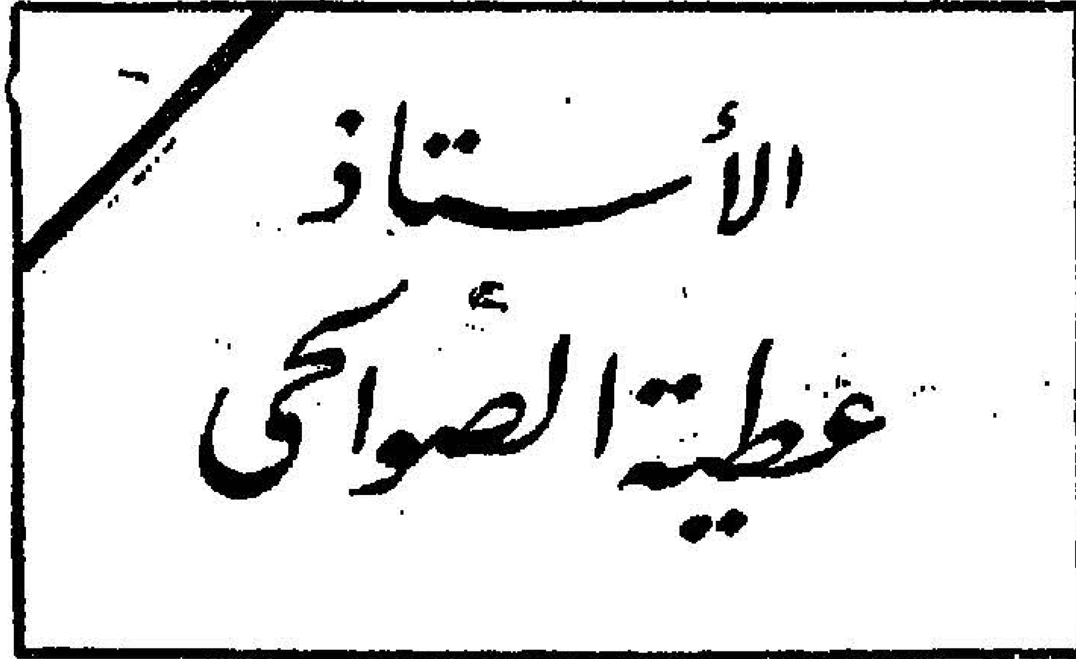
سيداتى ، سادتى :

اسمحوا لى أولا أن أعبر عن عميق امتنان أسرة الفقيد لفيض اللفتات الكريمة التى أسبغها علينا رئيس المجمع ونائب الرئيس وأعضاء المجمع من عيادتهم للفقيد أثناء مرضه ، إلى تأبينه فى الصحف اليومية ثم المشاركة فى العزاء ، ثم إقامة هذا الحفل . ولئن كان كل هذا الفضل يتناسب مع مودتكم لفقيدنا ، ومع سماحة سرائركم ، إلا أنه يحملنى مالا قدرة لى على إيفائه حقه من الشكر :

لقد بلغت كلماتكم العظيمة المفعمة بخلجات الوفاء والتقدير أعمق الأثر فى نفوسنا ، إذ كان المغفور له يعتز كل الاعتزاز برسالة مجمعكم الجليل ، وبدوركم فى الحفاظ على اللغة فى المجالات العلمية والحضارية الحديثة ، وكان رأيه أن استقامة اللغة فى الاستمساك بالاصالة ، وفى الإبقاء على الشرائع ، وجاء سخاؤكم فى الإشادة بمناقب الراحل الكريم ، جديرا بالصدور عن معقل الأصالة فى بلدنا ، وخليقا بعد أجيال من عائله الفقيد بأسباب الفخار . بيد أن عبد الحكيم الرفاعى رحمة الله عليه كان حريصا على غرس التواضع فينا ، اقتداء بكم وبمن سبقكم من الرجالات أعضاء مجمعكم المبجل .

وختاما أتقدم إليكم جميعا وإلى الاستاذ زكى المهندس والأستاذ الدكتور عز الدين عبد الله بأصدق الشكر وعظيم العرفان ، وأسأل الله أن يديم عليكم نعمه الاستمرار فى إعلاء شأن أمتنا ، وأن يجازيكم عنا خير الجزاء ،

•• كلمة الأستاذ على النجدى ناصف فى تأبين فقيد المجمع*



سيادة الرئيس ، أيها السادة

قد كان ماخفت أن يكونــا
إنـــا إلى الله راجعونـــــا

نعم ، لقد قضى الأمر ، ونفذ المقدور ، فرحل عنا زميلنا وصديقنا العلامة : الأستاذ الصوالحى ، رجع إلى ربه ، ودخل فى عباده راضيا مرضيا ، لم يغن فيه إكذاب نفس ، ولاتعلل بأمل . ولكن متى أفلتت الخديعة أو أغنت الحيلة من الموت شيئا؟

هيهات إنه السهم الإلهي العتيد ، يرسله الله - جلت عظمته - على من حان حينه وحقت الفجيعة فيه ، فيمضى لوجهه مصيبا نافذا ، لايخطئ رميته ، ولايخلف موعدته . ومامنا إلا يعلم ذلك ويؤمن به ، عليه مضت سنة الأولين ، وعليه تمضى سنة الآخرين لاتبديل ولاتحويل .

ولكنه الضعف البشرى ينتاب المرء ، وقد يستبد به ، ويغير من واقعه حين يمتحن فى عزيز عليه ، ممن تضمهم اليه أواصر وثيقة محكمة ، فاذا هو مضطرب الكيان ، لقس النفس تغشاه غاشية من الهم والاكتئاب ، جزعا مما ألم به ، وعجزا عن احتماله ، واشفاقا مما هو صائر اليه ، وملاق منه بعد صاحبه أو صاحبته : من الوحشة بعد الأنس ، والافتراق بعد الاجتماع ، والفقدان بعد الوجدان . وشديد عادة منتزعة ، كما يقولون .

هنالك لايجد معتصما يعوذ به ، ولامهربا يفر إليه ، إلا إكذاب النفس ، والتعلل بالأمل : ويرحم الله أبا الطيب المتنبى اذ يقول فى إحدى مراثيه :

طوى الجزيرة حتى جاءنى نبأ
فزعت فيه بآمالى إلى الكذب

على أن الحق الصادع ، والواقع الذى الذى لانجاء منه مايزالان يتكشفان له ، ويهيبان به ، حتى يثوب اليهما ، ويروض نفسه على تقبلهما ، إيمانا واحتسابا أوسلوا ونسيانا .

والمرء فى استشرافه للكمال ، ونزوعه إليه يرد النفس على مكروهها فى الضراء وحين المحنة فيمنع عاطفته أن تجيش ، ويحبس دمعه أن يفيض ، إيثارا لسمت الرجولة

* اقيم حفل تأبينه بدار المجمع بالجيزة فى صباح الاربعاء ١٩٧٤/١١/٦ والقيت فيه الكلمتان التاليتان .

الموروث، وأداء لضريبتها المفروضة، وأخذا بمنطق التفريق بين الرجال والنساء حين المرزئة، وذهابا مع أبي تمام في قوله.

خلقنا رجالا للتجلد والأسى
وهن الغواني للبكا والمآتم

وإذا كان الجزع والاستسلام له مغضبة للرب، ومجلبة للوم فإن ردع النفس في غير رفق، وحملها على الكظم بلا رحمة متلفة للنفس في غير حكمة ولارشاد، إلا الحرص على أوهام، والمتابعة لوراثات ماأنزل الله بها من سلطان.

وبين الانقياد للعاطفة والإنكار عليها رتبة عدل، ورأي فصل. ولست أعرف كالتعزي، والارتياض به، والهوادة فيه مذهبا يهدي إلى الحق والخير، ففيه سكينة للنفس، واستجابة للفطرة، وإقرار بحقها في التأثر والانفعال ومباعدة، بينها وبين الشطط والاندفاع.

من أجل ذلك كان موقفي الآن بين أيديكم موقف المؤبن لفقيدنا الكريم، وزميلنا العالم الجليل الشيخ الصوالحي، من أصعب المواقف مقاما، وأشدها إيلاما، وأقساها حزنا وهما، لأنه الموقف يردني في غير قصد إلى اليوم الذي جاءني نعيه فيه على غير توقع له، ولاتوجس منه.

فقد كنت عرفت حين احتجب عنا أنه يجد من وعكة حم ألمت به، فأخلد إلى الراحة اتقاء تطورها واشتداد وطأتها، فوقر في نفسي أنها بفضل حيويته وقوة يقينه وإحكام علاجه — لاتلبث أن تنفصم عنه فإذا هو بحمد الله بارىء موفور

وليس أقسى من الخطب حين يقع على المرء في غفلة منه، وعلى غير ترقب له.

لقد عرفت الفقيد الكريم لأكثر من خمسين عاما خلت وصاحبته فتى جادا طلوبا، وكهلا متمرسا دءوبا، وشيخا صادق التجربة، واسع المعرفة، عالما متمكنا، دانت مصاعب العربية له، وأفضت بأسرارها إليه.

ولم تكن صداقتنا هذه من قبيل ماألف الناس أن يعرفوا من الصداقات، ولكنها كانت من قبيل نادر، يعز نظيره على تعاقب الأيام. إن الناس يلتقون فيتعارفون ويتآلفون، أو يتناكرون ويختلفون، فيكون بين المتآلفين صداقة ومودة، وبين المتخالفين تناكر وجفوة. وتتصل صداقة الأصدقاء، أوهم يتمنون لها الاتصال، لكن الأيام قلما تستجيب لهم، ولاتلبث أن تباعد بينهم مباعدة التشتت والفراق، أو مباعدة البال المشغول أو العمل الموصول، لايتيح لصاحبه تفكرا في ماض، ولانظرا إلى وراء. وتطول المباعدة أو تقصر، فتصير المودة هونا إلى الريث والفتور، أو الذهاب والاندثار.

والأيام التي هذا دأبها مع الكثير من الصداقات والأصدقاء هي التي أحسنت إلينا، فجعلت توالى صداقتنا بما يذكي جذوتها، ويجدد عهدها، ويكفل لها البقاء. فلم نكن

نفترق حينا إلا على وعد من الأيام بلقاء جديد. وفى خلال هذه الحقبة الطويلة لم يكن لينقل إلى بلد إلا تبعته إليه ، ولا ليتولى عملا إلا شاركته فيه ، على تعدد البلاد التى نقل اليها والأعمال التى وليها .

وكان هو دائما السابق المرتاد، وكنت أنا دائما الآخذ من بعده على الطريق ، حتى التقيناها هنا فى ساحة مجمعنا الجليل، فأنشدنا قول الطرماح :

فألقت عصاها واستقربها النوى
كما قرعينا بالإياب المسافر

التقينا اللقاء الأخير ، وتشاركنا المشاركة التى لاتالية لها ، ولكنه كان لقاء ماأعجاله، وتشاركا ماكان أقصره :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة
من الدهر حتى قيل : لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا
لطول اجتماع لم نبت ليلةمعا

وهكذا الدنيا : اجتماع وافتراق ، كان هذا دأبها فى الدهر القديم ، وسيظل دأبها حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولقد كنت أود مخلصا لو كان لى السبق إلى هذه الرحلة أتقدمه اليها ، وأدع له هو هذا الموقف الذى أقفه منه الآن، وحسبه ماسبق إليه قبل من رحلات، ولكن الله - تعالت حكمته - أبى إلا أن يكون له السبق فى الحياة وفى الممات .

وأشهد ماعرفته هذا العمر الطويل إلا رجلا كامل الرجولة ،شهما أريحيا،رضى الخلق ، جم التواضع ، طيب المعشر سليم دواعى الصدر ، مأمون الغيبة راسخ الإيمان ، شديد الخشية لله ، صادقا ، مجاملا ، عف اللسان ، مارأيته قط حاقدا على مسىء ولا ذاكرا لبغيض بسوء ، ولا مضطغنا على ماكر ظنين .

نعم ، كان يغضب بعض الأحيان حتى يجهر بالقول، لكنه الغضب الطاهر البرىء، لامكابرة فيه ولاعناد ، ولاعاقبة له من من ضغينة أو إصرار على شر ، كان غضب الغيرة على الحقيقة كما يراها ويؤمن بها، فهو ينتصر لها،ويذود عنها فى مقاربةوإنصاف

لقد كان - يرحمه الله - فى شمائله وخصائص نفسه نفحة زكية من نفحات الريف المصرى الطيب ،وبضعة نفيسة من قلبه النقى الطهور ، لهذا كان شديد الحب له، متجدد الحنين إليه ،متمثلا فى القريةالتى أنجبته ، فكان لايزال يختلف إليها ، ويقيم فى أهلها إبان عطلة الصيف ، وكلما دعت داعية ، أوسنحت فرصة مواتية ، حبالهم وبرابهم ، فما كانوا منه و لاكان منهم إلا كما يكون الأبناء من الأب الرحيم أو الإخوة البررة من الأخ الكبير .

وهناك يجتمعون إليه ، ينفضون هومهم بين يديه ، ويراجعونه فيها ويسألونه الرأى الذى هو خير ، فإذا لهم منه بركة وهدى ورشاد،وكان منزله بالقاهرة مثابة لهم ، يفدون إليه لبعض شأنهم ،أو الاستشفاء من أمراضهم ، فيخلطهم بنفسه كأنهم بعض

أهله ، ويبذل لهم من عونه سخيا جوادا :

فإذا رأيت شقيقه وصديقه
لم تدر أيهما أخو الأرحام ؟

ثم رأى — رحمه الله — أن يكون بره بهم أشمل، وخيره لهم أبقى ، وإن كان فى واقع ماياطفهم به من هذا وذاك كفاية وغناء ، فأقام لهم وحدة صحية ، تطب مرضاهم ، وتخفف من آلامهم ، لايصدر فى ذلك عن ظهر غنى ، أو فضل مال مكنوز ، لكنه الإيثار ، وحب الخير ، والولوع باصطناع المعروف خالصا لوجه الله ، كل أولئك حقيق أن يصنع العجب، وأن يوجب على صاحبه ماليس بواجب، بل لقد يغريه بالتضحية والفداء .

ذلك هو الأستاذ الصوالحى — كما عرفته إنسانا بين الناس ، وصديقا فى الأصدقاء .

أما الأستاذ الصوالحى عالما بين العلماء ، وباحثا بين البحاث — فقد كانت مواهبه ومنازع نفسه تعده للفقاهة والنبوغ ، بل التقدم والتبريز ، إذ كان — رحمه الله — يحيا حياة الزهادة والجد، بل حياة هى أقرب إلى التبتل والانقطاع . لم تكن له مسلاة أن يتفرغ لها ، ويطيب نفسا بها ، سوى كتاب يقرؤه ، أو بحث يبحثه ، أو مسألة يدرسها ، أو مشكلة يعالج حلها .

لذلك لم تكد تتفتح مواهبه ، وتنضج معارفه ، وتتميز شخصيته العلمية حتى كان علما مذكورا بين أعلام المدرسين الثقات المجدين ، أولئك الذين لم يغفلوا فى عملهم عن معالم البيئة، ومخترعات العصر، ومحدثات الحضارة ، فوصلوا دروسهم بها، ليختاروا منها ما يتيسر لتلاميذهم فهمه ، ولا يشق عليهم القول فيه ، لكن الكثرة الغالبة من أسماء هذه المسميات وما يتصل بها هنا وهناك — تذهب ما بين عامى شائه مسيخ ، ووافد مستعجم دخيل ، فلم يكن بد من أن يقبلوا على المعجمات ينقبون فيها ، وعلى قوانين العربية ويستوضحونها ويحتكمون إليها، فيما هم بسبيله من محاولة فسبقوا إلى قدر عظيم من الأسماء العربية القويمة ، يتبدلونها فى دروسهم بمقابلها من العامى والدخيل .

ولم يلبث فقيدنا — يرحمه الله — أن أصبح أنبه هؤلاء العاملين ذكرا ، وأوسعهم شهرة ، فأينما حل كان بين زملائه المرجع الثقة، العالم الثبت ، يرجعون إليه كلما غمت عليهم مسألة ، أو شبهت عليهم لفظة ، أو خفى عليهم وجه الصواب فى عبارة فيجدون لديه الجواب حاضرا ، أو يكون لهم به وعد غير مكذوب .

وإذا كانت عطلة الصيف ، وأقبل موسم الامتحانات العامة ، وتوافد المدرسون من أطراف البلاد — كان اجتماعهم هذا مثار جدل ومساءلة وخلاف إما فيما يجد فى عملهم الحاضر من مشكلات ، وأما فيما كان بينهم فى عامهم هذا من تنازع فى الرأى ، وذهاب ببعض القضايا اللغوية والنحوية مذاهب شتى ، وهنا يكون الأستاذ الصوالحى كما كان هناك فى مدرسته صاحب رأى ، إلا يكن

فصلا ، فما هو بالذى يذهب لغوا ، فليس يعنم فى القليل بينة له ناهضة ، أو علة مسوغة ،أو أن يكون رأيا مفردا ، لكنه غير مجفو ولا مردود .

وعرف القائمون على شئون العربية فضله وقدروه حق قدره ، فكانوا إذا تنازعتهم الأعمال ، وضاقت من حولهم الأوقات — يكلون إليه دراسة بعض ما يعرض لهم من الأساليب المدخولة ، أو الألفاظ المشتبهة فيضطلع بما وكل إليه من ذلك أمينا صادقا ، وباحثا رشيدا موفقا .

أستطيع اذا أن أقول غير مكذب ولا مأخوذ بمبالغة : إن الأستاذ الصوالحى كان لغويا معرقا ، ومجمعيا أصيلا — تمرس بمباحث اللغة ، وتعاطى من أعمال المجمعيين من قبل أن يكون للعربية مجمع ، فكانت حياته فيه امتدادا لحياته قبله . ولقد مضى هنا على العهد به أينما كان غير آل جهدا ولا ضنين بوقت يبحث ويمحص ، ويستنبط ويستخلص ، مشاركة لزملائه فى العمل الموصول والجهد المبذول .

وفى مجلة المجمع ، وبين قرارات اللجان التى اشترك فيها فيض من مباحثه ودراساته : لقد كانت العربية أحب إليه من نفسه ، فلم يبخل عليها بحياته ، إذ كان يعلم أن مرضه عضال ، وأنه منه على خطر ماثل ، وكان طبيبه دائم النصح له أن يترفق بنفسه ، ويتخفف من عمله ما استطاع ، لكن حب العربية كان أغلب عليه ، وأقوى من إرادته

لذلك كان كلما سكت المرض عنه ، وخف وقعه عليه سارع إلى أوراقه وكتبه ، فأكب عليها ، وآتاها من فكره وذات نفسه بغير حساب . ولم يكن يفرح لشىء كفرحه إذ يأذن له الطبيب أن يدع مخدعه ليسعد بلقاء زملائه ، ويغاديهم بما عودهم من دراسات

ومن قبل هذا قضى من حياته المباركة خمسين عاما أو تزيد ، يعلم فى مدارس الدولة المتعددة ، ويحاضر طلاب دار العلوم ، ويشارك فى مناقشة الرسائل الجامعية فيها وفى كلية اللغة العربية ، فأخذ عنه فى المدارس طوائف شتى من المتعلمين ، وتخرج عليه أفواج إثر أفواج من المتخصصين فى اللغة العربية ، ثم انبث هؤلاء وأولئك هنا وهناك فى العالم العربى ، أصحاب عمل ، وحملة أمانة ، ومشارق نور ، ومناهل عرفان

وله مع ذلك كله مشاركة فى التأليف والتحقيق ، فله :

(١) رسالة فى لغة أقليم الشرقية ، وتقريبها من اللغة العربية ، وقد نشرت مرتين فى كتاب الشرقية .

(٢) الأضواء النحوية والصرفية .

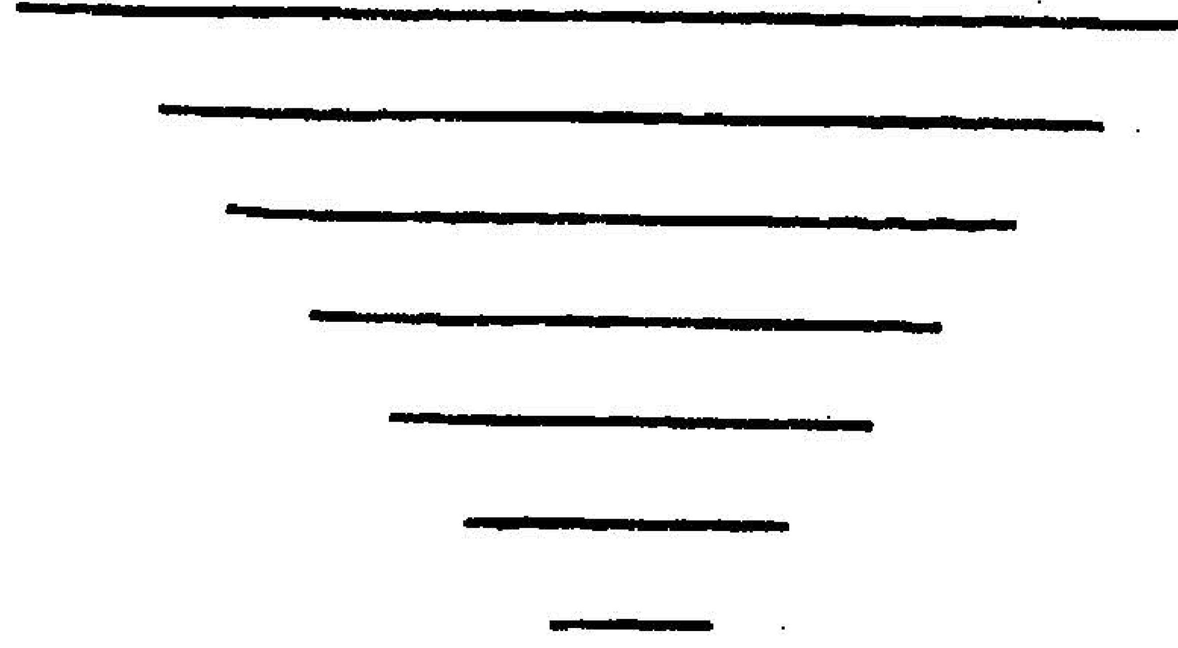
(٣) مذكرات فى التحليل اللغوى .

(٤) تحقيق الجزء السابع من كتاب نثر الدرر ، بتكليف من وزراة الثقافة .

(٥) تحقيق أمالى ابن الحاجب .

أيها الراحل الكريم ، ياصديق العمر ، وياشقيق الروح ؛ لقد أرضيت ربك بما عملت من صالح ، وما قدمت من خير ، وأرضيت عشيرتك بما كنت تلطفهم به من بر ، ومن حنان ، وأرضيت زملاءك بما أبليت معهم فى المشاركة جادا مخلصا ، وما أحسنت فى المعاملة سمحا كريما ، وأرضيت قومك بما أسديت إلى لغتهم من صنيع : تيسيرا لصعب ، وتوضيحا لمبهم ، وحلا لمشكل ، وتداركا لفائت .

فنم فى جوار ربك قرير العين ، هانئ البال ، خالدا مخلدا فى نعيم الله ورضوانه . أحسن الله جزاءك كما أحسنت عملك ، وأفاض عليك من رحمته كفاء ما قدمت من خير ، وأسديت من معروف ، وأعلى فى الآخرين مقاملك ، وأنزلك منازل الأبرار والصديقين ، وحسن أولئك رفيقا .



كلمة الأسرة للدكتور محمد عطيه الصوالحى

السيد الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية :

السادة الأساتذة الأعضاء :

سيداتى وسادتى :

تشرفت قبل اليوم بحضور الحفل الذى أقمتموه لاستقبال أبى رحمه الله حين انتخبتموه عضوا فى مجمعكم الموقر ، وأوليتموه شرف الانتساب إليه ، فرأيت كيف يكرم العلم ، ويقدر الفضل ، ولا غرو فإنما يكرم العلماء العلماء ، ويقدر الفضل أولو الفضل .

وأتشرف اليوم بحضور الحفل الذى تقيمونه لتأبينه بعد أن أختاره الله إلى جواره فانتقل إلى مغفرته ورضوانه ، فرأيت مثل مارأيت بالأمس من تكريم وتقدير ، ورأيت إلى ذلك كيف يكون وفاء الزملاء لذكرى الذين ينتقلون منهم إلى رحاب الله .

ولا غرو فى ذلك فأنتم القدوة خلقا وكرما كما أنكم الصفوه علما وفضلا . لقد فقد المجمع أبى عالما مجدا ، وزميلا مخلصا ، وفقدنا نحن فيه أبوة بارة رحيمة وصداقة غالية كريمة ، كان يرحمه الله يغمرنا بالعطف والحنان ، ويتعهدنا بالتفقد والرعاية ويعدنا بالعون والنصح والتوجيه ، كان لنا ملاذا وسندا ، وكان لنا فيضا ومددا ، وكان لنا نورا هاديا ، ورجاء صادقا ، وكان لنا قدوة حسنة ، ونعمة سابغة .

وأنى إذ أنوب عن أسرة الفقيد فى شكركم وإكبار فضلكم لأتوجه بالتقدير والعرفان إلى السيد الأستاذ الدكتور رئيس المجمع والسادة الأساتذة الأعضاء والسيد الأستاذ الجليل على النجدى ناصف الذى أبن الفقيد ، فوفاه من التقدير والإعزاز حقه ، كما أتوجه بالدعاء الخالص إلى الله جلت قدرته أن يحسن عنا جزاءكم ويفيض على فقيدنا وفقيدكم سحائب رحمته ورضوانه إنه سميع مجيب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

كلمة وفاء

للمستشرق المجرى الدكتور عبد الكريم جرمانوس في ذكرى فقيدى المجمع الدكتور طه حسين والأستاذ محمود تيمور

أعترف بكلمة الصوفيين : «الحياة حلم ، الموت هو يقظته » والمسلمون لا يهابون الموت أو يخافونه . وحتى الذين يشكون في هذا الرأى فإنهم إذا ما انقطع حبل الحياة عندهم فإنهم (يموتون) ، في حين يقولون عن المؤمن (توفى) ، لأنه يذهب إلى ربه . . إلى جنة الله ، حيث يأخذ ثواب حياته ، ويكسب نتيجة ما قدمه من عمل ، كهدف من أهداف الحياة . .

فلماذا يبكى وينعى المسلمون أمواتهم بصيحات الألم في علو صوت وجهارة ؟ لماذا لا يطمئنون ويهدأون للمصير ، إذا ما ذهب إلى رحاب الله سبحانه وتعالى أخ أو صديق برىء شريف ، قدم التضحية غاليا ؟ قد لا ينعون المتوفى إلى رحمة الله تعالى ، لكنهم ينعون فقدانه ، ويعبرون بذلك عن آلامهم لهذا الفراق ، الذى سببه الموت .

إن أصدقائى العرب حاولوا أن يخففوا عنى الآلام حينما أخفوا عنى لشهور عدة أخبار الجرائد والمجلات المصرية والخطابات أيضا ، بل إنهم حاولوا بطريقة أو بأخرى أن يبعدوا عنى هذا الشك الذى أحسست به ، وهو أننى لن أرى فى حياتى مرة أخرى وجه صديقى العزيزين : الدكتور طه حسين ومحمود تيمور .

منذ عشرات السنين . . منذ كنت طالبا فى الجامع الأزهر الشريف ، الذى تجاوز عمره الألف عام ، حتى أصبحت أحد شيوخه ، ثم أستاذا فى جامعته . منذ بعيد عرفت محمود تيمور ابن العلامة الكبير أحمد تيمور باشا ، هذه الشخصية التى حبتنى بصداقتها الحارة منذ اللحظة الأولى التى تعرفت فيها عليها . لقد كان محمود تيمور منذ فجر شبابه من أشهر كتاب القصة المصرية . ومن الكتاب المسرحيين ، وأحد أعمدة الفكر العربى القديم بكل ما تحمله من أصالة . إن كل الكتاب قد أحاطوا بى نتيجة هذا الحب الذى أولانى إياه معلمهم الكبير . إن حلقاته مع رجال الأدب والعلم ما زالت حتى اليوم هى المنهج لرجال العلم والمعرفة والتاريخ فى مصر .

لقد نشأ محمود تيمور فى رحاب مدارس الكبار من أمثال موباسان وتشيكوف وبورجيه . ومع ذلك فقد كان يضع نصب

عينيه دائما مواضيع القرية المصرية والشعب المصرى ، خاصة البسطاء منهم ، حيث ترجم أحاسيسهم فى أمانة وصدق . إننى لاأريد أن أخوض هنا فى تعريف أشكال أدبية إذ أن الحال لايسمح بذلك ، لكن ذكرى الموت لصديق كبير هى التى تدفعنى إلى ذكر ذلك.

فى بداية تعارفنا كتب محمود تيمور مقاله الطويل عام ١٩٦٩ فى العدد الحادى عشر — من المجلد السابع عشر من مجلة (قافلة الزيت) بتاريخ ذى القعدة ١٣٨٩ حيث صدر المقال فى المملكة العربية السعودية ، وقد ظهرت ترجمة مقاله باللغة المجرية فى مجلة (الأفق) فى عدد شهر سبتمبر من عام ١٩٧٠ . . إننى لأختار عدة فقرات من مقاله المذكور حيث تنم كلماته عن الحب والتقدير :

« الحاج عبد الكريم جرمانوس تواصل لقائى معه مرات متتالية ، أصيل كل خميس ، وكأن بيننا رباطاً من الصداقة منذ سنين مضت ، وما كان أمتع حديثه وهو يصف سفرته إلى الجزيرة العربية يتوخى بيت الله الحرام . لقد ركب هنالك الجمل متمايلا على إيقاع سيره ، منشدا مما يحفظ من الشعر العربى وهو يهيم فى غيبوبة من النشوة بما للصحراء من رمال شاسعة ، وشمس ساطعة ، وبما يرح فيها من هواء طليق . . وما كان أطيب مقامه بين أهل الوبر ، ومنامه فى الخيام والأخبية ، يستمرئ هنالك حياة السذاجة الهانئة .

وهيهات أن يطيب الحديث فى شأن (الدكتور جرمانوس) دون الإشادة بعدته الهضوم ، ودون التنويه بطعامة المفضل الذى الذى فتن به أى فتنة ، ذلك هو الشواء . تذوق الشواء فى مصر فاستهواه ، وكان إذا طلب الشواء نطلق بالكلمة مطوله مفخمة منغمة ، وهو يمصمص شفتيه .

وإنى لمعترف بأن قصتى التى سميتها (المستعين بالله) ووصفت فيها أحد من شغفوا بالشرق وأهله ، كان استيحاؤها بالجملة من صديقنا عاشق الشرق والعروبة والإسلام . » ... ...

وينهى محمود تيمور حديثه بالعبارة التالية :

« والدكتور جرمانوس يستقبل اليوم الشطر الأخير من عشر التسعين ، وإنه لعمر بورك فيه طولا ، ولكن كسب الرجل وجهده وسعيه فى هذا العمر المبارك أنمى بركة وأوفى .

وإذا كان الدكتور جرمانوس قد أحب الشرق والعروبة والإسلام وأرضى حبه بعقله وقلبه وقلمه أحسن رضاء وأخلصه ، فإن المجامع اللغوية فى مصر وسوريا والعراق قد بادلته هذا الحب الصادق ، واختارته عضوا فيها .

وإن له فى قلوب كثير من الأدباء والمفكرين والمثقفين ممن صحبوه صديقا ، أو سمعوه محدثا ومحاضرا ، أو قرأوا له كاتبا ، مكانة الإعزاز والتكريم ، كإنسان حقيقى » .

هكذا كتب عنى محمود تيمور . . هذه الشخصية العبقرية التى أنتجت أكثر من ثلاثين مجلدا، انتشرت فى أماكن متفرقة من العالم بمختلف اللغات حيث تمت ترجمتها إليها. إننى قد نشرت بعضا من فقرات كتبه فى كتابى (تاريخ الأدب العربى)، لكننى لازلت أعود بذاكرتى إلى الوراء ، وعيناى مليئة بالدموع ، إلى ذكرى مقابلتنا فى القاهرة ، ولازلت أتذكر استقباله واحتضانه لى فى بيته قبل عدة شهور قليلة . واليوم بقلب مفجع أحس هذه الخسارة التى منينا بها .

أما الدكتور طه حسين فهو رئيس المجمع اللغوى بمصر العاجز النظر . وهو الجرىء، المحارب من أجل حق الكلمة . وهو أيضا الرجل العظيم الذى وضعت يدى فى يده حينما أبعدوه عن رحاب جامعة الأزهر، لما رأى بعينيه اللذين فقدهما أبعد مما رآه زملاؤه من الرجعيين . لكنه مع كل ذلك لم يتخل أبدا عن جرأته وشجاعته . فهو ككاتب بالصحف اليومية ، وكمؤرخ للأدب شق طريقا فى أدغال الجهل . وحينما أشرفت مصر والحركة الثقافية فيها أن تأخذ طريقها إلى الرف فتصبح مبعثرة مبعدة عن المجالات الأدبية الحيوية ، أنقذ الدكتور طه حسين التقاليد القديمة بأصالتها، ونفث من روحه فى الحياة المصرية ، مما أسبغ عليها من التجديد وأبعد عنها التجمد والشلل الذى كان يمكن أن يحيق بالأدب العربى :

لكن مصر لم تنس ابنها الشجاع المقاتل من أجل أدبها ، فأصبح بعد ذلك وزيرا للتربية والتعليم المصرى ، ورفعته إلى مرتبة الباشوية، مع أنه لم يستعمل هذا اللقب طوال حياته، ثم قلدته منصب رئيس المجمع اللغوى المصرى حتى وفاته .

إننى سعيد وفخور بأنى أصبحت صديقا له. إننى فخور بأننى جلست إلى جانبه فى مقعد المجمع اللغوى المصرى، وبأن سنحت لى الفرصة بأن اشترك معه فى الأبحاث والمناقشات العلمية داخل رحاب المجمع. بل إنه رغم فقدان نور عينيه فقد شرفنى بخطاب خطه بيده لى . نشرت صورة له فى كتابى (تاريخ الأدب العربى) .

إن الدكتور طه حسين قد سمع صوتى الذى أوحى إلى به علمه ، وأحس دون أن يرانى عينا بعين بيدى المرتعشة وهى تصافح يده الكريمة ، لكنه لم يرها أبد . إننى كنت أنظر إليه باحترام كبير وشكر عميق ،

وقد علتنى الدهشة وأنا أطالع نظارته السوداء. إن جسده الرقيق الناعم قد اختفى الآن من أمامى . سوف لا أطالع وجهه مرة أخرى ، ولن أسمع بأذنى حديثه العذب وهو يوجه الأدب العربى ومصيره وطريقه .

لكننى على يقين من أن روحه سوف ترافق مصير هذا الأدب ومستقبله .

عزيزىَّ : محمود تيمور والدكتور طه حسين ، إنكما ستعيشان داخلى دائما وإلى الأبد .

الحاج عبد الكريم جرمانوس
عضو المجمع المراسل من المجر

